رواية

دُنى غالي

بطنها المأوى

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

عبر السماء تبحر عيني .. عبر العين يبحر ضوئي .. عبر الضوء تبحر ريحي .. عبر الريح تبحر يدي .. عبر اليد يبحر جلدي .. عبر الجلد يبحر نبضي .. عبر النبض يبحر دمي .. عبر الدم يبحر نهاري وليلي .. عبر النهار والليل تبحر سنوني .. عبر السنين يبحر موتي.

Søren Ulrik Thomsen, City Slang, 1981

يجب أن تسردَ عليهم قصّةً محبوكةً، وحذار أن ترتجل شيئاً. اكتبْ كل شيء على ورقة، احفظْ كل شيء، اسمكَ إن كان منتحلاً، وكلَ الكلمات العامية التي تعود إلى المكان الذي أتيتَ منه، أو تدّعي أنه كان مسقط رأسكَ. عليكَ أن تُقنع المحقّق أنكَ الأفضل لهذا الدور.

اللقاء بين مريم وعامر (إن كان هو اسمهما الحقيقي) تمّ في مكان ثالث، ذلك لأن هناك مكان أوّل، لم يلتقيا فيه، ولكنه كان النبع، الطفولة المشتركة، مع كل مناهل قصصهما لاحقاً. ويعني أيضاً أن لقاء سابقاً قد تمّ بينهما في مكان ثانٍ، لم يُذكَر جغرافياً، لكنه ابتلعهما، وصارت مساحة الروح أوسع. كان مسرحهما بسطوته، والجنّة لأحدهما. لم يعرفا إن كان هو ما ربطهما معاً، أم تراه اللقاء ما يربطنا بالمكان؟

المكان الثالث هو غربة حسب، توبة ويأس، تمثَّلَ بهبوطٍ اضطراري، في لحظة قدرية قبل العودة إلى المكان الأوّل.

عامر يلمح مريم من بعيد. محطّة القطار الكبرى. يوشوش صدى السفر في أذنه. ينظر إلى بلاطات الرصيف، عجلات الحقائب الصغيرة، كعوب أحذية النساء، ذيول الحمام الخاتل أعلى أعمدة السقوف، الوجوه الملوّنة العابرة، ورق التذاكر المَرمي على أرصفة المحطّة، ممسحات عمّال النظافة، رجال الشرطة البيض، والنظرات الباردة. عشرات الإشارات والأسماء، بلغات يجهلها. الناس تسرع، تتصادم، تتفرّق، وتكمل طريقها.

ليست مريم! ليست استقامة ظهرها تلك. لا، ليست هي، للحظة نسي المكان الذي هو فيه، وما الذي ستفعله مريم المجنونة في هذه المدينة، ما الذي سيأتى بها إلى هنا؟! لو يعرف. تختفي. أ هي في رحلة استجمام؟ أم أنها عزمت أخيراً على ترك البلد الغريب، والرحيل إلى الأبد؟

صوت نسائي إذاعي يطلع من مكبّرات الصوت، ثمّ يسكت، يعود ينادي، ذبذباته ترمي به إلى ثنايا أماكن أخرى بعيدة في كل دفعة من ندائها. تجتاحه هزّة لانقطاع الصوت للحظة. لطالما تخيّلها، وهي تقف أمامه فجأة. لطالما توسّل اللحظة.

اختفت ثانية. في ماكنة الصرف الآلي، ربّما في ماكنة بيع البطاقات. للتوّ كانت هنا. ضاعت في لوحة الإقلاع، لا، المغادرة، في أثناء تبدّل المعلومات على الشاشة. إنها تقفز من مطار إلى آخر، وشريط تقلّبها سريع، من برج حمام إلى آخر، في محطّات قطار تتشابه، بين سكك تتبدّل، تختفي، إلى أين وجهتها؟

مريم تلمح عامر من على مبعدة. تُخفي نفسها بين المسافرين وتدفع عربتها. تتلفّتُ بحذر من خلف نظّارتها السوداء الكبيرة. تترك شعرها يغطّي نصف وجهها، تهزّ رأسها تعميةً لينساب الشّعر أكثر، ويضيّع صفحتي خدّيها. تتساءل عمّا يفعله هذا التعس في هذه المدينة. كيف يكونان في مكان واحد فجأة، ثمّ ما الذي جاء به إلى هنا؟! هل حصل عامر حقّاً على الإقامة أخيراً؟! هل حصل حقّاً على جواز سفر؟ لعلّه أقدمَ على حماقة، وهرب، أو تمّ إبعادُه بعد سنوات الرفض؟

تعرفت مريم على عامر قبل سنوات، لا تذكر عددها. في البدء، جمعتهما كلمة منفى، المنفى بوصف إدوارد سعيد الذي تحلم مريم بمقابلته، رغم أنها لا تحترم المثقفين والعقلاء. عامر ضحك أيضاً للتسمية المثقفة، وهما الآتيان من مدينة واحدة. عامر وجد فيها نموذج امرأةٍ غريباً. قسوة وخشونة زائدة، لامرأة من مدينته. لا يمكن لامرأة من مدينته أن تكون بمواصفات كهذه. يحتار في تحديده، فيها ما يضطره إلى إخفاء علاقته بها أمام الآخرين من الرجال.

وهي قد نفرت من اليساريين من أبناء جلدتها، ووجدت ضالّتها به. متحمّسة وفائرة. هذه النقطة مثار اختلاف بينها وبين أمّها. اعتادت أمّها أن تقرّعها لقلّة صبرها. لم تكن مريم تحتمل أن تضبط الأمّ لها ضفائرها بالطريقة التي تبدو فيها صغيرة. تشدّ شعرها الكثيف العَكِف بعد فرقه من الوسط بقوّة، تنجرّ معها عيناها إلى الجانبين. تحاول الأمّ أن تهوّن عليها، تلعن في محاولة تهدئتها حتى تتمكّن من حبس الخصلات الأمامية القصيرة المتمرّدة لئلا تفلت. ومريم تقنط، وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، فتركل طاسة الماء، وترمي بالمشط بعيداً. اختلافها مع أمّها لم يكن مجرّد اختلاف، بل سبب كل ما اندفعت تجاهه في حياتها. عداه، فالأمّ وابنتها لا يختلفان عن بعضهما كثيراً، فمريم تظنّ أنها ورثت عن أمّها تلك الرغبة في الوصول إلى حافّة الأشياء.

كيف لا والأمّ ولدتها على أرضية سجن! الأب سياسي، والأمّ سياسية، ولدا ابنة، لا تشبههما. مريم تفوقها بخيالها، أو ما تصرّ الأمّ على تسميته بعادة الكذب لديها. هي مَن ألف المسرحيات في المرحلة الابتدائية، وأخرجها. لا تني تنعتها بالبارعة في المخيّلة، وفي اختلاق القصص مذ كانت صغيرة. ومَن قال إن الأمّ دوماً أمينة فيما ترويه بلسانها؟! مريم ترى الكذب والخيال واحداً، ترى عامر على سبيل المثال مرّة نبياً منزلاً، وقزماً لقصر قامته في مرّة أخرى!

لعلّه شبح عامر ذاك الذي يتنقّل بين جموع المسافرين. لا، ليس هو. لحيته كثّة، تغطّي نصف وجهه، كأنه أحد المطلوبين على قائمة الإرهاب. إنه بدائي مجنون، لا يفقه من الحضارة والحواضر شيئاً. لا يعرف كيف يلاعب ابنة الكلب الدنيا. ومذ ترك بلده، لم يفهم وبعد كل هذا العمر ما وراء ثقافة هذه المُدن، وما تعني مدنيتها. تلوح ابتسامته اليائسة في مخيّلتها، وهي تحثّه. وهو يصرّ على تسمية ذلك ثقافة، يقرنها بشيء ما غير محدّد، مزيجٌ تعالٍ وصداع رأس. حارت مريم في كيفية جعله يدرك

فداحة النقص الذي كان عليه. وهو ينزعج أيّما انزعاج لأن وجهها حينها يتعارض مع لسانها الفالت الحُزّ، وتنقلب أجواؤها إلى غائمة مكفهرّة.

واصلت سيرها متعقدة التواري بين المسافرين. استسلمت للموقف، فهي لم تعد متيقّنة من شيء. لا تستبعد مريم أن يكون عامر هدفاً لجماعة متطرّفة، تعمل على كسبه. لديه كل المؤهّلات ظاهرياً. والمدنية أصعب الدروس التي فاته تعلّمها. من الصعب فَهمها على كبر. لا عجب أنهم وجّهوا إليه تهمة خطيرة ذات مرّة، حين دَرَجَ على لقاء عصابات تهريب البشر أوّل وصوله. هكذا بقصد أن يلتقي الآخرين حسب. وهو لم يكن ينشد غير التقرّب، من أجل سماع أخبار البلد والقادمين منها، والذين في طريقهم، أو على انتظار في محطّة وسطية، بنيّة الوصول. الطريق الشاقّ ذاته الذي أكسبه ذاكرة. تابع الحكايا معهم بشغف، مع كوب شاي أسود مُحلّى بالسكّر، لطالما أضعَفَ صموده، في احتمال غربته.

مريم فهمت عامر جيداً، من شأن لقاءاته مع الناس أن تحقّق متعة كبرى، يعتاش عليها لأيّام. يُغيظها، وهو يعلن عن نفسه. هذا العامر ذو العينين المغمضتين الجميلتين لم يفهم معنى أن يخالف. مريم تجد إدراك هذه الأمور صعباً على مَن لم يترعرع في حضن هذه الحضارة لتقوّمه بقسوتها. المجنون كان يحيّي المارّة، ويكلّم مَن هم إلى جانبه في الباص. كان يتبرّع بخدماته للناس، من دون مقابل، يعير ملابسه، يطبخ للنساء اللاتي ينتشلنه، ويوزّع ماله ما إن يتوفّر لديه.

تبذل مريم جهداً في المشي بظهر منتصب. يغيب أمامها اثنان في قبلة وداع حارّة، تجعل شفتاها تنفرجان. تعترضها سيارة غولف، تنقل امرأة عجوزاً إلى خرطوم طائرتها، وتضطرها إلى رسم ابتسامة متكلّفة على وجهها. تضيق بالمطارات الأنيقة، تجبرها على التهذّب، وهي تسير على أرضيتها الصقيلة. ولابد من سريان تلك الرجفة مسبقاً في بدنها لاتّهام ما، وإن كان كل ما في حوزتها قانونياً. خوف مزروع فيها، مزمنٌ، لا شفاء منه. تضيق بحالة السّلْم المغلّف، التعقيم، الزّقي الذي يتلبّس الجميع في معاينة الجواز، النعومة التي تبدو عابرة في التحقّق من الهويّة والوجوه على عجلةٍ من خلف زجاج شفّاف، بينما الأنياب التي اعتادت أن تنشب في اللحم مختفية.

ترصده. تتحزّق لمعرفة وجهته. أين كان؟ إلى أين سيذهب؟ هل قرّر العودة أخيراً؟ آه، ربّما وصله خبر موت الإنسان الوحيد في حياته، ربّما

تنتظره وصيةً، وهو الآن في طريقه بقصد زيارة قبرين، لا قبراً واحداً، يؤرّقه منذ سنين.

لم يصدّق أنها هي. يلوّح لها من بعيد. مريم. تخترق رائحةُ عَرَقها أنفَه، فتسري رعشةٌ في بدنه، ويتصلّب وسطه. الموقف يثير استغرابه. كيف لا تركض وتقبّله، فتخرخش كل سلاسلها على صدره؟! كيف سيحضنها بعد هذا الفراق كله؟! أ هي هاربة؟! أم هو الروتين، لا غير؟ روتينها هي، وليس غيرها. يعرفها جيداً. ملولة، مجنونة، تبيع ما تملك، من أجل السفر لأسبوع، للشمس والمخالفة والرجال الدافئين.

يقترب عامر من يقينه. هما في صالة انتظار في مطار. صالة ترانزيت، والمطارات إقلاع وهبوط، زحام وعجلة. ما له يتخيّلها في أمكنة أخرى يألفها، بين قطارات هرمة، تنتزع العطف والتقدير، عند محطات، أثقلها زيت العوادم، وركدت فتائل الدخان الطيني الأسود طبقات فوق بعضها في زواياها؟!

اختفى من حياتها. سنوات لا تُعدّ بالأيّام باعدت بينهما. لم يهدأ لعامر خلالها بال، وفقَدَ ثوب مريم لونه، وجلدُها تحت الثوب ذبل. من الغريب أن يتقابلا في بلد ثالث غريب عليهما!

زمنٌ غريب، لقاءٌ غرباء، لغة أغرب هذه المرّة!

تعزفث مريم على عامر من خلال عملها في الصليب الأحمر. لولا اطلاعها خفيةً على أوراقه لما تمكّنت من فَهم قضيته. أثار اهتمامها. مظهر دلّ على نعمة، بشرة فاتحة، ذقن مخضوضر حليق، وجسم مربوع ممتلئ. تحزك فيها شعور بالانحياز إلى صفّه. احتلّها الفضول، وسرى بدوره في طاقم العمل. دار همسٌ بين العاملين حول كتابته لرسائل بإنكليزية ركيكة، كان يسلّمها بنفسه إلى المشرفات في المعسكر، يدعو إحداهنّ عبرها لزيارته في غرفته. زميلاتها بين مستهجنات ومشفقات، بتخوّف وتوجّس منه. ترى الاستهجان تلفيقاً، والعطف خطلاً، وهي من دون تخطيط مسبق.

طالب لجوء، لم ينته التحقيق معه بعد من قِبل الشرطة. أوراقه غير كاملة، وهو يجد متعة في المماطلة، أو الامتناع عن الإجابة. عامر امتنع عن ذِكْر شيء. ظلّ مصرّاً على الالتزام بما أوصى المهرّبون به. مزّق البوردنك كارد، وأخفى أوراقه الثبوتية قبل دخوله البلد. حتّى هويّته المؤقّتة ظهر فيها هازئاً رافضاً بشعر أشعث، وهي تتأمّلها من دون أدنى محاولة منها لإخفاء ضحكتها (وعدَ أن يهديها تلك الهويّة حال حصوله على ورقة إقامة).

رصدته مريم، وهو يقصد مكتب العاملين، أو يخفّ ليتبع فتاة. تفحّصت الفتيات من طالبات اللجوء وهنّ يستدرجنَه إلى غرفهنّ لينسفنّ أسبوعيّته، بأكملها. أثارَها تخيّل جوعه حين ينقضّ مثل نمر سيبيري على فريسة شقراء، أو وهو يساوم لبوة سوداء، ويقدّم نفسه لها لحمةً حارّة.

تعود اللحظة بعامر إلى شقّة مريم الضيّقة لأوّل مرّة. حين خطر له أن ينحني ليقبّل العتبة. يدوس تراب أرضٍ، ظنّها وطناً، ومريم تحاول أن تضبط لحن أغنية شعبية قديمة بلغتها. تخفق، تعيد غناء المطلع من دون فائدة، فتضحك. يُمارس على عامر الذي دعته إلى العشاء لأوّل مرّة نوعاً من السُّخر في قربه منها. تقذفه بكلمات عامّيّة قديمة بعيدة، بأمثال سمعها، ولا يذكر أين. لهجة مريم تُذيبه. إنها لغة أمّه، لسانها، بطنها ورحمها. يتذكّر الأغنية. يحاول أن يعيد المطلع، ينجح، ولكنه لا يضبط

النغمة. يكتشفان مدى سذاجة كلمات الأغنية الشعبية المستهلكة. يترجرج الثديان لضحكها بصخب.

فتح قنينة النبيذ الأبيض التي جاء بها بشهوة تستتر خلف خفّة. كان شعرها الطويل مثل غيوم تعارف أوّل، ستار على معانيها، يطلُّ عامر في وجهها ليتأكّد من ضحكتها. تصيح من مكانها في المطبخ الطعام جاهز، وعلى عامر أن يعدّ الطاولة، وعامر يشعر بموجة السعادة ترفعه عالياً. صوت الصحون. ضجيج المرأة موسيقى، لم يحلم به حتى لحظة دخوله شقّتها. يتعثّر بكُتُب مرصوفة حدّ الأريكة على الأرض، ويفزّ لصورته منعكسة في مرآتها الضخمة المسندة إلى الجدار. يسأل عن رائحة البيتزا هل تضايقها، تهزّ رأسها نفياً، لكن ملابسه، شعرَه.. لا يستطيع أن يتذوّق شيئاً، إن لم يأخذ حمّاماً، يتوسّل الخمس دقائق، واستعارة حمّامها ليزيل رائحته المعثّقة.

كانت روحه تحلّق راقصة في بيتها، وبداخله أرنب مفزوع مهتاج. يدير الماء البارد فقط، ينزل مثل دفق عارم من الشهوة، فتصعد رائحة المطعم من ثنايا جسده منفرة إلى أنفه. ينزل الماء قوياً، وهو يحاول أن يتفحّص أشياءها. يعصر إسفنجتها، يلمس فرشة أسنانها، يسرّح شعره بفرشاة شعرها، ويشمّ صابونتها. حمّامها صغير، المكان ضيّق جداً، ملابسه مكوّرة فوق ملابسها. تتساقط الأشياء، فيعيدها إلى مكانها. تتساقط الأشياء، ويعيدها إلى مكانها. تتساقط ...

مثل رحلاتِه تتكرّر الأصوات، مثل الماء المحبوس في أذنيه من العوم في البحار لعصور، مثل صابون الغار في حمّامٍ رطب قديم لاذع الطعم حريف الرائحة. تنثال من فمه كلمات متقاطعة مُرّة، مثل قصفٍ محموم تتقاذفه أحاسيس، مثل احتراق أطراف الصفصاف الحزين المتدلّي في تلك الطارمة ببلاطاتها المثلّمة، مثل دوّامات الغبار، مثل لسعات النار، واحتراق العود الغضّ، وطعم الرماد على طرف لسانه، رماد كُتُبه المدرسية الممتزج برماد كُتُب خاله، وهي تحترق على مهل.

كأنه رأى وجهه في مرآة مريم لأوّل مرّة. أرعبته كُتُبها المصفوفة فوق بعضها على الأرض. لطالما حدّثوه عن الكُتُب، أجبروه على حبّها، يشمّ بطونها خلسة، وهو صغير، نديمهم، قصّوا له القصص منها وعنها، عن جلودها التي باعها الجنود حين لم يدفع الخليفة رواتبهم، نعالاتٍ للفقراء، فما الذي تفعله الكلمات، بشتاءٍ قارس. لطالما أرهبوه بالكُتُب، وأجبروه على

كُرهها، يخشاها، ولا يجرؤ أن يفتح أصغرها. وحدّثه أبوه عن جدّته التي تفنّنت في دفنها، عن صفائح سمن "الراعي" التي نزلت تحت الأرض، ولم يعثروا عليها حين تبدع الناس في فنون التمويه؛ - حرق الكُتُب مثل حرق الأصابع، حرق قصتنا.

سال الماء على النار المضرمة فيه، على صوت ندائها. مريم، مثلّث النار، صوتها النار لا تخمد، الأنفاس المخبأة في الثياب، مريم من لوعة الذاكرة المَمحية. تدندن، فيبكي، عندما صوتها مع صوت الدوش... يصله، يجفّف، ويجفّف، وعيناه غائمتان، أم مرآتها؟

خرج من حمّامها بيدين ممدودتين، سأل مستميحاً العذر عن... يداه تمتدّان بالمنشفة صوبها، أكثر، أعمق، تسألان، أين يضع منشفتها المنقوعة؟ إنه قريب من الجثة. إنها وصفة سخرية. اختنق بانفعاله، وسال دمعه، وهي تهمّ تلحق به. صرخت به عندما رأته يفرّ، يهرب، يفتح الباب بلحظة، ويتقافز، ينهب درجات السلّم ليطلع خارج البناية إلى الشارع.

عامر يسير كمن يعوم في الهواء. يتشبّث بجهله. الطرق الخارجية التي تنقله من المعسكر، وتوصله إلى المدينة طويلة مهندسة وفارغة. غابات وحقول على امتداد البصر. بيض في الشتاء الطويل، وخضر على حين غرّة. اخضرارٌ يتفاجأ به كل عام عندما يشبّ بالأرض دفعة واحدة. بقع تتلوّن فجأة بالأصفر، زهور تهزم سبات روحه، البنفسجي، زعفران متطاول ملتفّ حول نفسه، الأبيض في قطرات الثلج، زهرات ما إن تشرئبّ حتى تنحني. يترجّل من الباص، إن صادفها، يترنّع حدّها، يحني رأسه لها، ويعتذر من القلب عن عدم سابق معرفة.

الطرق الداخلية للمدينة قصيرة متقاطعة مزدحمة، تلتهمها لوائح المرور، أسماء محلات، وقوانين تخص المنتزهات. طرقٌ علّمته مفردات جديدة، ترافقها ابتسامة غير الواثق من لفظه حين ينطقها. اقتضى السفر أن يحرّك لسانه. أن يستخدمه، ويمرّنه، بدلاً من بقائه غائصاً ملتوياً داخل فمه.

اللغة محتذة جوّانية في لقائه بأزقّة المدينة القديمة. يجلس على عتبة مبنى عمارة. يمرّ به الجوق الموسيقي للخرس الفلّكي في استعراضه اليومي. ينهض من مكانه، وتتحرك قدماه بآلية لتسير على وقع ضربات الطبول الخفيفة المتتابعة والصوت الرفيع لآلة الفلوت، خفيفاً رشيقاً، فيود مثل مالك لبرجٍ حمام، لو يطلق النغمات من أعلى بناية لتصل إلى هناك.

ينقله الصوت إلى عالم خرافي للأطفال، وتدفعه البهجة ليواصل الطريق. الأجسام تملؤها النياشين، والرؤوس المنتصبة تعلوها قبعات الفرو السود العالية المتطاولة، وهي تخفي الوجوه، الزيّ الموحّد والخطوات المتدرّبة بخطوطها المستقيمة. والمارّة، مَنْ يواصل السير، ومَن يلتفت ثانية بمَلَل، الدرّاجات ملتزمة بممرّها الخاصّ، والباصات تقترب حثيثاً من مواقفها، ومن جهة ما، تهبّ ريح، تتداخل تيارات البرد فيها مع الدفء محمّلةً برائحة قهوة صباحية، تبعث فيه ألفةً، تُنسيه وحدته، فيضحك لبول جروٍ ناصع البياض جانباً على الدكّة.

يتأمّل الفتيات، ويفكّر بالإجراء الجراحي الذي أُجري للسانه المنعقد أوّل المطاف. إنه يلجلج، في أوّل لغوه. لكنه يتساءل لِمَ كلّ هذه الكلمات؟ لِمَ يتوجّب علينا أن نحفظ كل هذه الكلمات الطويلة العريضة، الكبيرة والمعقّدة، المدمجة والمستعارة، كيف يضمّها قاموس، ويحتملها عقل؟! يقطع الصوت عن الناس، ويراقب الشفاه. لِمَ لم تتطلّب تلك البقعة النائية التي انطلق منها الكثير من الكلمات؟! أ لم تسر الحياة هناك كما يجب لها أن تسير؟! أ لم يتواصل مع الشجر والطير؟! وهل يختلف البشر حقّاً؟! هل الطبيعة مجزّأة؟! هل نعيش حقّاً في جزر منفصلة؟! مريم تحاول هي الأخرى استنطاق تعابير وجهه، وملء الفراغات في جمله الناقصة. تُقوّله، وتضيق به، في الوقت نفسه. وهو لم يقلْ لها إنه يقارن بين الهنا والهناك، لكنها هي التي تصرّ دوماً على لا جدوى المقارنة، وعليه أن ينسى.

تقول إنها تحمل بين طيّاتها الهروب والرسوخ هذه المريم، وتقول إنه التطوّر الطبيعي للأشياء والناس. بوجهها وهجٌ حارّ من فرن، ومناوشاتهما لا تنتهي هي وعامر. لا تحبّ مَن يخالفها، أو يناقشها هذه المريم. تبصق في كأس مَن يجسر على ذلك. حينها يترك لها عامر الطاولة، ويغادر الحانة. لماذا تصرّ على رأيها؟! هو لا يشعر أن رغبته حارقة بالعودة إلى بقعته النائية. المكان هنا هو الأصلح للتماهي، هو الأمثل للاختباء. إنها هي التي تتخيّله راغباً بالعودة، هي مَن تريد له أن يعود، عليه الحذر، إنها شياطينها مَن يزيّن لها تلك الأفكار، فتحاول أن تغرسها فيه.

ما الذي تريده المُدن، وهي تمنحنا هوية ضائعة؟راجلة، في سيّاراتها، على درّاجاتها، أو عرباتها، الناس أفواجٌ في صعود إلى المدينة، يخالونه الطريق إلى السماء. وهو حين يلتفت إلى الوراء، يتذكّر سفر الطفل الغريب المعاكس، كان سماءً مفتوحة بكلّيتها له!

مثل جمل يلوك العاقول بزهره القرمزي. لغةٌ كالوردة مقتلعةٌ من مكانها تذوي في الرحلة كجسد تائهٍ، تتوالى عليه الفصول في حروف صحراء من الوحشة والوهن، لغةٌ تئنّ تتشبّث بأذيال أثواب الغرباء المارّين، كفن يستجدي طعاماً وشراباً، تتوسّل أذناً ولساناً.

محظور على الموظّفين الاحتكاك شخصياً بطالبي اللجوء. هناك حذر من إظهار أيّ شكل من أشكال التورّط الشخصي في قضاياهم. لكن الصعوبة بالنسبة لمريم كمنت في عدم تقبّل طالبي اللجوء من أبناء جلدتها لطريقة تعاملها المهنية والموضوعية مع قضاياهم، بداعي أنهم من بلد واحد. مشكلتها معهم هي في ادّعائها التعاطف والتظاهر بالتفهّم، ولكنّ ما عساها فعله، وهي تشعر بالسأم والقرف من كل شيء من حولها. وجوه متعبة متباكية، عُقد نفسية لا حصر لها،وأفق ضيّق جامد، لا يثير فضولها. وهي لم تكن لتأبه لشيء أو شخص غير إتمام ساعات العمل، والانصراف.

وجدت نفسها تغازله كلّما التقته وحيداً، لبّت أوّل دعوة من عامر لشرب فنجان قهوة، لكنها طلبت كأساً من النبيذ الأبيض في غرفته. والنصف ساعة امتدّت حينها إلى ساعات. أربعة أمتار مرتعة فوق بعضها. دولاب حديدي وضوء مخنوق وقطع ملابس علّمته أمّه كيف يثنيها. لم تفهم سرّ انجذابها إليه! لم يكن عامر ضمن مَنْ يستهويها من الرجال. هو لا يُسمعها جديداً، إنما وقعه يرضي مرّة بعد أخرى جرعة أكبر من غرورها، ويوقظ اندفاعاً عاطفياً مفرحاً فيها. له شفتان ورديّتان طريّتان، تثيران شهيتها لتقبيله، عيناه صافيتان لامعتان ناعستان، استوقفا ترجسيّتها، وهو يتأمّلها إنها أنيقة بالثوب الذي ترتديه، إنها لا تكبره بعشر سنوات، بل تصغره؛ - لنقل بعشر. وضحكا.

نبض قلب متبادَل. لغة مشتركة. شِعارُ جمهوري قديم، حجر أزرق وعشبة مفقودة، تعابير جسد واحد وملامح وجهين، إشعاعات تقرّب الكلمات من معانيها، فيكون وقعها على الإذن مؤثراً.

جلس عامر على حافة الكرسي في بار رطب قديم مغمس بالدخان، يتلفّت من حوله قلقاً بانتظارها، ولم تكفّ ساقاه عن الحركة. تصل مريم بكعبها العالي، عالي الصوت، وتقبله على الخدين، يغطيه شعرها بسواده، فيتحرّق إلى الخلوة. سيرفعها إلى الأعلى، ويدور بها، وهي تصرخ أنزلني. تسحب الكرسي لتجلس، وتضع حقيبتها الكبيرة فاصلاً بينهما على الطاولة، فيزيحها جانباً. يتأملها قبل أن ينهض، يطلب عند البار المعتم كأسي نبيذ أبيض، ويفكّر في طريقه إلى طاولتها ما أكثر الرجال الذين يشتهون مجالستها الآن، وأكثر بكثير، التمدد لصقها.

في شراهة تدخين مريم انتظار، الطاولة الخشبية تتحرّك، أظفارها تصير مخالب، شرر عينيها يستعجله، فيخبرها، أجل، إنه يعشق صغيرةً شقراء. يروح يصف عينيها الملوّنتين وشعرها السارح النازل إلى مؤخّرتها. يقول إنها تظهر، وتغيب. تعلّمه القراءة والخَبز على طريقتها. تدوف العجين بيدين رقيقتين، تحفر مفاصل يديها، وتنتشر عند الخجل رصعات حمر على بياض الوجه، وعلى جانب رقبتها. هو يخبز لها أيضاً. الخُبزة لها تارة شكل قلب، وتارة شكل حروف اسمها، اسمها تينا، ومذاقها مذاق التينة عندما تكون صفراء ذهبية، الناضجة تقريباً، لابد من قطفها قبل أن تنضج تماماً. ثمّ يرفع جذعه قليلاً، ويدني رأسه تجاهها عبر الطاولة ليقول بهمس مريم، لو غفلتِ عنها نصفَ نهار، سيسبقكِ البلبل، وينقرها، إن تينا تينة...

تضرب مريم بيدها على الطاولة بعنف. ترنّ الكؤوس، وينقطع الحديث بين رؤاد البار، وهم يلتفتون إلى حيث يجلسان.

يدنو من جديد مريم، هل اقتربتِ يوماً من ظلّ شجرة تين، في يوم شتائي دافئ، والشمس تحرّر كل ما في جذع هذا الكائن الكتوم، كلّ المخبأ تحت سطح الورق الزغبي وداخل الثمر من روائح وخمر. إنه ليس عطراً كالذي ترسله شجرة حنّاء مزهرة. إنه نداء استوائي لغريب يستجدي روحاً، أضاعها.

إنه جسد امرأة تقترب من نفسها، أيها الغبي، تقول مريم بسرّها. وعامر يشبّه شجرة التين بأمّه، وحليب تينها الفجّ يداوي التاليل.

مثل خَلَل فنّي ينقطع صوتاهما للحظات ليعود الإرسال بصوت مريم، عالياً مثل منبّه: وأنا؟! ماذا تظن لديّ من اسمي، من مريم؟! لديكِ شعرُها الأسود. لم أختره من أجل ذلك. أنتِ ظلّها على الأرض. لستُ ظلاً لأحد، أريد رضاها، أريد رضا مريم، أفكّر في أن أغيّر اسمي، هل تبدو لكَ مريم راضية؟! هل تعلمين؟ تينة ساحرة عندما تكون راضية.

تضحك مريم مثل إبليسة: قلْ عندما تُشبعها؟ لا، ليس هذا. صدّقني لا تريد منك غير هذا.لا، هي مباشرة في هذا؟ منذ متى؟ تسعة أشهر، ولكنْ لا أدري، أقول لكِ إنها لا تهوى المقدّمات، و. وماذا، يا عامر؟ إنها تحتاجني، وتقرأ لي، تعلّمني الحروف، ولكنْ لا أدري لماذا تفكّر كثيراً، تزداد سوءاً كلّما فكّرت. هل تركتك؟ليس تماماً. لا أسمعك، يعني تركتك؟

تهزّ يده الممتدّة صوب يدها، تنشب أظفارها في جلده، وعامر يحتدم، ولا يقوى على البقاء في مكانه، فيغادر مستأذناً.

تستشيط مريم غضباً. تمضّ بيد مرتجفة آخر ما تبقّى في سيجارتها. هي إشارة لنفاد علبة سجائرها ونقودها، وضرورة استدانتها. تحكّ طلاء إظفر السبابة بأسنانها، تقشّره بأظفارها، وتبصق ما علِق على لسانها. لم تشأ تسمية ما بينهما، ولكنه لم يكن بأي شكل من الأشكال التزاماً. ذلك ما حرصتْ على توضيحه له في أوّل اقتراب له منها. تتناول حقيبتها بحنق، وتقذف تعليقاتها الساخطة بسرّها على روّاد البار والعجوز الذي لم يخلِ الطريق لها عند الباب. تصطدم عينها بمانشيت لجريدة صفراء، تسدّد تهمة جديدة إلى الأجانب بالطبع فعامر يجهل هويّة روّاد هذه الحانة. تلعنه، وتلعن العنصريين، وتسرع لتلتحق بخفارتها.

تسخر من صوت القرقعة التي يصدرها محرّك سيّارتها لا يعكس غلاف السيارة عطلاتها. سيّارتها تشبهها، تجلس في داخلها، وتصفق بابها من جديد، بكل ما أوتيتْ من قوّة لترتاح. ترتاح للضربة المزلزلة. ترتاح لتواصل الدويّ في صدغيها. الصوت الذي يختم شيئاً بوضوح يريحها. لا شيء واضح هنا. تضرب على المقود. تنظر في المرآة الأمامية العمر لا صوت له، لا شيء غير صور معكوسة. وعامر يُفقدها صوابها. تُلقي باللوم على الأمّهات اللاتي لا يصنعنَ رجالاً. حبل السرّة الذي لم يُقصّ تماماً. لا يُفطَم الرجال بخيارهم. وهي الآن لا تذكر هل هذه جملتها؟! أم جملة أمّها؟!

كان البيت معلّقاً في الهواء، اختبأت مريم في زاوية منه شبه معزولة. بارد في عزّ الظهر. والستائر مسدلة، ورائحة النعناع تفوح. تلك الأمّ عزفت عمّا يدور حولها. ساهمة طوال الوقت. يمتدّ صمتها إلى لا حدّ. كبرتْ مريم معه، تسمعه أينما اختلت في أركان شقّتهما. صمت أمّها له دندنة في أذنيها. يمكن أن تنشغل أمّها طويلاً في تنظيف باقات الخضراوات، في تفريق عيدانها عوداً عوداً، ورمي الأصفر والمنقط بالأسود من ورقها ورقة ورقة، أو أن تسرح في لوحة منسوخة باهتة على الجدار لساعات، أو تتمدّد على التخت بدشداشة النوم القطنية، تعيد قراءة روايات محدّدة من دون ملل. تعرف مريم الأغلفةَ جميعها، أوراق الكُتُب الصفر الجافّة، وهي تتكسّر. تخنقها رائحتها العتيقة المشبعة بالغبار، الغبار الناعم الذي تكافحه الأمّ ببسالة في كل منفذ من أركان شقّتهما العالية. أغلقتْ إطار نافذة السلّم إلى السطح الصغير بالإسمنت، وسدّت باقي المنافذ بالجرائد والخرق.

امتدّت يدها ذات يوم إلى ملابس مريم، وهي صغيرة، حشتْ الفتحة بها بين باب الشرفة الصغيرة المهملة والأرضية، ما أثار غضب البنت، وأخرَسَ الأمّ لدهشتها حين قالت لها سيأتي يوم ترمين فيه بكل شيء حتى ابنتكِ. وقد تندّرتا لاحقاً بهذا القول طويلاً معاً.

تفلّ مريم ضفائرها، وتحرّر شعرها حال عودتها من المدرسة. تظلّ وحيدة لحين قدوم أمّها الموظّفة، لا تجد أهمّ من النبش في الصناديق والجوارير. تتهجّى فحوى الأوراق والوثائق، تتوقّف عند الرسائل، وتقلّب الصور مواصلةً بحثها عن صور لأبيها.

وأمها ترعاها كنبتة، بصبرها المفتعل وغير المفتعل، تقول مريم، وتضحك. عبرت بها الابتدائية إلى المتوسطة، ومنها إلى الثانوية حتى تشبعتْ البنت بالنصح والأمثال والحديث عن الأجيال. اقترب المنهج المدرسيّ من نهج الأمّ، نسخت التضحية والتعب والكرامة والشعب طيّب الأعراقِ. ولتضاعفَ مريم من استفزازها كانت تناديها أيضاً أنتِ، يا مدرسة، مُفتعلةً الحَوَل في عينيها.

يقول عامر بصوت يعلوه عتب: تعرفين، يا مريم؟ يحتجّ حين يكون جوابها المباشر السريع "لا"، لمناكفته حسب، ويتابع، لا أحد يهتمّ بالخُبز عندنا هناك، خبز فحسب، مجرّد خبز، طحين وماء حسب، عداها، وهي، أنتِ تعرفين أنها أمّي التي ربّتني، مثل تينا، يهمّها أن يكون الخبزُ طازجاً. كنا نخبز يومياً. أحياناً عند الفجر أوّل الصباح، أحياناً عند المغيب. عند المدّ، بارتفاع الماء في الأنهر الصغيرة بصمت، ترتفع شيئاً فشيئاً أغلفة البذور الشفّافة والنمل كبير الحجم، يرتفع ريش وأجنحة فراشات من دون صوت، أو سابق إشعار. يصعد الماء إلى الضفاف، ويسرح على العشب، فتنتشر رائحة البيئة قوية بكائناتها ونباتاتها مختلطة برائحة الخبز. هل رأيتِ مزة مشهد التنّور عند المغيب؟ أغمضي عينيكِ، هيا، الأذن فقط ليكتمل المشهد. اقطعي، تركيزُكِ كله في أذنيكِ، لا تفتحي عينيكِ، ليهدأ جفناكِ، هاتي يدكِ، تخيّلي لهيب الحطب طالعاً من الفوهة، والشمس غاربة، الخالق مستغرق هذه اللحظة بالجمال، المساء يهيمن بقرب انطفاء الضوء، الشمس تجرف بقايا الأحمر مع ذيولها، ألسنة النار تتعالى، تظهر وتختفي، رائحة احتراق الحطب، شررٌ يتطاير، صوت لسعات وسط هدوء منقطع، تكتكة العيدان المشتعلة تتباعد، نار تخمد، يُنصت الكون، يصير التنّور جاهزاً ليتلقى الصفعات في بطنه، صوت الله في الهدوء، أنصتي، بربكِ، أقسم أني أسمع صدى طبطبات فَرش الخبزات بين يديها قبل صفعها في التنّور، يتردّد عالياً في فضاء البساتين ليكسر عزلةَ المغرب بحساب متقن، الله.... أقسم أني أشمّ رائحةَ المساء المخلوط بخبز الشعير الطازج، واحتراق حوافّه الـ...

ما هذه الميوعة، يا عامر؟! أيّ خبز؟! وأيّ شعير؟! أيّ رجل أنتَ؟! غباء توزّطكَ هذا. انتبه لنفسك، هي تستخدمك، هكذا هنّ، كفاكَ حمقاً. ولِمَ ظنونكِ هذه؟! أرجوكِ، لا تبدئي حرباً من جديد. لأني أكبر منكِ، وأفهمُ منكَ، إنها رخيصة. وأنتِ؟

ينتفضُ كلُّ جسدها، توشك أن تضربه عبر الطاولة، فيمسك بيدها بقوّة، بقوّة موجعة، تلوي اليد، وتعيدها إلى مكانها. عندما ينظر في وجهها، يمدّ يدَه ليفرك معصمها، وهو يبتسم خجلاً معتذراً. تفلت يدها بقوّة غاضبة، وهي تنظر له بعينين ازدادتا بسبب الدخان جحوظاً واحمراراً.

يغطّ عامر بالنوم في غرفته، فتدخل امرأةٌ غريبة، وتسحبه من فراشه، (كان ولداً عفيفاً، يرتدي بيجاما النوم المقلّمة التي أخاطتها له زوجة خاله)، تتوغّل به في البستان حتى يصلا إلى نهر جفّ ماؤه، يعاندها، لكنها تُجلسه بهدوء وتروح تنضو ثوبها عنها أمامه، تعلّمه، من دون أن تعلّمه. امرأة النهر الغريبة التي خطفته، علّمته، علّمته. ثوبها فوقه، تحته، فوقه، وهو بعد فتيّ.

جسدها شغ وسط الظلمة، وأنار الطريق. النهر الذي غاض ماؤه أرجوحة من الخيش صعدت به إلى فوق، فوق. مكامن المتعة امتصّت ماء النهر، وحمّمته، وأنارت الطريق، تنير الطريق، تنير ...

انثيال الحب بانسحاق الأجساد، وهي تئنّ ليلاً فرحاً، ضجيج الكون مثل دولاب هوائي عالٍ، تشرع آلته الضخمة تتحزك، قليلاً قليلاً، يصرّ، يتأوّه، يدور، ويدور، ويدور، تتلألأ أمّهات البساتين، نوافذ الفنارات، قمم الأعمدة في الغابات. زخّات شهب دورية، دروب ترابية تشتدّ حماوتها.

أيامه بانتظار الحصول على أوراق إقامة تافهة. لكنها ملوّنة، من الممكن احتمالها، مثل الوجوه التي تفد كل يوم على هذا المعسكر، جنسيات مختلفة، وملابس مزركشة. وما إن أخبره أحدهم عن إمكانية الحصول على كل شيء من مكتب الممرضة العجوز خلف مكتب الموظفين في الطرف الثاني من المبنى حتى وصل بابها. تشجعه الممرضة على التقدم، والجلوس أمامها في مكتبها. لا يشعر بالمكان معقماً، أو حامضاً. حاسة الشم تُطمئنه، يتشجع ليتلفّت من حوله. معطفها البيج مشنوق خلف الباب. حقيبتها الجلدية القديمة مفتوحة الفم على الأرض، وشالها حائل اللون مرمي على الكرسي بأذيال تلامس الأرض. من خلفها صليب من البرونز على الجدار، ومن على مصباح الطاولة بالقرب منه يتدلى آخر في مسبحة بخرز من اللؤلؤ الناعم. يرتاح لأنفاسها في المكان. يرتخي، وتداعب أصابع يده الصليب بلذة. وقبل أن تهمّ بسؤاله عن سبب مجيئه، وما المطلوب منها لمساعدته، يسألها هو عن مكان سكنها، وما إذا تحب أن يزورها يوماً ليعد لها وجبة عشاء. تضحك من خلف مكتبها، وتتحزك في مكانها على الكرسي. إنها تقوم بأمورها بنفسها، وليطمئن، إنها قوية، ما يزال بإمكانها أن تعطي قُبلةً حارقةً لجندي، يلقي بسلاحه، ويعود إلى حضن زوجته، أو أمه.

يحدثها عن كثير من أحلام يتعلق بها، أن يكون له بيت واسع، يعتقد أنه يحب امرأتين بالوقت نفسه، ولكنه غير قادر على فعل شيء. يقولها، وهو ينظر أسفلاً، مشيراً إلى الأرض ليقول الحفرة عميقة تحتي. ويتخيل في أثناء حديثهما غرفة نوم الممرضة، فراشها، وأغطيتها، وعويناتها، وكتابها المقلوب على وجهه جانب وسادتها، يريد أن يراها، وهي منتعلة حذاء البيت، بشعرها الفضي المتموج، بثوب نومها القطني ذي الأكمام الطويلة برائحة الصابون، وهي تتقدّمه ممسكة بشمعة. تنهض معلنة عن فضّ الاجتماع. عليه بردم الحفرة. إنه الماضي، إنه خوفه الذي يتكلّم معها، ويجعله شبه معتوه. هيا، انهض! لكنه يودّ لو يركع ويتشبث بذيل ثوبها، يريد دفن رأسه في صدرها. تسأله في طريقها إلى الباب، إن كان يصلّي،

فيهزّ رأسه نفياً. لا بأس، مطبطبة على كتفه، تسلّمه الواقي بثلاثة ألوان مبتسمةً، مع حبوب مهدّئة في كيس شفّاف صغير. وبعطف ظاهر تدفعه خارج مكتبها، ويسمع دوران المفتاح في قفل الباب من خلفه.

يمقت وقت الإقفال. يمقت مواعيد إقفال المحلات في المدينة، الكافتيريا في المعسكر، مكتب الممرّضة، الاستعلامات والحرَس. يعرقل الناس، قدر الإمكان لئلا يهتدوا إلى مفاتيحهم، إلى فرش أسنانهم، وأسرّة نومهم. يحول بينهم وبين الالتزام البليد بموعد نومهم. يحبّ الكائنات التي تبقى صاحية، لا تنام، في كل البلدان التي وطأتها قدماه طوال سنين رحلته. يودّ لو يركض ليقطع الليل، إلى مريم التي يعشقها لأن النوم يجافيها لأن اللغو بلسان أمه له متعة خالصة معها، لمجرّد الرطانة.

تينا الشقراء لا تتحدّث لغته، ولكنها دخلت قلبه مذ أدخلته شقّتها. ترك لها عينيه لتقرأه، وكي تفهم. عالمها جديد عليه. تتعثر أفكاره، يصيبه خَرَس، ويؤذيه لسانه وراحة يده وباطن قدميه. "الريموت كونترول" الذي تحتكره غريمه، وهي تبحلق في جهاز التلفزيون لساعات، مستلقيةً على الأريكة، من دون أدنى شعور بتعاقب الليل والنهار.

الليل يرفع من حرارة جسده. مشاعر غريبة تجيش في صدره، وتتعبه. يفقد طاقته وتركيزه بقرب انتهاء عمله. يحتار بوجهته عند موقف الباص. الوقت متأخر. يحتاج لقاء مريم. مريم لا تنام. هاتفها بانتظار أبدي، تواصل يومها حتى يطلع النهار ثانية. تُنهكه حرارة الأفران. يستقلّ باصاً، لا يعرف رَقْمه. لا شيء يتبينه عبر النافذة المضببة. المنفى هو رَقْم أيضاً، يفكّر عامر، وهو ينظر إلى بطاقته الشخصية المؤقّتة البائسة. المنفى حفرة لرأس النعامة، تقول له مريم بعثت كعادتها، وهو أيضاً لمناطحة الرؤوس، من أحجام أكبر من حجم رأسها، تقول له.

لا تقول تينا له شيئاً، لكنها مصدر أحلامه القصيرة يتأمّل كائناً صغيراً غريباً، ينظر بعمق في لون عينيه، شعره، يتحسّس جلده، يتلفس عروقه الناتئة، ويقبّل أطرافه. لا أحد سيشعر بالخطأ التقني الذي عطّل الزمن. صورٌ فُقدَت، وأصاب أخرى خلَل! ولا أحد يعلم إن كان الخلَل لصالح الصورة، أم لسوء حظّها حسب! من الخاسر؟ أصوات تدور في رأسه، تُتعبه. يحاول أن ينفضها عنه. حتى لا تبارح جسده. تينا بانتظاره. إنها تحتاجه. يجتاحه شوق جارف لعناقهما، ولكنه مُجهَد جداً. تينا مريم، مريم تينا.

الثلج يهمي، وجسده منقذف على مقعد في آخر الباص، وقد قرّر سائقه

الطريق له. أبعدُ طريقٍ عن رائحة البيتزا من فضلك. بتوقفات الباص وأصواته التقنية الحديثة، ينفتح الباب، تهبّ ريح باردة توقظه قبل أن ينغلق بلحن أوتوماتيكي يعرف متى ينقطع. يعود ليضع رأسه ثانية على زجاج النافذة. يلصق خدّه بالزجاج البارد. يتسرّب خيط رفيع من هواء أعلى النافذة، يُسكتُ الأصوات جميعها في رأسه. الفصل شتاء، ومدينة الألعاب مُطفأة من خلف الزجاج، كابية مثل مملكة تحجّرت. صفّ الأضواء الملوّنة الذي يتوّج شريط السياج في إجازة، والألعاب الضخمة الثقيلة كالأصنام من خلف الأسوار ثابتة، الأغصان السود معلنة عن موت الحاشية في الداخل.

الثلج يذوب قبل وصوله الأرض. الباص بطيء في سيره، فيغفو ورأسه على زجاج النافذة، يحلم بنهوض الأزهار الصيفية، بصعود النوافير، وسباحة البطّ، وتحرّك الزوارق الصغيرة في البرك، بدوران الأحصنة الخشبية، وهي تعلو وتهبط. في أنفه رائحة حلاوة شَعر البنات الوردية والفشار، وهو يمسك بيدٍ دبقةٍ لطفل صغير، يجرجره، يفلتُ يدَه، ويسبقه ليحاول مسك العصافير التي نزلت لتشرب.

ستفتح تينا الباب ما إن يدقّ جرسها المبحوح الذي عجز سكّان العمارة عن إقناع إدارة المجمع بإصلاحه. سينتظر، ولو لبعض الوقت تحت عند الباب لأنها غالباً تغيب طويلاً في حمّامها. عمارتها قديمة خالية من مصعد، درجات سلّمها مثلّمة، ولمبات المصابيح داخل العمارة محترقة دائماً، لكنه يصعد درجات السّلّم حتّى الطابق الرابع عدواً. يلهث، وهو يطرق الباب. تُدخِله، وهي عارية، وتعود لتُكمل استحمامها. الشقّة قديمة خالية من حمّام، استعيض عنها بكابينة صغيرة في زاوية من الصالة. جدرانها من البلاستك الشفّاف، وبابها شبه الأكورديون. يرى عبر الجدار جسدها المحشور في داخله، تتحرّك وتستدير بصعوبة لضيق المكان، البخار يتصاعد، ويسيل قطرات، وهو يبتعد عن البلاستك تارة، وتارة يلتصق به ليتحسس بأصابعه قدم الطفل البائنة من خلف جلد بطنها المكوّرة. يوقظه السائق بهزّ كتفه هيا، ابحث لك عن بيت تنام فيه. عمل الباصات توقّف.

عامر، لا تقصدها. مريم تريد ضياعك، مريم لا تلبس إلا الأسود. عامر يضيع في الأسود، يتلفلف به، يتعثّر، يختنق، يختفي، يختفي، يختفي... مريم لِمَ ترتدين الأسود؟ أبدو أرشق، أكثر إغراءً، ألا ترى؟! هل تكتئب منه؟! أكثر من ذلك، أو ليس ذلك، لا أدري. احكِ. هيا، ما بك؟ قل. وخفّف عنك.أقي. تعال، ما بها؟وجهها المرعوب. احكِ. عندما خطفتني من الشارع،

وجرّتني إلى بيتها. هل قلتَ أمّك قبل قليل؟ لا أمّ ولا أب لي، هي أمّي التي لفّتني تحت عباءتها السوداء، وأخذتني. هي مَن ربّتني. كرهتُها. حين بدأتُ أتذكّر، مرضتُ، مرضتُ، ونحلتُ، نحلتُ. لماذا تكرّر كلامك؟! ماذا؟! أنتَ تكرّر نهايات الكلام. حقّاً. هل جننتَ؟!

إنه الصدى في رأسي، مثل البرق يضرب النخل وأطراف الصفصاف والآس والحشيش والعاقول وهياكل السفن الغارقة ومؤخّرة يخت الملك.أنتَ هنا الآن، بعيداً جداً عن البساتين، تعال، نم. هنا الغابات. لا تخفْ. لكني لن ألمسكِ، يا مريم. لماذا؟لا أستطيع لمسكِ، لمسكِ. قل لي بربك، هل أخصتك امرأة النهر؟!

امرأة النهر لمسَ ومَسَ، نضوبُ النهر ولجم الحروف، وحدها طاقةٌ، وحدها، على طريقتها يتدفّق الماء، وتجري اللغة.

اللغة عضلةٌ بالونة رخوة مملوءة بالماء، المدخل السّريّ إلى القلب، ناقوس كنيسة يوم الأحد، سيفٌ أثري لمعارك شرسة، مخدّة مَحشوّة بنوى الكرز، ألمُ جوع، علامات فسفورية في طريق طويل مظلم، وبردُ جذورِ نخلةٍ فطيم، جُرِفَ الطين عنها.

ظلّ عامر يحكي لمريم عن سفر بزيّ، وتحليق وإبحار، ظنّه لن ينتهي. ولكنه ما يزال بالانتظار، ولا طريق للعودة. بانتظار أن يبتّ المسؤولون بأمر قبول لجوئه. يعبر كل مرّة الحدود ومناضد الجوازات وأجهزة التفتيش وشاشات الكمبيوتر واللافتات والزنزانات وعيون الكاميرات والموانئ والبواخر وسقوف المستشفيات، يصبغها كلها بلون آخر حتّى يجتازها.

لا يعاود النظر إلى الوراء. قرّر ألا يحبّ الحزن. لا يريد أن يعاتب بشراً، أو جماداً. وهو، مهلاً، ربّما هو سعيد، إنه موجود، على الأقلّ، ليس معذّباً، ليس قريباً من الجنّة، ولكنه بعيد الآن، كان على شفا الجحيم. عدا الانتظار، لا رابحاً ولا خاسراً خسارة فادحة.

على الإنسان أن يختار الحياة، لكن كلام طبيبه لا يلقى صدى لدى مريم. وهي وإن حصلت على لجوء منذ سنوات من دون إشكال يُذكَر غير قانعة، لا بعدالة الأرض، ولا السماء. ولكن الحياة بالنسبة لعامر هي هذه اللحظة وكأس النبيذ، الأمان والسكون الذي يلفّ البحيرة واحمرار الغيم المجسّم. انتبه، عامر (تحذيرات تطلع له من كل زاوية)، لن يكون منفانا هذا هو الأوّل والأخير! لهم يد في هذا، ومريم تردّد لن أبقى هنا، لا

أستطيع أن أتخيّل نفسي في المكان والعمل ذاته بعد سنوات. أريد مكاناً أرحب، أريد مجال عمل آخر، أن أكون في مركز الكون، أن أقزز...هيا، إذن. لم ولن يسمحوا لي. ألا ترى؟! بتقديرهم نحن غير كفء لمنصب أعلى، رسموا صورة لنا منذ مئات السنين، وكلفة تغييرها عالية. أقسم لن يدعوك تطمح لشيء هنا، لن يعترف بك أحد هنا، ولن تُقبَل، لا تنسَ المكان الذي جئتَ منه، تلك البقعة المنعزلة هي المكان المتحضّر الذي تحسدُك الغابةُ هذه ووحوشها عليه. يبتسم لئلا تظهر لا قناعته، ترتجف زاوية فمه، ويكاد يضحك لجهلها أوّلاً، ولأنها ثانياً تجيد لغته أفضل منه، وتهزمه بطلاقة لسانها.

مريم ترتقي سلّماً أبدياً في الوصول إلى المهد القريب من السماء، تريد منه أجوبةً محدّدةً لأسئلةٍ صعبة. لا يفهمها. عامر يعيش، يأكل، ينام، يحلق ذقنه بعناية فائقة، ويستحمّ، ويتعطّر، ويجلس بجانبها، أ ليس هذا هو الوجود؟! ما الذي يبغيه أكثر من هذا؟! لا يهمّ إن بدا العالم من حوله مجموع كل هذه المواد التي لا يستسيغها، المهجنة، المجمّدة المعلّبة المزيّنة المقنعة، في المطاعم، في المستشفيات والسوبر ماركت والبنايات والنساء والسيّارات، وإن كان العالم كل الخرّاس والمحقّقين ورجال الأمن والشرطة الذين يتوالدون فجأة في الغرف لحظة يلتفت بعيداً، كل القوانين المضافة المعدّلة، والمتناقلة التي لا يفهمها، كل الأجهزة الذكية التي تستوقفه، التي تركنه على جنب، التي ترجعه آخر الطابور رابعة وخامسة وسادسة. العالم كل الإشارات العكسية التي تُلخبطه. بالأحرى ما العالم إلا كل ما يتساهل معه من أجل ألا يوقفه أحد؟! لكنْ لو يتوقّف الناس ليفكّروا للحظة، أو حتّى...، لو قارنوا بين مواقعهم في كل العالم، لأدركوا ثانية أنهم بطرون. الهناء هنا والكرم والخَيار. صوت ضحكات مريم تصمّ أذنيه، متواصلة تقصم ظهره، يكرهها، يتحزّك في مكانه، يودّ الهروب منها، لو يسدّ فمها بيديه (ما أتفه ما تقول، يا عامر، استدر لتنظر خلفك، إنهم يمشون وراءك مثل معتوه، يتهامسون بينهم، ويتضاحكون، إنهم يصفونك بالسذاجة والغرابة والخبل).

آخ لكل ما يسمعه، ما يعيشه من حوله، ما يلمسه، يشلّ لسانه، يدفعه مراراً إلى القيء في زاوية من الشارع. لن يفهمه أحد. أسَفٌ يأخذ قواماً سائلاً أصفر متقطّعاً، لا تتخلّص شفتاه من خيوط سيلانه بسهولة. بطر يُتلف الحياة مثل ألوان الغرافيتي التي تُتلف واجهات البنايات. ترفٌ يُتلف الإنسان مثلما تُتلفه الحبوب المخدّرة، أو السرطان.

القصّة بدأت حين انتقل الخال وزوجته به إلى مكان بعيد عن المدينة، وتغيّرت حياة الثلاثة معاً. حين يرجع عامر إلى الوراء، ويستعيد الصور، لا يرى الخال إلا وقد صار جزءاً من تلك الأرض، جزءاً مندمجاً مَنسياً من المنظر المطلّ على الحديقة، إلى المزرعة المحوطة بالبساتين. كان يلمح جسمه بين الأشجار في البستان. يلوح هنا وهناك، في جميع أركانه. يحمل المذياع، أينما انتقل، من ساقية إلى ساقية. ينظر إلى أعلى النخلات طويلاً، ويستقرئ السماء. تغيب الشمس، وهو منحن على الجهاز في الظلمة مثل عجوز في محاولة التقاط البي بي سي، أو صوت أمريكا.

خاله ليس عجوزاً، رجلٌ في مقتبل العمر نشيطٌ ذو همّة، انقطع عن عمله. تضخّم وجهه، وازداد غموضاً. انتفت الحاجة لديه للكلام، قلّ شيئاً فشيئاً حتى انقطع. خلع بدلته، وارتدى ثياب مُزارع في بستانه، وصار يقضي الساعات في حراثة الأرض، فتح القنوات وقلع الضار وغرس الفسائل والشتلات وتطعيم السدر وجمع عقل العنب وشدّ خشب العرائش وبذر الحبوب. يذكره، وهو يدخل البيت بهيأته الجديدة تلك. يترك لزفرة شمس المغيب في ملابسه أن تنتشر في البيت معلنة انتهاء يوم عمل طويل. يصمت عامر الصغير بدخوله، يستدير نحو زوجة خاله، وبصوت ضاحك خافت جداً، منظر زوجك غريب. لم يعتد على ذاك الخال الجهم، يخافه، يتكوّر في جلسته عندما يدخل بوجهه الغاضب العبوس، وبحديثه مع نفسه بصوت عال. انظري، وذلك اليشماغ الذي يغطي به وجهه...تغرق عيناها بالدمع ضحكاً، من دون صوت. تغطّي وجهها بيديها، أو تلاعب رأسه، وتدفنه في حضنها.

دخلت زوجة خاله ساحبة رجلاً، يخلّف خطاً طويلاً من الدم على الأرض. لا يتعزف عليه. يخاف، ويهرب ليختبئ في غرفته. تدخل لتقول إنه خالك، مريض، ويحتاج لبعض من الوقت، من أجل أن يشفى. ماذا في فمه؟! قطعة قماش! لماذا؟! بشعور بالغثيان ورغبة بالبكاء. لا تشغل بالك، كل شيء سيسير على ما يرام. أولاد الكلب عذّبوه. في فمه فردة جوربه ليوقف النزف.

رآها، وهي تحمل الجورب بيدها مثل قطعة لحم بدم خاثر، وترميه في صفيحة القمامة. خاله لا يستطيع الجلوس، إلا على الجنب. يتسلّل لينظر إليه، عندما يكون نائماً. أولاد الكلب عذّبوه، أولاد الكلب عذّبوه، أولاد الكلب... يتخفّف لون الدوائر الحمر والزرق، وتبان العينان أخيراً كشقين وارمين. ينبعها أينما تحرّكت في البيت، ويردّد بسرّه أولاد الكلب .. ومنذ ذاك التاريخ، ابتعد عامر الصغير عن الرجل المقطّب الغريب الذي يعيش معهم.

ظنّه رجلاً مفتولاً. ظلّ ينظر في الكدمات الملوّنة طويلاً، وهو نائم. يجرؤ على الاقتراب منه قليلاً قليلاً، يعدّ الدوائر على وجهه المتورّم ويرقب تغيّر ألوانها. يرقب حركة أمه في البيت، يتابعها بالسرّ، وهي منشغلة بخاله منصرفة عنه، بوجهها المدوّر الأبيض الطيّب المشعّ العنيد. هي الأخرى استبدلت بطقم القميص والتنورة الدشداشة الفضفاضة، ومنديل الرأس الطويل العريض الأبيض، حين تسدله أحياناً يظهر شعرها المحنى المخطط بالشيب. عنقها المكشوف مأواه، يرتجف، يجذبه لحم رقبتها بشدّة إليه، يتشمّم حنانها القاسي، يتمزغ به، يقبّله بنهم من الكتف إلى الكتف.

يحدث وهو هنا في مكانه القاصي أن ينحني ليلتقط تمرةً، سقطت للتو، تنوء بثقل سكّرها، يسمع صوت ارتطامها بالأرض، ويحدث أن يمرّر يده، يتحسّس بقعةَ دمٍ على الأرض، ما تزال طازجة.

لو أن أحدهم جاء ليخبره أن الحياة التي له إنما كانت لغيره، ما الذي سيفعله؟ وهو يلعب مع الأطفال في ظهيرة حارّة، تقبل زوجة خاله مسرعة، تلفّه بعباءتها السوداء كالليل، وتسير به بخطوات كبيرة، يتلفلف بها، تركض به، ترفعه عن الأرض بين خطوة وأخرى. يذكر، يذكر جيّداً، ما يزال، يذكر جيّداً السواد يلفّه، قدماه تتعثّران تحت العباءة، نِعاله يفلت من قدمه المطينة المتعرّقة، ولا تتركه يعود إليه. بين أن يظنّ أنها لعبة حسب وبين توجّسه لشيء ما مقيت! لم يحدث أن سحبوه من بين الأطفال في أثناء اللعب. يمكث لأيّام في بيت خاله من دون أن يفهم، لا يغيّر ملابسه، غاضب عليها وعليه، يسأل عن مكانه، يرفس، ويركل عناداً من دون فائدة. يأتون بأشيائه وكتبه، على دفعات، ليلاً، بين اليوم والثاني، بوجوم مخيّم، تقول إن الأمر مؤقّت. تخصّص له غرفةً. خائف، أخرس، يحاول أن يخفي كرهه لهما.

لا يذكر متى، وكيف انتقلوا وبه إلى تلك الأرض البعيدة ليتخفّوا جميعاً. كانت هناك فجأة بساتين، تدير أمورها بنفسها، خلاء، لا بشر، ولا بيوت. وجوم. صمت أليف.

كيف يموت الأطفال؟ يسرقهم جنيّ البستان، أو يخترقهم « مِزْرَف الثلج»، هكذا يتصوّر الأطفال موتهم! الكبار يهدّدون أولادهم الصغار ليمنعوهم من اللعب في الشارع أوقات الظهر. ماذا لو لم يكن يلعب مع الأطفال ذلك اليوم؟ يسمع، ويسمع من كل جهة وصوب. قضّته ترنيمة، ردّدتها الأمّهات. الولد لم يمت. تُرقّص الأمّهات أطفالها على إيقاع الحكاية. الولد لم يمت، ولكنه تاه. أمّه ماتت، وأبوه مات. تتعالى الكركرات. الولد اليتيم كبر. الأطفال يُقذَفون عالياً في الهواء. تُهدهدهم الأمّهات، وتُمسّد رؤوسهم الترفة بخوف وحنان. يقبّلونهم، ويتلون الصلوات. الولد كبر، وعدوه عليل، آمين.

قد ينقضي يومه بإعادة استذكار الفلم، قصقصته، تركيبه بالخطأ، إعادة كتابته مرّات ومرّات. أمراض أخرى تُفرض وصفات أخرى. عامر الوحيد الذي لم يمت. الوحيد الذي نجا، يشيرون إليه من بعيد. ورأسه كبير مكوّر. بئر داخل بئر. صدى داخل صدى. يتذكّر أصواتاً، تمرّ في باله كلمات، مثلما يسير، ولا يصل، مثلما تخترق جسده أغصان الأشجار المتداخلة في البساتين، مثلما يجرف أصابعه الماء مبحراً، مثلما يعلو صوته أحياناً على صوته.

ضمّته زوجة خاله بجوع ضار إلى صدرها. نذرت، ووفت بنذرها، وحثّى موتها. لنجاته، لسلامته. أعدّت صينية خضر الياس كل شعبان، ووزّعت حلواها إلى القريب والبعيد، لم تؤدّ الصلاة من قبل، لكنها صامت بدل اليوم أسبوعين. تعافى الولد ببطء، أتمّ الثمانية، لعب في الحقول المجاورة، وسبح في النهر القريب وعاد مطيّناً مبلولاً، والعام الدراسي قربث بدايته.ثمّ قرعت طبول الحرب في البعيد، وعامر يرى خوفها عليه مضحكاً. ترتفع حرارته يوماً، فيسأل عن أمّه، فتبكي، وتحضنه، تعافى الولد، إنه يتذكّر، ولا يتذكّر.

تتدفّق الأسئلة من فم مريم الذي تعتني برسم حدوده الشاسعة إن شعَرَ يوماً أنه بلغ غايته؟ هل يعتقد أنهما سيصلان غايتهما، متى إذن؟ عندما يكبران، ما إن ينجبا! ما إن ينتهيا من ممارسة الجنس! أو لو منعا نفسيهما من الإيلاج، أو بلوغ الذروة؟ هل تشتهي تعذيبي بسرّك؟ كن أنتَ، تخيل أننا في منطقة بين السماء والأرض، نعيش معلّقين، من دون حساب، أو ثُهم. مَن يحدّد الأدوار؟ نحن إلى أين؟ ما الذي بيننا؟ العشق الإلهي محض تحايل على الرغبة التي نريد أن نديمها، التي نقضي عليها اليوم ونبحث عنها غداً، عامر، توقّف، هل تحرّرتَ؟ فراش عشتار في أور هناك، ولا تظنّه لحبيبها وحده، يتناوب عليه الملوك الأسطوريون والواقعيون، هل تحبّ عشتار، استعرتُ الكُتُب من المكتبة، ولم أفتحها. ملكة السماء والأرض، هي كلّ ما لديّ، لا يمكن لإلهٍ أن يُقارَن بها، هل أقرأ لك عنها، انتظر، إنها الأخت والحبيبة والأمّ والبغي، ذلك مكتوبٌ في لوحٍ طيني، تفتّت نصفه تحت الأرض. كيف لا تعرفها؟هل تعرف، لقد سقط من تاريخنا ألفا عام، من دون تدوين، ألفا عام، جرفتها السيول، ترقد تحت تلّ، لم ينقّب فيه بعد، تحت الطين والرمل. لا تبك ذاكرتك، تخيل ما فُقد في ألفي عام! تخيل كل تلك الأسئلة. ألا تظنّ أن المرأة لتلهب خيالات الرجل، والرجل مخلوق جنسي؟ هل ترغب في أن نجرّب كورساً تعليمياً؟ (دورة تدريبية لتطوير القدرات الشخصية)؟ أم أن حلّك هو الأمثل في عدم الالتفات إلى الوراء؟

يعتدلان في جلستهما على الأريكة. يدخّنان، وهما ينظران إلى السقف.

اتركيني، يا مريم،أنا لا أستطيع العودة بذاكرتي إلى الأمس. مُعلّق، بانتظار مجهول! مهلاً، لا تُولول مثل عجوز. أنا أيضاً، ليس لي، ولا حتى القليل في الهنا، ولا القليل القليل هناك. لا أحد ليذكّرني، ولا محل محفوظ لي، ملعونة في المكانين على السواء. ونستدرك لتقول له إنها في الحقيقة، في أعماق أعماقها، تلتذّ لانشلاخ ساقيها بين الهنا والهناك.

يظلّ عامر ساكتاً، يلهث، وهو ساكن في مكانه، حتى يتباطأ نبض قلبه قليلاً قليلاً، فيقول كمَن استردّ أنفاسه، وجمع شتاته. اسمعي، مريم، أنا

مثلكِ وليس مثلكِ، جسد متعب، متهالك، وظهر لا يستقيم على سطح، يهتزّ بي السرير، لا يزال، يلعب الموج في رأسي ويتلاطم في أذني، فيجتاحني الغثيان والدوار، لا أريد غير أن أنسى، أرجوكِ، (أنا كَمَنْ عاش ألف عام أنهضُ كل صباح بعزمٍ على نسيان كل الرّؤى).

مريم تقاطعه، أ لديك نبوءة؟! هل تراني في مكان ما، بعد زمن؟! وبصوت بطلةٍ، تنهض من مكانها، تنزل من بلوزتها التي انحسرت أعلى بطنها، وتتنقل بحركات مسرحية في المساحة الضيّقة من حوله منصرفة في مناجاتها، وكأنها تتدرّب وحيدة لأجل إتقان دورها. أنا المدينة التي تعترف بذنوبها. بانتظار اعترافات سادتها الجبناء. أنا الأشجع، أنا العارية بإباء وورقة التوت لئلا أخدش حياء الآثمين. أنا لائحةُ المدينة الخربة منتصبة في كل طريق لأشير إلى الجمال الذي عبثث به الحروب، أصرّ مثل ذاكرة على التحرّك أينما تحرّك العابرون، غير الآبهين بالتاريخ، تستدير نحوه مختنقة بالضحك لتقول، وبعضهم كلاب أولاد كلب، إلى سابع ظهر، لا تُنفّرهم روائح الجثث، ولا النفايات.

سنوات يا مريم أمضيتُها متنقّلاً من مكان إلى مكان، ريثما أصل لدولة، تمنح لجوءاً، خمس سنوات لأحصل على جواب رفض، ولكي أنقضه. ساعات وساعات من عمري في تواليت ما، أقاوم مغصاً، يداهمني فجأة. الطبيب يقول لي اجعل من الخوف إنساناً نِدّاً، لاكِفهُ كل صباح، اضربهُ، ادمِه، اركله، واسحقه.

انتظر لحظة، انتظر، إنها وصفة تلائمني، يا عامر. لا، يا مريم، لا، أن يُصعِّدني النرد إلى الرّقم ثمانية وتسعين، وأنا موقن أن النرد في لحظة نحس سينزلني باعتراض الأفعى إلى الرّقم اثنين في الأسفل، ولأبدأ من جديد، تحريضُكِ لن يوصلني إلى بر. لنترك الحديث عن الحرب والدم والخراب من خلفنا، ونحن لسنا في عداء لأحد. لنكن ممتنّين لهذا البلد. تركل بقدمها الحافية الفراش الإسفنجي الذي تمدّه له في صالتها الصغيرة كلّما دقّ بابها. أنتَ، ما بك؟ صدّقني، يريدوننا سمكاً ميتاً، يطوف على سطح الماء. ولكنْ مَنْ هم هؤلاء الذين تتحدّثين عنهم؟ أنا لا أفهمُكِ.

كلُّ مَن حولك هنا. كلّهم يبتسمون، أقنعةٌ خطيرة مخيفة. أوكي، أنا أجبنُ منكِ، إذنْ، لا أريد أن أراهم. تعال. يبتسم لها لأن الشياطين من أمثالها لا تحتاج إلى قرنين وذيل وحربة ثلاثية الأسنان. ها هي بأجمل صورة للغواية أمامه، بشعرها الكثّ المفلول، بأظافر قدميها الحافيتين

وطلائهما الأحمر.

تُنزله إلى الأرض (وستنزل به إلى العالم السفلي، إن لم يُنقذ نفسه). ألا ترى يا عمري كم من طاقة، شوق، بهجة وتحدٍّ، أفقدَك هذا الطريق، لا يجب أن نستسلم، تعال، أشتهيك هكذا، أرغب بك أكثر بيأسك هذا.

برغم الخلخلات اليومية والطارئ من الوافدين على الصليب الأحمر، تبحث مريم عن أمكنة أخرى أكثر حيوية. كما أنها لا تلتقي مع متطوّعات ومتطوّعين في معسكرات اللاجئين في بحثهم المحموم عن إنسانيّتهم. إنها لا تحبّ أن تتوقّف لتسأل نفسها لِم هم متطوّعون. سأمت هذه المدنية المزعومة، وقليلٌ جداً ما يشعلها. انسحبت من علاقاتها شيئاً فشيئاً. انقطعت عن حضور الأماسي الأدبية واللقاءات الفنّية. شكّت في دوافع الناس، وعزفت منذ زمن بعيد عن أصحاب المُثُل العليا وقِيَم النضال، وانشغلت بحالها. لم يعد هناك ما يوثق به، بسببها. نعم، تعترف في لحظات ضعفها ووحدتها بذلك. إنها هي مَن تكّذب على نفسها، وتختلق شخصياتها. لكنها ترفض الانصياع في سرّها إلى إيجاد مبرّرات عقلانية لما يطرأ عليها، ترفض أن تنجرف في التحليل مثل الآخرين حين تلوح صورة الأمّ أمامها. الكذب! نعم، ربّما هناك وجه شبه، (ولكن الأمّ لم تمتهن يوماً تلك الحرفة مثلها في التشكيك القاتل بالقِيَم والحقائق ومعادن الناس).

حدثت جلبة خارج مكتب الموظّفين في معسكر اللاجئين. حيّز عملها محصور في أماكن محدّدة، لا تتخيّل أن تحدث فيها المفاجآت الكبرى، وكل مَن ستقابل وما سيحدث هو محض تكرار. هرع ممّن وُجد من الموظّفين قريباً إلى المكان، وظلّت هي في مكانها. المعسكر الذي اختيرت له تلك الأرض الخالية تعبث بها الريح، مترامي الأطراف تنتشر فيه المكاتب هنا وهناك، الغرف في البعيد، لكن المكتب الرئيس يتمركز في الوسط. أصوات حشد يتدخّل، وسرعان ما ينفضّ كل شيء. سمعت لغطاً يقترب. لغات مختلفة تطغى العربية عليها، عاد اثنان من الموظّفين مصطحبين عامر معهما. نُقِل عامر إلى هذا المعسكر الذي كان غالبيّة ساكنيه من العوائل. عرفت مريم المكان جيّداً من خلال عملها ليومين أسبوعياً فيه. دخل الموظّف المسؤول مع عامر إلى الغرفة للتحقيق معه، وبقي الباب موارباً. دخول عامر الذي عُرِف بهدوئه في عراك مع بائع الخضار، أثار عجب العاملين. يُسمَع همس. كان بائع الخضار الذي يملك محلاً متنقّلاً في زيارة مع بضاعته إلى المعسكر عندما نَشَبَ العراك. هَمّ

عامر بمغادرة المكتب غاضباً. هرعت مريم إلى الموظف لتستفسر مع زميلاتها عن الموضوع. مشادة شرق أوسطية تقليدية. لا شيء، يعلّق المسؤول مازحاً، مشادة تقليدية أخرى، حديث يتعلّق بالشرف، وغيره ممّا يشعل الفتيل في رؤوس هؤلاء الرجال. حركة رأس الموظف تؤكّد لها تكرار ما يحدث، واستهجانه، في الوقت نفسه.

سلكت مريم طريقاً آخر إلى غرفته خفية. صوت عامر محمّل بالأسى والضيق. أعرضَ عنها، لا يرغب في الحديث عن المشادة، ولا عن أي شيء آخر. يبقى جالساً في مكانه على السرير. تُخرج مريم سيجارةً حشيش جاهزة من حقيبتها، وتشعلها. كالعادة لا يشاركها، ولا يقول إنه يستمتع برائحتها سزاً، تُذكّره برائحة حرق خلطة من سعف أخضر وحلفاء وعاقول. تمجّ الإصبع الغليظ، فتخفيه سحابات دخانها. هذا هو كل ما يذكره عن نفسه، يدور، ويتكرّر، وما عداه مَمحوّ.

تمسّد شعره. عيناها حمراوان، بجفنين تثقلان من أوّل رشفة... لا أحد يريد أن يتذكّر، لِمَ نتذكّر؟ لو أن الذاكرة للبيع، لرأيتَ كيف سيقبل الناس عليها هنا، والكلّ بالمقابل يريد أن يبيع، أنا أستقبل العشرات من طالبي اللجوء يومياً، كم منهم مَن تظنّه يودّ الاحتفاظ بذاكرته؟ولكنْ قولي لي مَن ذا الذي يشتري؟ تغمض عينيه بيديها، فيخشى ضيق الغرفة والظلمة، فتجيبه، الذين لا ذاكرة لهم، أو ليستبدلوا واحدة مخيفة موجعة، ذاكرة أمَي مثلاً مزوّرة.

ما الذي تقولينه؟ نعم، تمّ تزوير ذاكرتها، مثل كل مَن هم مِن حولها. وأمَي قد تنكر ذلك، أو هي لا تفهم ما أقوله، جيل بأكمله قد يجهل ذلك. تتحدّث بفم مفتوح، يعبّ الهواء حين تزيد الجرعة. الناس هناك لا يدخلون في تفاصيل، تجلب لهم المزيد من القلق. لا أظنّهم يفكّرون كثيراً في فحص تاريخهم. بينما هناك مَن يبحث عن بديل على نحو آخر، لمجرّد التجديد، التغيير، ربّما من قِبل الشعور بالفراغ، ومن حولك المئات بلا ذاكرة، تستحقّ العمل. وهل يقتصر ذلك على البشر؟! لا أدري، وتسرع مريم لتندش بحذر تحت اللحاف لصقه بعد أن أشعلت السيجارة مصابيحها كلها، بلى، بلى، على البشر تقع مهمّة توريثها، هم مَن يحيي ذاكرة الأوطان، وحتّى الكواكب والحيوانات.

يحفر في ذاكرته. يحفر، ويحفر، من حول فسيل النخلة. يكبّر الدائرة، ويجرّد كل العروق. يحدّد مكان الضربة. حان هذه المرّة دوره. كبر، وآن

الأوان ليريه. واثق ومتردد، في آن. يتحذى خاله، بينما هو غائب. هو ربّ البيت، سيعترض لا محال، لو كان حاضراً. البستان تحت تصرّفه الآن، والأمّ التي تفتح وتغلق باب المطبخ الخارجي ذا الشبك الحديدي، توشك أن تنتهي من مهمّتها لتلحق به. الجوّ ما يزال بارداً، والشمس بعيدة ما تزال. تنزل يداه بكل قوة بالإزميل الحادّ القاطع، يقطع الفسيلة بضربة واحدة قاصمة. تنفصل عن أمّها النخلة. تتلقّفها زوجة خاله بابتسامة إعجابٍ، وتحملها كطفلةٍ، انزلقت للتوّ إلى العالم. يلفّها عامر بالجنفاص، ويقرّبها من صدره. يختار مكاناً ظليلاً، يُعيّن لها مكاناً، يُنبتها فيه. عليه ألا يتأخّر. ينشغل. يظلّ يسمع أنيناً. توقظه الطفلة الهشّة المفطومة من نومه، فيركض إليها. يتفقد قماطها وجرحها، ويرشّها بالماء، يحرسها ليطمئنّ على غطاء جذعها. يحفر لها، يغرسها، يُطبطب الأرض براحتيه، يضغطها لتتماسك، وتمسّ الجذور، يدغمها، يسقيها، يقلّب قلبها، يتفحّصه، ويصدّ الريح عنها. يظلّ جالساً حذوها، يرقبها أيّاماً وأسابيع. بينما تحرس الأمّ الاثنين، حتى تثبت النخلة البنت، وتمنحه صورة مطابقة لجذّتها، كما اعتادت أن تقول.

بطن تينا المأوى. شَعرُ تينا الأشقر، حرير أصفر مبتلّ، برائحة الشامبو، يتساقط خصلاً خصلاً على وجهه، ويغمره. زرقة العينين المؤطّرة بالكحل. أوّل لقاء له بها، وهو يخشى أن تفلت من فمه كلمة، أو تأتي يده على حركة، تهدّ المشهد. بلّورُ بطنها الورديّ، كرةٌ كبيرة طريّة، وصلدة. لو يديرها، لو تُمهله ليتأملها، لو يدخلها ليرى عجائب الدنيا. كيف يسكن كائنٌ بطنها؟! بطنها المأوى، بطنها المأوى، بطنها المأوى، يعرّيها، وهي طيّعةٌ بين يديه، ترتجف يداه، يرتجف حوضه، كتفاها بيضاوان ورديتان مستديرتان، ثوبها سهل الانزلاق من الكتفين، مِن على جسدها. تنزلق يداه، تتحسّسان وشم تنّين باهت جانب فخذها، بطن بارز مركّب بعناية على جسد نحيل، تضع حلقاً من الفضّة في مكان غريب مؤذٍ، يشفّ عبر سروالها الأبيض الصغير، مبروم الحوافّ بامتلاء فخذيها. بطنها المأوى، يهمس في صيوان أذنها المملوء بالحلق، يزفر، يُطبق فكّيه، لو تُبقيه هكذا في بطنها!

لا يتحرّك في تينا غير خيطي الكحل. الكحل بصمته لغزان. وجهها يوم صيفي غائم مكرّش للنعاس. نخلةٌ طفلة، لم يثبت قلبها بعدُ. تدور عيناها إلى مكان آخر بعيد. تنكمش وتنسحب أطرافها إلى بعضها. يحسّ الرجفة تسري فيها، وهو يحضن بطنها المنتفخ بين يديه. تُفلِتُ قبضتَه بتوسّل من عينيها. دفعة خفيفة لينسحب بإذعان. يعدّ كل الحلق والأزرار الفضّية التي

أنبتتها في وجهها، على صيوان أذنيها، جانب حاجبيها، أرنبة أنفها، تنعس، فيعود جسدها هامداً، يهيجه. يجمع الملابس المكوّمة، مسجّلها الصغير، سمّاعات الأذن، وأسلاكها المتشابكة، مفاتيحها، وحبّات علكة، تناثرت من حقيبتها. بعثرتها جزء منه. يضرب بيده على الشرشف ليذهب بنثار الكورن فلكس ورماد السجائر وأغلفة الشيكولاته، يجفّف مكان رطوبته، ويسحب جسدها برفق لتتمدّد بطولها مرتاحة على الأريكة. يبقى يتأمّلها طويلاً. صورة من عالم آخر غير حقيقي. يدنو ثانية، كمَن يدور حول نبتة أثيرة تكبر، يقلع الضارّ من حولها، ويربّت على أرضها. هل تشتهي شيئاً ما؟! لا تجيب. يقبّلها كلها، هل تودّ شرب شيء، في كل وجهها، شعرها الرطب، أذنيها، فمها، رقبتها، وإبطيها؟!. لا. يمعن النظر في نهديها، النهدين البضّين اللذين انتفخا بدوران الحليب حتّى شفّ جلدهما الحامي، فبانت عروق خضر نافرة، أحاطت بدائرتي حلمتين كبيرتين محبّبتين. يقاوم شهية عارمة لقضم أظفار قدميها المطلية بالأسود، قدميها المتورّمتين، وأصابعها المعقوفة، ياه! كيف انتفخ هذا الجسد، وصار إلهيا بجماله؟! هذا الجسد الحارّ السابح المستسلم. لِمَ لا تحبّه؟! لمَ تؤذيه بكل الأجسام الغريبة التي زرعتها فيه؟! لمَ لا تحبّ جسدها؟ تريد الهروب منه، من أين الفكرة، كيف يواتيها هذا الإحساس، لِمَ تريد الهروب بروحها منه؟! السرّة الطالعة من خلف فانيلتها تلاعبه، وكل ما فيها من سكون وبرود يحرقه. لا يقوى على قول شيء. لا يقوى على شيء. إن لم يتحزك بعيداً عنها، سيفقدها.

ولكنها هي، هي التي تسحبه ثانية إليها لحظة سرحانها، تنزلق، تستدير جانباً حتّى تضبط دخوله جنّتها.

مَن يحسب الدقائق، الساعات، الأيّام والشهور التي أحبّ عامر تينا فيها من دون أن ينالها، سيتعب؟ يصيب عامر وجع غريب، مغص، لا يقوى على حمله، وإخفائه عن تينا أصعب بكثير. لو يستطيع، فيعيد إليها ما سُرق منها. لو يعرف ما سرقوه منها. يبقى عالقاً في المسروق منها. ولكنْ كيف يعيد جسدها إليها؟! يروح ويجيء عند باب عمارتها مشغولاً بأمره. يحيّي المازة، يتهجّأ اليافطات القريبة، وينظر إلى ما في الداخل عبر الواجهات. يجلس على عتبة الكشك القريبة ضامّاً ذراعيه إلى صدره، متقرفصاً من الريح الباردة، وهي تحاصره. يتمرّن على الحديث معها، كأن يقول انظري لي، ارفعي رأسكِ، وانظري لي، أنا مثلكِ مسروق، والسارق ليس واحداً لأعثر عليه، شيء من هذا القبيل يساعد دوماً في مثل حالته. سيدخل، وسيقول لها إنهما متساويان، إذنْ، في غشهما ونقائهما، في عطبهما،..

سيقول لها أنا أخاف العالم مثلكِ، أنا أشبهكِ.

انظري إليّ. لا تفعلْ. لا يظنّ أنها تراه. يفقد أعصابه، فيعلو صوته، ويندم. تينا اليأس. يودّ لو يخطف إلى المرآة ليتأكد من وجود حدود لجسده ورأسه، يودّ لو بيدها الدافئة تتلمّس عضوه. نظرتها الثابتة تقول أن لا رجاء فيه، تشكّ فيه، تعدّ كل ما يجيء منه متأخراً، وتذهب محاولاته سدى.

كل شيء يمكن أن يُفزع تينا. أيّ شيء. حاجباها الخفيفان يرتفعان، أو يتجمّدان. يخشى أن يأتي بحركة من دون أن يقرأ نظراتها. رأس قطّة متسائلة. تنتظر ثواني قبل أن تقوم بالحركة التي تليها.

الألم يصاحب لهفته لكي يُنصت الناس إليه، ويفهموه. الألم ذاته بانتظار المجهول، انتظار الحصول على ورقة ما تُبقيه في بلد ما، بانتظار جواب بعد رحيل طويل. (يسمع، تكراراً، سُرِقَ البلد). لا حلّ في العودة، أو أمل في التوقّف في المكان ذاته، لا حلّ في المراوحة، ولكنّ الطَّلزق، الطَّلزق والطَّلزق على الباب بانتظار جواب. الناس تموت، إن لم تحصل على جواب. تذوي. تنتحر. نطرق، ولا ندري هل هناك من أحد في البيت؟ أم أن مَن في الداخل لا يريدون فتح الباب، بالذات لنا؟

تعبير "جمع الشهوة" قاله عامر غير المتمكّن من اللغات الأجنبية الغريبة التي أربكته، ولم يُجِذ أخيراً، ولو واحدة منها.

سأدلّكِ يوماً على منهل، تغرفين منه الشهوة، هرمون فاتح الشهية، الشهوة للحياة. يضحك، وهو يقولها لمريم التي وجدت الحالة غريبة، والتسمية مدهشة، وراحت تعجّله لتسمع منه المزيد. صدقاً. عطلٌ غالباً ما يبدأ بالروح، وينتشر ألماً موضعياً في جسمه، بطنه، أو معدته. يحبطه عندما يتمركز بين ساقيه. يزيد منه زحام المدينة، انصراف المدارس، أفواج الدرّاجات المنطلقة باشتعال الضوء الأخضر، طوابير طالبي اللجوء عند مكتب الاستعلامات، وفي الكانتين، مواعيد تسليم البريد، تدافع فِرَق الأطفال، ومهاجمة الكبار المرافقة للباصات، واحتلالها الجزء الأخير منها، النظرات التي يصعب فك أسرارها للأطباء والممرّضات ورجال الشرطة والمشرفين الاجتماعيين.

وهو غير قادر على الالتزام بعلاقة ما، والمواصلة فيها. تعذّبه الذاكرة الخائنة، تُرهقه عواطفه تجاه أناس، يشعر بهم قريبين منه. روائح يفتقدها. ذلك هو سرّ غيابه، وسبب كل التُّهم الموجّهة إليه. وسيروح ثانية ليجمع الشهوة ليعود حازاً غير ملوثٍ، بإقبال شديد على المرأة والأكل والانتظار. هذه هي خلطته.

اضطر أن يكون عامراً اخر في حضرة مريم. أشفقها ما تريد. أخبرهم في أثناء التحقيق أن هناك مَنسيين في مُدُن مَنسية محترقة، في بقع معزولة، تحت الثلج الحارق، وفيضان البول. مُدُن مأكول كل خيرها، بسببكم. لكنه قطع، وصمت فجأة ليستدرك لعبتها. حاول أن يعيد لوجهه ملامح مستريحة، ونغماً، إن لم يكن ممتنّاً لهم كرمهم في قبوله، فهو محايد. رأى وسمع ضحكتها الشيطانية في داخله. لا تريد امتناناً، ولا حديث عن نكران جميل. تريد له أن ينزف شراسة بحضورهم في التحقيق، لا، لا تريده أن يتراجع، لا تريد له أن يهدأ. لا تريده ناعماً مسالماً. لاح على وجهه ما يشبه الاعتذار لهم. انسحب منكساً رأسه، رجع إلى

الخلف بقدميه، وانحنى بتحية شبه يابانية، وهو يرند بدمدمة إن آلافاً آلافاً غيره ينقصهم الحظ، آلافاً غيره ينقصهم الحظ. آلافاً.

عن عمد، يترك مريم، وينقطع عن تينا. عن عمد، ينسى. عن عمد، يتعظل. لا، ليس عن عمد. لا يحتمل قوَةَ الأولى، ولا ضعف الثانية. يدور في المحظات، تلتفّ القطارات مثل أفاعٍ من حوله، تتعارك فيما بينها لتسرقه. الأبواب مُقفلة. الطُرُق متشابهة، والانتظار مقيت، له وجهان، الفراغ وغاية الانشغال. مَن ذا الذي يُنصت إليه؟ يدور عامر في شوارع، يهطل المطر فيها مثل فحم أسود، يريد به التهلكة. يصعد سلّماً قائماً طويلاً مطيناً زلقاً، لا ينتهي، تقف تينا أعلاه، تُنزل عليه عقابها. بطنها، وهو يتأمّلها من الأسفل، تحجب وجهها عنه. يأتي تينا المخاض. تلد في الأعلى تحت المطر الأسود. المخاض مخاضه. الدم قطع خاثرة. يشعر بالوهن، وهو يصعد، يختنق بصوت ألمها. يدها ممدودة، تستنجد به.

لكنه يقفز من منتصف السّلّم إلى الأرض، يركض ليهرب بعيداً من جديد، يختفي ويغيب، بينما يدها الممدودة التي تطلب النجدة تلاحقه.

يريد هواءً، يختنق، وتنغلق كل المسالك من أجل أن يسمع صوته. يسير وينام في العراء، هناك يعود إلى نفسه، يعود إليه وزنه وجسمه، تتلقّاه الطبيعة، وتقبل به، يركض، يبحث عن مخبأ طبيعي، عن كهف، عن رائحة أرض وأعشاب وحشائش وطين، يركض، ويحفر بيديه، ينبطح، ويحك جلده بالأرض، يقطع أغصاناً، ويُشعل ناراً، يَعرَقُ، يلهث، ويزأر عالياً.

وجدثه الشرطة في غابة. توغّلت الكلاب كثيراً قبل أن تعثر عليه. هناك مَن وشى به. اقتادوه سيراً على الأقدام حتى وصلوا به إلى الإسفلت. نقلوه إلى المركز، وحين صعب التواصل بينه وبينهم، أعادوه إلى معسكره بابتسامة متعاطفة ساخرة.

يتّصل موظّف الاستقبال في المكتب بالممرّضة. يقتاده، وهو يطمئنّ بين خطوة وأخرى إلى قدرته على السير إلى غرفتها. تعد الممرّضة الموظّف بمرافقه عامر إلى غرفته، تُطمئنه، وتدعوه للانصراف. تُقفل الباب، وتسحب معها منضدة صغيرة عالية بعجلات قريباً منه. وعاء، مواد تعقيم، وملقط. تنصرف النصف ساعة من دون تبادل شيء غير الأنفاس. تعالج تقرّحات قدميه من دون كلمة، تمسح لحيته النابتة بإسفنجة وماء دافئ، وتدهن بالمرهم محلّ لسعات الحشرات على وجهه ورقبته، تُعقّم الخدوش في ذراعيه بحذر، وتستلّ عيداناً من شعره، ثمّ تنزل يدها على كتفه

(بحنان مؤذٍ له)، تستقر ثقيلة، تتحرك دائرياً طولياً لتصبر عليه، ببطء ودفء على ظهره، يسمع صوت جلد أصابعها المتيبس يحفّ رواحاً مجيناً على قميصه. تنظر إليه بصمت مستفهمة، لكنه يزيح يدها بهدوء، وينهض قبل أن تكمل، يترجاها بعينيه أن تتركه يغادر الغرفة.

حين توجّه إلى تينا مباشرة، رفضت أن تفتح. توسل عبر هاتف جرس العمارة، أطلّ الجار من الشباك، وأغلقه ثانية. وعجوز في الشرفة أسرعت لتختفي. انفتح باب العمارة صدفة، فنهب درجات السلّم بقدميه. ضرب بابها، جنّ، صاح. خاف أنها في إحدى حالاتها السيئة، فقرر أن يدفعه مثل ثور.

كانت تبكي في مكانها على الأرض، والطفلة بنفَس ضعيف. حملها بين يديه، وهدهدها. رفع رأسه حيث تينا:

- ولكنها لا تتنفس.

حضرت الشرطة. أشارت تينا من مكانها على الأرض إليه. قيده رجلان، وقاداه. سارت السيارة بسرعة جنونية، وهو راكس في مقعده، يحاول التفكير بما حدث. غيابه عنها جعلها تمنعه من دخول البيت ورؤية الطفلة الصغيرة، وهي ليست طفلته. رأى في مخيلته نفسه حاملاً جثّة تينا، الأمّ العارية، برأس متدلّ إلى الأسفل وخصلات شعر طويلة كالذهب تكنس الأرض من خلفهما، كأنه حملها بخطوات جنائزية، متقدّماً بنفسه إلى المحاكمة، بنيّة الاعتراف بما ارتكبه.

يفزّ إثر هزّات عنيفة في كتفه. ما يزال في سيّارة الشرطة. يشعر بجفاف شديد في حلقه، أقلق الشرطيين.

نظروا في حالته من جديد. قد تقرّر أن لا أوراق رسمية لعامر للإقامة. لا ترخيص عمل لديه، ولكنْ لا ذنب له في موت الطفلة المريضة التي غفت أمّها عنها بتأثير جرعة مسكّنات قوية. كالعادة سيُلقى به لأيّام، أشهر في السجن، ومن ثمّ يُعاد إلى المعسكر، وسترمى أوراقه بعيداً عن متناول المحقّقين. يقولان له بتعاطف وشبه عتب إنه قد أخّر معاملته بنفسه من جديد. وهو لا يريد غير النوم الذي صار صعب المنال. يقرّران نقله على الفور إلى أقرب مستشفى. يعود ليغفو من جديد.

رائحة خلّ! إنه على السرير الأبيض ثانية، بسبب إحدى نوبات الفزع. يميّز المكان ببصره حال فتح عينيه. رائحة بياض المستشفى الحامضة

تنبعث من السقف ثانية. رأسه ثقيل كالعادة، لن يرتفع من على الوسادة. غاطس في الفراش، وكأنه موثوق. لا حراك غير رفيف جفنيه سجن بسماء مفتوحة، ذلك المكان النائي، سجن بصخره وحديده وظلمته. سيظلّ عامر على حاله الذي احتار بشأنه، هل كان خياره؟ ولكنه ليس سوى نازح مجهول في بقعة غريبة مجهولة، بلا حراك. نعم، لم يكن خيار أحد، بل خياره. في أيّامه الخفيفة، يشعر بنفسه قشّةً، ينقلها الماء في سواقي، تتفرّع، وتتفرّع، تُغرقه، ويطوف. الوقت يخونه. غالباً ما يشعر أن زمن الرحلة يتوقّف، وأن مَن تركهم هناك هم في الحقيقة أموات، استمرّوا بلا صوت، يمارسون حياتهم، كما اعتادوا. جسده الهامد يسخن، ورأسه المخدّر يغطس شيئاً شيئاً في الوسادة، وسائل حارّ يسيل على جانبي خدّيه، ما إن ترمش عيناه. ما الذي يبغيه البشر، إذن؟ ما الذي يريده؟ ما الذي يخيفه؟ إلى أين سيمضي؟ ما همّه إن اهتزّت الأرض، أو تصحّرت؟ ما الجنّة إن لم تكن بطنها؟ داخل بطنها المنتفخ الدافئ، في الأعماق كالبقعة الخضراء النائية، حين يدعوه نخلها العالي من البعيد ليركض إليها، يدلّه خرير الماء إلى سواقيها، فيدنو، ويدنو، تفرّ الفراشات، ترشف منها بمداعبة الأصابع، من تحت السواد، يتبدّى عُريها، يهبّ شذا زهرٍ حنّاءٍ وريحان.

يسري الدفء تحت لحاف المستشفى الذي تماهى مع ألوان اللوحتين للبحر في الغرفة. شوقه كبير لعناق امرأة، يزدحم بها. شوقه ليديها تمسك بيديه بقبضتين قويّتين، تضلّله، وهو يطارد الرائحة خَلَل طبقات ثيابها، رائحة نفّاذة توقظ حواسه. يريد غَضبَها ذاك على لعقها، ولوجها، وهي تغطّيه، تستره، تغمره، تدفنه، ثمرها مخبوء، امرأة تأخذ بيديه إلى جسدها، امرأة تستلذّ، تريه ما تشبع منه وبه. تفتح راحة يديه الفتيّتين، وتلصقها مبسوطة على جلدها. تتمسّح الراحة بالمرتفَع، المنخفَض، تتحسّس الشعر، الزغب، تمسك، وتغور بأصابعه، تقسرها على ملمس دفء الثنيات، تغيب، ويتحزّر أنينها موجاً حارقاً، يتذبذب، يمتصّه، الجسد يخلخل الأرض، يضغط اللحاف الذي يقمّطه، فينقلب جانباً، ويعود على ظهره، يرفعها فائراً لتعتليه، غائبة عنه، لكنه يخفق، يخفق، ويعود من جديد، إلى نفسه.

يدخل الطبيب ليقيس ضغط دمه، ويفحص عينيه، ويُدوّن. حركته سريعة مثل أنفاسه، ويده سمينة ناعمة مقلّمة الأظافر. ينهي مهمّته، وقد نسي أن يتحدّث معه. الكثير الذي يفصله عن هذا الطبيب غير اللغة والبشرة وسلطة صدريّته البيضاء (أنا لم أجرّب الإهانة من قِبل شرطي، أو أن أدخلَ سجناً مثلك، أو أتعرّض للضرب والركل لسبب أجهله، أو أفقد

قريباً لي لأنه يفكّر بطريقة مختلفة، أو يمزّق أحدُهم فتحةَ شرجي بزجاجة. آه، سمعتُ عنكم ما يكفي عبر هذه المهنة، ثمّ إنني لا أبول في فراشي، ولم أجرّح عضوي جراء الاستمناء، ولا أخاف من ظلّي، هه هه هه).

يصلها خبر نقله إلى المستشفى، فتزوره. ولا يكون مزاج مريم أفضل من المزاج الذي يتلبّس مَن تمرّ ُبهم في المصفوفة إلى جنب بعضها، الصاعدة منها، والنازلة. يحاصرها هدوء الردهات وحبال أبواب الأقسام المتدلّية، الخطوط الحمر والصفر الممتدّة على الأرض لتدلّها على القسم الذي أحالوه إليه.

وجهها مغسول شاحب، تُلقي بحقيبتها السوداء الكبيرة على المقعد الوحيد عند السرير، وتنزع شالها الأسود. تمسك بقدح ماء من البلاستك، وتجلس بقرب عامر صامتة، يلمّ بها ضيق، وشيء من حزن، تدسّ إبهامها فوق القميص جانب ثديها، وتحاول أن تتذكّر بصوت عال، وتعدّ بأصابعها لموعد دورتها الشهرية.

لِمَ تتهرّب مني، يا عامر؟! تينا بانتظاري. وأنا؟! أنتِ مريم الغابة، وهي بستان. ما الفرق؟! لأني أعرفه، سأضيع حينها، بلا خوف. حذار، لا تأمن.

أسئلة كثيرة يقولون عنها ساذجة. مريم رخوة في مكانها على الكرسي أمام عامر. يعلو وجه عامر الاصفرار، ويكتسحه صمت، يشبه الموت. أعراضه نفسية، وقد يرتفع ضغط دمه أحياناً، أو تُفقده أزمةُ ربو وعيَهُ، أو تُغرقه موجة كآبة. علمت مريم بموت طفلة تينا، وتأثّره الشديد بذلك. ترقبه تارة، والسماء الغائمة تارة. يزداد توتّرها. أوّل الشتاء وسرب من طيور مهاجرة يلوح أمامها من النافذة. ترتجف شفتاها انفعالاً لمرأى الزرازير، كتلة سوداء منقّطة تتحرّك بهلامية، تسأله كيف لا تتصادم ببعضها، بانعطافة حركاتها المفاجئة. تلتفت برأسها إليه. لا مزاج لعامر للمجاملة. جارتها طرقت الباب لتحصل منها على توقيع هذا الصباح. صدر أمرٌ بقطع الشجرة التي تحجب الضوء عن روضة الأطفال قرب سَكَنها. وفقاً لرصد صاحبة البيان، ولأرشيف طيور المنطقة، فالشجرة تحمل عشاً لطيور، على وشك أن يفقس بيضها. الجارة جمعت تواقيع للمطالبة بتأجيل قطع الشجرة ثلاثة أسابيع. لم تكن يوماً متفاعلة كما اليوم مع الحَدَث، وهو ما ضايقها.

وسيؤذَن لعامر بالخروج من المستشفى. يعود إلى المعسكر. يعرف

غرفته مثلما يعرف سجين حُكِمَ عليه بالمؤبّد زنزانته. لا يريد رؤية أحد.

مريم تريد النوم مع عامر لتتفرّج على ما تبقّى منه داخل جسده، ومثلما تظنّ أنه يودّ أن يدخلها ليسترجع أخرى فَقَدَها، ستلتذّ هي بعلامات الدمار في روحه. هل اكتشف عامر عطلها؟ إنها تشيخ مبكّراً؟ لا. تُفزعها الوحدة؟ لا. تحنّ إلى أمّها؟ لا. لم تجد فارسها؟ ولا هذا. عطلها أنها تبحث عن حسّ نشاز، تبحث عن جمال قبح صارخ، عن صوت للسنوات، وهي تتوالى، عن عاطفة ما حادّة مدبّبة مسنّنة، تدعّم تلك الممارسة لئلا يفرغ شيء ما فيها. إنها تربّي الوحش في داخلها، وتُطعمه مخافة أن تفرغ. سرعان ما ينتهي كل شيء، كل شيء! أن تلتذّ بالتهام أكلة اشتهتها، أن تنتصر في نقاش، أن تنتهي في الفراش بعد أن تستفرغ وحشية الممارسة. كل شيء يتكرّر، ثمّ ينتهي بها إلى الفراغ.

لم ترتكب مريم أخطاءً كبرى. تترك لأخطائها، الأبالسة الصغار تنطّ من حولها، على كتفيها، تلاعبها، أمامها على الطاولة، في داخل حقيبتها، وعلى تاج مرآتها. أبالسة ذكية، اختارتها للمؤانسة، فالغباء من حولها غير مُحتمَل. ليس هناك من وسخ يلوّثها، لا، ربّما كان، ربّما في زمن ما، جعلته يطلع، ويسيح مثل قيح. الوسخ هاجس، ليس إلا. لا يمكن لاثنين أن يتّفقا بشأنه.

عامر يبحث عن روح تصله عبر بدنها. تقول له، ولكن الروح ذاتها متعدّدة متراكبة، وهو يشكّ أن إحداها لامسته يوماً، واتّحدت به. يسألها بشكوى عمّا تبغيه منه، فتقول له إنها تريد الاقتراب به من البدايات ناصعة البياض.

والبدايات لديه حين تتخطّر امرأة النهر، وترفع قنديل الرغبة، ضوء من فيض، فيحاول أن يبقى طافياً، حين المتعة بحر، لا قاع لها، الرعشة الزَّبَد، أمواج تندفع متلاحقة صغيرة، تتدافع فرط اللهاث، وتمضي به إلى انفلاتها.

ولكنه وحيد. يظلّ خائفاً، وإن أخفوه، وإن مسحوا آثاره، ونفوه. وإن نجا، ما يزال يشعر أنه أعزل ضعيف، ومُتابَع. جاءته بزجاجتي نبيذ أبيض، واختار هو شرشفاً أحمر لسريره في المعسكر. يتمدّدان، نصفا جسديهما متعاكسان على السرير، يلتقي الرأسان في المنتصف. وجهاهما إلى السقف

على الفراش، يشربان النبيذ من فم الزجاجة. النبيذ يكرس خموده، ويحزك تيارات دفء خفية من حولها.

تذكره بأول كأس نبيذ، تناولته معه ومريم، تزوجيني، والله، أنا ولد طيب، وسأضحكك طول العمر... برئك، ما الذي تريده من البيت؟ لا يشغلها الاستقرار، فكرة البيت وهم، حيلة انتهى زمنها. ولأنها باشتياق للتسلّق وصولاً إلى قمة. أسفلها هاوية، من دون قرار، لعب في سيرك من دون شبكة. تجربة الزواج تغليف لشيء، من المحتمل أن يكون خطأ، بيت الدمية هذا شبكة متهرئة، مراوغة للنفس قبل الآخر، المراوغ بدوره، أفضت بطردها له، للزوج، بينما هو غارق في الضحك.

لكنك ستتعبين. ولكنها لا تحب المغالاة في تقديس الحياة، لا تصلح لعقد علاقات مستديمة، دعها تكون عابرة، دعنا نمرّ لمجرّد التطفّل، على بيوت الأغنياء، متوسطي الدخل، بيوت الهوى للمنظّمات الإنسانية، بيوت العاملين في الصحافة والفن، بيوت الرجال العُزّب، متزوّجين ... ومتزوّجات. تضحك بصخب. ترمي كلماتها لتستمتع بالدهشة والفزع المرسومين على وجه عامر بعد كل طرقة منها... ولكنه أيضاً اغتسال، واسترجاع لملكية جسد، يُسرَق حين نُولَد!

يستهويها الجوّالون على شاكلتها، الناس الزخل بأرواحهم، الذين يبحثون عن أشباه لهم، عن أنصافهم المفتقدة. الذين يتخذون من العراء بيتاً، الذين يتركون للرياح أن تحرّف قصصهم، أن تمسح الرمال، أو تضيف، أو تبلع تاريخهم تماماً. يتحكم الربيع بمريم والمطر، تحلّ أينما حلّ، وإن كان بقعة من سراب.

راقبت صاحب سيارة الخضار المخالفة من النافذة في مقرّ عملها. غضّ المسؤولون النظر عن وجود السيارة في المكان تعاطفاً مع طالبي اللجوء. كان يجول بسيارته بهدوء بين معسكرات اللاجئين، يبيعهم ما يفتقدونه من مواد، اعتادوا عليها في أوطانهم. فَرَحٌ هادئ مسروق لسكّان المعسكر، للاجئين اللذين انتهى البحث في قضاياهم، واستحصال المعلومات منهم، وما تبقى لهم من انتظار هو القرار النهائي بشأن قبول لجوئهم.

دكّان متنقّل، لا يحوي الكثير. يكون ذلك في البدء فقط، أوّل وصولهم إلى حين اعتيادهم وتعرّفهم على بضاعة المكان الجديد حليب نيدو مجفّف، دهن فازلين، فيكس، مخلّل المانجو، معدنوس ونعناع وجبن أبيض وطماطة بالكيلو لا بالمفرد، ومارتديلا دجاج وبقر حلال، والتاباسكو، الفلفل

الطازج الحارّ، ومغلّفات البهارات الصغيرة المختلفة، وزيت الشعر "تاتا"، ومبيض للبشرة، وبودرة "جونسون".

سيارة نقل صغيرة قديمة نظيفة لامعة من الداخل والخارج، مغسولة العجلات، تسع مقعدين في الأمام، القسم الخلفي محلّ لعرض البضاعة. لا تراه، وهو يختفي غالباً خلف بابي السيّارة المشرّعين في الخلف. تقصده مريم لتقول له إنه يبيع الحلال والحرام معاً. يبتسم دون أن يعيرها اهتماماً كبيراً منصرفاً إلى رصّ وصفّ الحاجيات بعناية. تقف خلفه تماماً، وتبين صلعته كبيرة. متأنّ. يفكّر قبل أن يتحزك أو يقول كلمة.

صوته خافت. يسود صمت، ونصف جسده داخل السيّارة، فتقول إن النعناع الذي تقتنيه في الأصص الصغيرة من السوبر ماركت يختلف. لا يجيبها. تسأله عن مصدر النعناع النضر، وهي تشير إلى الباقات التي لفّها بورق رطب. ورقتها كبيرة، ورائحتها تنتشر في المكان لأيّام. يقف بقامة مستقيمة أمامها، فيظهر الفارق بالطول. إجابته مبتسرة. مزارع يديرها أتراك. تعرض عليه أن ترافقه في مشوار تبضّعه لترى بعينيها. البيوت الزجاجية للنعناع بعيدة. يرفض في المرّة الأولى والثانية.

ارتوت. هل تتمدّد لتشغل السرير كله، هل تكوّر جسدها لتترك للفراغ أكبر فراغ ممكن؟ لا أحد غيرها يجيد ذلك. تمنحه القوّة كي يعيدها مضاعفة. لم تمانع، ولم تكن لتمانع، التزام قوانين لعب جديدة، وشروط مستنبطة للاختبار. فاجأها البائع الجوال بفنّه! بسَكَنه، باللوحات الفنّية المختارة، بطبخه، بتذوّقه للنبيذ، وبمزاجه في اختيار الموسيقى. لا يخفي فظاظته، احتقاره لعادات هجينة تبنّتها، (برزت في خشونته في السرير، وهي تصرّ على الغطاء). يخشى على شقّته من أن تفقد نظامها، كما يريده. ألا تتّسخ أرضيّتها، أو تنشف قطرات ماء على حوض الغسيل قبل أن يجفّفها بنفسه. يشتكي نسبة الكلس العالية في الماء الملح يترك بقعاً مزعجة على السطح المعدني.

ينهض بالحال، لا ينام لصقها، بل على الأريكة في الصالة. ينتظر نهوضها صباحاً ليعيد ترتيب فراشه (ضريبة جنس الليلة الواحدة لديه). يخطف سيجارتها قبل أن تُشعلها، يكسرها بيده مقزّعاً إياها، ويهرع إلى المطبخ ليرميها في الزبالة. في المرّات التي سمح لها بزيارته والمبيت عنده حرص على مغادرتها الشقّة قبله ليقفل الباب بيده، ويمضي إلى عمله.

عامر لا يستطيع التوغّل أكثر في الأشياء عندما تصعب عليه الأمور. لا

يحمل ضغينة. يُصلح الخيّرون في المعسكر بينه وبين سائق سيارة الخضار الذي تشاجر معه، وهما من مدينة واحدة في النهاية. ينصت إليه، الناس تحترمه، عامر يراه مثقّفاً، وقيل يساري معروف بين أبناء بلدته، وقيل شيوعي سابق، (طريقة حديثه واختياره الكلمات ذاتها عن الوجود وأغاني السبعينيات ومعنى الوطن). هو عينه مَن تبرّع وساعده في الحصول على العمل في محلّ البيتزا. يحتسيان البيرة معاً، بمناسبة الصلح، بينما لا يتمنى عامر في سرّه أن يسمع ثانية عمّا يسيء لمريم. مريم سبب ذاك العراك الذي نشب بينهما في المعسكر، وحرص على ألا تسمع بشأنه. لكن بائع الخضار يصرّ على أن ينبّه عامر ثانية. يوصيه أن يتوخّى الحذر، رغم ما يُقال عن إن الإشاعات قديمة، وغير دقيقة: نحن معارضون هنا، والمغتربون المكلّفون، الدبلوماسيون، المبعوثون في مهمّات تجسّس، في أوج نشاطهم هنا، إنهم عملاء ومخابرات مدسوسون في كل مكان.

كان عامر يرشف كأسه بهدوء، ويجهد في أن يبدو منصتاً ومؤمناً بما ينقله الصديق كي يسمح له بالقول بالمقابل، نحن والله نشكّ بعضنا ببعض كثيراً، هذا ما عشّشه، والقادمون مؤخّراً يعانون من هذه الريبة فقط لبقائهم كل هذه المدّة داخل البلد. الصديق يقاطع محتجّاً،لا، لا، لا، يا عامر، لا، أنتَ مخطئ، أكثر من صديق كلّفني بالحذر من هذه الفتاة. (كان اللاجئون يتبادلون قائمة، تُدرج أسماء المغتربين المتعاونين مع السلطة). ستجرّك إلى التهلكة. مريم لها أسماء وجوازات ووجوه. تاريخ سفاراتنا معروف في العالم، أنت تعرف، مراكز استخبارات متنقّلة. وعامر يُبقي على ابتسامته، لكنها مجزّد أخبار، يتناقلها الناس. لا، لا، يا عامر، متعاونة مع النظام، ما قصّة سفراتها بين فترة وأخرى، إقامات في فنادق درجة أولى، في ظلّ ظروف غامضة، بدعوات غريبة، تحصل عليها، أقول لك، والدتها تبرّأت منها. الكل يعرف هذا عداك، إنها مندسّة، تتجسّس عليك، وعلى كل طالبي اللجوء هنا، وأزيدك علماً، لها رأي في قبولهم، أم لا! لا تكن غبياً.

حين يلتقي عامر مريم، يستدعي النسيان المكروه. هي أمّه، صديقته، أخته، أخته، كما يقتضي ويشعر. لكنها الأخت التي تُجبره على خرق المحظور والمحرّم المشتهى بقايا من رائحة ثمر ناضج مخبّأ في ثناياها، زهر حنّاء عاجيّ اللون، رائحة حبّات رطب، خميرة طين بالتبن، ورائحة عتمة بيت فلاح. يُستثار لكلامها، لسانها البِلا عظمة، أنفاسها التي تتلقّف أطراف شعرها في أثناء حديثها. وهي توليه كتفها، وتدور. تشذه المغامرة

في مغامراتها، الإنصات إلى خرافاتها. لن يجرؤ على توجيه سؤال لها. يودّ قنص الرغبة لديها في العدو، بالأحرى ذلك هو سرّ انجذابه، تُرعبه، ويعدو معها، ويجازف، ويركب خيالها في خياله.

عليه أن يكتفي بالماء بعد أن طالت جلستهما، بينما استمرّ صديقه بكرع البيرة التي فجّرت الكلمات الكبيرة في رأسه. تعب رأسه حتى ظنّ أن الطاولة ستنقلب بهما. انتصف الليل، والبار فرغ من روّاده العقلاء، وشرع يستقبل مجانينه. يُسقط الجزع امرأةً مسنّةً على الأرض عند كرسيه، فينهض مع رفيق لها لمساعدتها في الجلوس على كرسيها. ترفض المغادرة، وتصرّ على كأس أخيرة. يتنامى شعور لدي عامر بالضيق من المكان، ولكن الحرج يمنعه من مقاطعة صديقه.

وسط غيمة كثيفة من الدخان يُخبره سائق سيارة الخضار أن مريم نصف كذبة، نصف حقيقة. إنه منفاها الثاني، أو الثالث، ربّما الرابع، مثل اسمها. مثل تاريخ ولادتها. هي نصف أكاديمية حيث لم تكمل دراستها، خلاف ادّعائها. نصف متزوّجة، فرّت من زوجها، دون علمه. نصف نسوية، تدافع عن المرأة، وتستخدم جسدها. وهي نصف وطنية. ما سرّ علاقاتها وعطورها، وهي لاجئة معارضة فارّة من النظام، وتعمل مع اللاجئين! وإن لم تكن عنصرية، فهي نصف عنصرية، تُرجع كل ما يحدث لها من إخفاقات إلى عنصرية البلد الذي تقيم فيه، أ لم تسمع الأحكام التي تُطلقها على السياسيين والمثقّفين والعامّة، على السواء؟!

عامر لم يكن بمقدوره أن يردّ، (ربّما تفاجأ بهذا الكَمّ من اليقين). من أين له بكل هذه التفاصيل؟! ولكنه أُلِف من ناحية ثانية سماع بعض مما يقوله الصديق على لسانها، من مريم، هي ذاتها التي صدّعت رأسه بها. لطالما ظهرت بفضل بطاقة السحب، بشكل صادم بالأناقة والترف. مفلسة كالعادة، البنك يبلع أكثر من نصف راتبها، بسبب الديون، قبل أن يختفي الباقي منه في الإيجار والكهرباء والتدفئة وبضع سيجارات حشيش. نعم، إنها متحمسة جدية فجأة (لا تنتعش، إن لم تجد نفسها، وهي تمارس ازدواجيّتها لأنها هي العالم ذاته الذي تنتقده شرقاً وغرباً)، في كل شيء، ولكنه يفهمها، فحالما تنتهي من توبيخه، حتى تتناول الباقين من مدينته، وبلده، وإلى سكّان هذا البلد، طبيعتهم، حبّهم لذواتهم، إحساس الفوقية لديهم، ويقينية العِلم بالشيء، المسالمة السلبية، المحدودية، النمطية، الإيمان المطلق بما يتربّون عليه، هوسهم بهويتهم ووطنيتهم وتاريخهم، ماركات تصاميم أثاثهم والإضاءة، أعيادهم الدينية...

يسرح عامر، ويبتسم، يعطي جليسه وجه مَنْ يثني على كلامه، ويصمت. (كيف لو سمعها تردّد مقولتها، وتؤكّدها كل مزة على طريقتها، بشكل مختلف، وأينما حلّت الشمس تطلع من الشرق!).

يتوادعان. يستقلّ الصديق سيارة أجرة، ويترك سيارته في مكانها بعد أن تجاوز الحد المسموح لنسبة الكحول في دمه. يُؤثِر عامر السيرَ، ويتابع طريقه، من دون وجهة محدّدة. يترك صدره مفتوحاً، برودة الشتاء تُنعشه، والتفرّعات الصغيرة من الطُرُق بحجارتها القديمة تجذبه، والصمت يُرتّب الكراكيب في رأسه قليلاً.

يطرق عامر باب مريم من جديد بعد غياب، لعلّها تقول له شيئاً، يمسح به العتبة. رأيتها البارحة في الحلم ثانية. أمّك، هل رأيتها أخيراً؟ لا. امرأة النهر؟ لا، الفتى، صَعَدَ الماء في النهر، فلمْ معكوس مسرّع، فاضت البساتين، وصل الماء البيت، وهي جالسة مكانها في الصالة، أنا الذي قصدها، لمْ تتحرّك، حدّثتني عن خالي. ما سبب حزنها؟ لا أعرف. أقسم كنتُ أشعلتُ النار في ثيابه، لو كنتُ محلّها، أ لم تخبرك زوجة خالك عن شيء؟ قطعاً؟ لا، ماتت من دون مقدمات، ولم أفهم. ماتت حزناً. ماتت لأنها حاولت أن تحصل على جواب منه، ولم تحصل.

تعلن الغلاية الكهربائية عن فوران الماء. تُريقه في الكوبين مع كيسي الشاي، وتأتي بهما. عامر يسرح. هل أنتَ معي؟ لا. عامر! نعم. عامر ربّما لم يعرف الحب. مثلها، وإن اختلفا. هو يخشاه، وهي تقفز إلى أقصاه، الفراغ.

يضايقها الصمت. يضايقها أنها لا تختلف عنه، وليس بمقدورها أن تختلف. أن تشبهه، كائن لا يفعل غير أن يشرب، ويأكل، وينام، ويحرص الآخرون على تصريف مخلّفاته. تضرب الكوب بعنف على سطح الطاولة الصغيرة. يجب أن تقتنع بأنك قوي. أنا كذلك. ولكنها تؤكّد أنهم لا يسمحون له بإظهار هذا، إنهم يستهلكونه، بأسوأ صورة في الإعلام، و... هذا العالم له وجه آخر، لم يختلف الإنسان فيه، الملابس تستر وحشيته. تقترح عليه حلولاً عجيبة مثل جرّب أن تقول لهم خذوا مكاني، أو مكان أيّ ضعيف، لن يستطيعوا. ما بها هذه المريم؟! ما الذي يعذّبها؟!

أنتِ تهذرين، يا مريم. ما لنا وهذا التحامل؟! لا، يا عامر، هذا ليس تحاملاً، ولنا في الحديث الكثير، ثق، هم يخشون طموحي، صاروا يتحاشونني في عملي. ولكنْ أنا ما دخلي بكلّ هذا الذي تقولينه؟! لا مشكلة عندي، ولا طموح، أعيش في جنة. لأنك جاهل. مللتُ أناساً يُخفون حياتهم خلف الأبواب.

ربّما بسبب البرد، والشتاء يتحمّل وزر ذلك. انظري إلى كومة الملابس التي أتدثّر بها. لا تضحك. لا تسخز بي. أنتَ لا تقرأ، ولا تكتب، ولا تفهم ما

يدور حولك.(وأنتِ تنتقين لي ما تشتهين، وترين لي ما لا أرى، وتسبّبين لي الصداع).

يفلت زرّ قميصها بانفعالها، فيبرِز الملتقى. لا ترتدي غير الأسود. جزمتها الجلدية خشنة بكعب عال، لا ترتدي غير البنطلون، تفتح ساقيها كعادتها، وبراحة، تظلّ تلخ. افتخ عينيك، أنتَ يا عامر جئتَ من النور، عليك أن تكون محارباً، أن تشهرَ كل أسلحتك. (كنتِ للتوّ تتحدّثين عن العنف).

لِمَ أنتَ مستسلم؟! قل لي بربّك، هل حقّاً أمسكتَ بمشعل، أو بندقية، أو عصا، وركضتَ؟!... هل؟!... لا أصدّق ما قلتَه لي، لا أصدّق أنكَ خرجتَ في الانتفاضة، قل لي بالتفصيل أيّة مظاهرة هذه التي انضممتَ إليها؟! هيا، ما الذي هتفتَ به في أثناء الانتفاضة؟! قل لي، بربّكَ؟

لا أذكر. (قد يصعب تصديق رفض اللاجئين الحديث عن ماضيهم، أو أجزاء من قصصه). كيف لا تذكر؟! هل اختلقتَ قصّةً لطلب لجوئك؟! لا تخدعني، ألا تذكر ما ردّدتَهُ مع المنتفضين؟ شعارات الثورة، ما هي؟! مَن كَتَبَها؟! المسيرات مَن نظّمها؟! كيف خرجتَ للتظاهر، إذاً؟!

مريم تروح وتجيء، تدوس على شرخ في الذاكرة. كعبها العالي يضرب في رأسه بقوّة. جئتَ. فقدت كياستها، وَفَقَدَ هو القليل القليل الباقي من صبره حين تعالت ضحكاتها مثل ساحرة. جاء تلبية لاتّصالها. طلبتْ منه المساعدة بشأن تركيب خزانة الملابس المركونة ألواحها حذو الحائط منذ زمن. الأقفال والمفاتيح والروابط المرفقة وكزاس توضيح الاستخدام والرسوم المرقّمة، ذلك كله أربكه، وجعله في حَيرة، من أجل تدبّر المهمة. لم يكن قادراً على التركيز. لم يُفلح، ولم تغفر له عجزه، ولم تحاول أن تخفي استياءها.

أين هي صورتها الأولى في خياله؟! أين لسانها المثير، هبوبها، الغلاف الدافىء لكيانها؟! سيشعر براحة أكبر، لو فكّر بها من على مبعدة. تُطلق ضحكة هستيرية عالية، لا يحبّها، بدت صفرة أسنانها واضحة جرّاء التدخين. لثتها زرقاء. لا يفهمها، ويجهل لِمَ هي ناقمة محتدمة إلى هذا الحدّ اليوم؟ ينهض، فتعترضه، يصدّها، يزيحها عن طريقه بانزعاج قاصداً الباب.

الأرض شديدة التميز، لكلّ مكان رائحة. رائحة أمّه تسرّ برائحة البستان المبخوخ للتوّ بالمطر، وإن أخذتْ حمّامها، وإن ارتدتْ ملابسها البيض، وتوضّأتْ، وإن خرجتْ من غرفة أبيه متوجّهة إلى الحمّام. رائحة التراب، رائحة المرأة، رائحة الثياب المنزوعة للتوّ، رائحة حليب، في الفم، في الصدر، في العانة، في آسيا، أوروبا، أو أستراليا، رائحتها تأخذها من الأرض التي تمشي عليها، تُثار مثل الأحصنة التي تنهب الأرض، حرّيفة مثل عشب داكن الخضرة نائم بين اللحم والأظفار.

امرأة النهر أيقظتْه ليلاً، سحبتْه إلى نهر، جفّ ماؤه، علّمتْه هناك، علّمتْه، علّمتْه، هي مَن علّمتْه... الكثير، وهو لا يذكر اللحظة غير الرائحة.

الرائحة! فيحدس قبل فتح عينيه مكان وجوده. هذا هو تمرين عامر الأبدي، وهو معصوب العينين، في سجن، مستشفى، مركب، قطار، مخيّم، أو حضن امرأة. الفزّة لم تبارحه، فعل انعكاسي لا إرادي يخترقه. هو وضع التأهّب، فالناس هناك في بلاده مصابة بحالة خفية من استنفار مزمن، لا يفهمها مَن لم يعشها.

إذا ما صفارة الإنذار جزاء بدء قصف مدفعية، سينزلون الملجأ الذي شارك أباه وأمّه في بنائه. إذا ما تلوح فجأة جوقة سيارات عالية بألوان زجاج قاتمة، تعلوها أسلاك استخباراتية رفيعة، عليهم بالريبة، وبالحذر، وإذا ما اقتربتْ من دون صوت، ومن دون أن يميّزوا أرقامها، حينها يتحوّل الملجأ إلى مخبأ.

وفي المخبأ، تختبئ امرأةٌ، كانت بانتظار أن ينبتَ الشعر في جسده. تلك المرأة التي تتسلّح بالسواد. يسمع لهاثها من بعيد. وهو يلجها الطوفان.

المخبأ بعمق مترين تحت الأرض مأوى لهما، تأتيه ليلاً أيّام الشتاء هناك. تحتلّه بطنها. ثقل جسدها، وخفّته. البرودة تحت الصفر لولاها. لم يسأل مَن هي، لمَ تأته، ممرّها الحارّ، الحارق، تعلّمه، تعلّمه، لمَ بلحظة تغيب؟!

لا يذكر كم مرّ من الوقت، وهو مبحر، كم عاش، وشاف، كم لغة رطن،

كم إنذاراً أطلق. ينغمس، دربها الزلق، سنون طوال تمسح ذاكرة، وتظهر أخرى. لا يذكر ما رمى، ما احتفظ، وما اكتسب. جذعها المتماوج الطيع يقسو، من دون إنذار. أن يُرجئ، تطلب منه أن يُرجئ. لا. مهلك. تلفظه خارجها ثانية بقوّة. يكاد يفلح في الوصول، لولا بضع إخفاقات، تسبّب في إعادته إلى القارّة التي قدم منها، أو الجزيرة الأولى، أو البلد، أو الميناء، ولتقتضي منه الانطلاق من جديد، بوسيلة أخرى، وبشروط مغايرة.

وجهها القَبَلُ ثوان لم يحمل أذى الآن، أذى الآن. قضيب من الفولاذ يهمي على رأسه ليصحو بعد أشهر.

تخرج من شطّ، من شقّ جدار. صمغ أخضر، تقفز من عشّ، وتتموّد بجذع شجرة.

ينام على فخذها مضطرباً متلوياً مبتوراً، يلتفت إلى الوراء، يرى رؤوساً وأجساداً سوداً مستنجدة تظهر وتغيب، من على سطح الماء.

وهو الغريق الذي أوقف البحث عن جثته. خبرٌ مقروء في جريدة.

هل تلك البقعة جنّة، جنة سابقة نازحة بأكملها؟ وطن منسي وحده. وطن معزول عن باقي الأوطان. بلا دول مجاورة، لا علاقات أو التزامات واتفاقات ومصالح ومعونات. تخترق أذنه ضحكة المرأة، تشبه شهقة، وهي تبيّت له نيّة، يلمع أثر، خنوع اليرقات وأزيز الجدجد بين أغصان الأشجار الأبرية. تؤلمه ذكرى البقعة تلك. هل تؤلمك؟ هل هو المكان؟ ما الذي يوجعك؟ أين؟ هنا؟ تدور عيناه إلى الجدار في غرفة المعسكر، وينحدر الماء على خدّيه، الصورة المثبتة أمامه بدبّوس هي لأمّه، وجه يستقبله حين عودته في المساء. نامت في سرير على الأرض حذ سريره، وهو صغير. عزلت نفسها عن خاله. أو يحلو له، فيظنّ أنها وُجِدت لحراسته. أمّه. وإن اختطفته. حضنته، شبكت يديها بقوّة حول جسمه. رفس بقدميه بقوّة محاولا الإفلات من بين يديها. أراد العودة إلى بيته. خاله وزوجته سرقاه من كُتُبه، من غرفته. يذكر توسلاتها، أن يأكل، شكواها، نحوله. يذكر متى وكيف تكوّر جسده المنتفض، وكيف سكنت العظام في حضنها.

الكلمات أوامر. رفض خاله أن يعلّمه الكتابة والقراءة. أبعدهُ عن المدرسة. بكلمات قليلة، قليلة جداً أمرها أن تجمع كُتُبه المدرسية. أضرمت النار فيها، إلى جانب كُتُب سياسية وأدبية وتاريخية. كانت تحرّك الحطب في البرميل بين فترة وأخرى، وتعود إليهما ليتابع تلاشتهم التفرّج على

الدخان المتصاعد في الحديقة المفتوحة تحت سطوة الضوء الغارب.

قوام الذاكرة ذرور ينسحق، يُثار، يطير بنفخة حسرة، ينزل، يستقرّ أسفل السبّورة كغبار طبشور، تُطيّره الحروف.

غياب الأمّ لا يشبه صمتها. كأنه لم يهذر معها العمر كله، مستلق شبه نائم أوّل طلوع الفجر، أذنه، بينما هو نائم، تلتقط لحظة نهوضها رعشة أترفٍ ورقة عنب في التساليق، هبّات ريح ناعمة، أنفاس الثياب على حبل الغسيل. حصلت له على كلبة وجروها. البيت له أنفاسها، الأكل شهيّ من يديها، الفراش معطّر بصابونها، تحقن بيوت الأرضية بالكلوردين خلف خزانات الثياب وشقوق الجدران، الممرّات مزروعة بالورد الجوري، في صفائح الزيت حول البيت الغرف مبخرة كل خميس، النرجس في موسمه دائماً، ورق الحنّاء لتيبسه، وتسحقه، تطحن له التمر المجفّف، وتمزجه مع السكّر وحبّات السمسم المحمّص ليلتهمه، حبّة من قشرة الليمون المجفّفة، تُبعد بذورها المرّة، وتطحنها عندما يُصاب بإسهال، تدسّ جريدة مَكويّة حارّة تحت فانيلته، عندما يسعل، تقطف له نبتة دياج، تنثر وردتها زغباً ناعماً، تجمعه بدأب لتصنع منه وسادة، تفرش ورق الآس على حصيرة، تجفّفه، تكسره بيديها، تستدير إليه، صوتها حذر، تخشى غضبه، وبغبطة مفاجئة، إن لم تكن لك، فلابنك سأشتم رقبة ابنك المعروقة برائحة الآس. تكلّمه إن اجتاحه الصمت، يكلّمها إن صمتت. يدرّ الحليب برفّة هدبيها، من أذنيها، من فمها، من أطراف أصابعها، ويسيل على الحصير. الهدوء إن شعّ من عينيها! من دون أن تنظر ناحيته أنا سعيدة بك، كن سعيداً بي.

يضغط على عقدة الألم في باطن يده. يلحسها، يشقها، ويكاد ينهشها، يقطعها.

ذيول دخان في السماء وذرّات غبار ترتطم بالأرض

طُردت مريم من عملها. حرقت السجائر كلها، تؤرّقها الأسرار التي لا تعرفها. تستشعر خطراً. لا تمسّ الطعام الذي تعدّه. ترتدي معطفها، وتنزل إلى الكشك من أجل شراء علبة سجائر. ورغم كرهها للتريّض، تفكّر، علّ برودة الجوّ تخفّف من غلواء احتراقها وعصبيّتها. تحاول أن تتذكّر أحداً ما تلجأ إليه. ليس هناك من أحد. تضحك بهزء لواقع الحال. تسخر من الأسباب التي ذُكرت في كتاب طردها لديها صعوبة في العمل ضمن مجموعة، وفي التعاون ضمن فريق عمل لأداء مهمّة!

تلهمها لوحة جدارها. استشراق نمطي في الملامح. شفاه غليظة لتجعل وجهها جموحاً لافتاً لتنفخ فيه نهماً للحياة، ولا تجده يكفي. مستلقية أمام مراتها الكبيرة المسندة إلى الجدار في صالتها. تدخّن، تُلقي شعرها إلى الوراء. هذا الجسد، وإن بدا عليه الكبر، ما يزال يستحقّ أن يُعبَد، هذا العقل، وإن لم يهدأ يوماً، لا تظنّ أنه استغلّ تماماً. تُحدّث نفسها، تتأمّل حركاتها، تتدرّب، تغازل أجزاء جسدها، تلامسه بخشونة، بينما لا تبارح عينها المرآة، ولا تصل به إلى ضفّة! الروح كلّما غزبتها، زاد اشتياقها. يقينها بلمعان عينيها تصفو الروح، وأنت تسقيها العطش. الروح تجد مستقرّها في العطش. تكرّر كلام أمها.

تتصل بعامر. هل تركتْ تينا أيضاً؟ لا شأن لكِ بها. ولكني أحبّ حبّك لتينا. لأوّل مرّة أسمعها منكِ. انتظر، أ لن تأتي؟ لا أظنّ. تينا لا تعرف كيف تتذوّق الرجل مثلي.

بلا أمّ، ولا أصدقاء، ولا رجال تُدين لهم بشيء، لا عمود تتّكئ عليه، ولا جدار تتظلّل به، لا تحلم بأفضل. إنها قادرة على تقطيع أوصال الرحم وسكب الدم في المجاري، والبصق بوجه مَن يشتريها. تغادر البيت، يكتسحها مَقتٌ شديد لكلّ ما حولها. تبحث عمّا تركله بقَدَمها. تبصق مرارة فلتر السيجارة. فكرة الشمانة تلاحقها، تلقي بشعرها بحركة عصبية إلى الوراء رفضاً. تسمع وقع خطواتها عالياً على الرصيف المبتلّ. جوع ممتزج برغبة بالثأر. تتوغّل في أمكنة مظلمة، تتقفّى أثر ضوء إسفلتها. تودّ أن تصرخ لصمت هذه المدينة التي تنام مبكّراً كالدجاج. تعود إلى البيت ثانية. اللعنة. تتكوّم على الفراش بمعطفها وحذائها.

تمهّد للهروب من جديد. اهتدت منذ مدّة إلى فكرة البداوة كي تستغلّها في الترحال زهد، في الترحال إنكار للماضي وللمستقبل. إنها فكرة إكزوتيكية. تتشبّث بالبداوة كهوية، هوية الأنثى الغاوية. تحمل حقيبتها الكبيرة من الخام بحوائج الأنثى كلها، مجفّف الشعر، ومزيل العَرَق، وسروالين، وقميص نوم خفيف، وفرشة أسنان، ونعال قطني، وحبوب المنع، ومحارم صحّية. أينما حلّت، تخرخش رقبتها ويديها مثل عرّافة غجرية. لربّما تقرّر أن تبيت عند ضيف، صديق، أو تسهر حتّى الصباح في بار، أو حتّى على رصيف. رواسب تلغي رواسب. تحمل الرمال تاريخ الرُحّل، تذرّه، ولا يبقى من أثر.

تجلس في سيارتها المتعثّتة، توقد سيجارتها بعصبية، وتمضها بنهم. لا

أحد لتسأله. لا تحتفظ برقم هاتف لأحد. لا تخزّن شيئاً، زوايا البيت فارغة والخزانات والثلاجة والرفوف. تُجفّد الرسائل والفواتير والإنذارات ما إن تقرأها، ولا تستلم إعلانات ولا جرائد. على أهبة الاستعداد بعيداً للانطلاق ومواصلة البحث.

صورها المتناوبة، نازحة، فارّة، مطاردة، طالبة، غريبة، مطرودة من العمل، في خيمة للأمم المتحدة، في مدرسة، ملعب رياضي، سيارة، أو شقة، لم يُسدَّد إيجارها، وقريباً تُطرد منها... لا يهمّ!

تُطفئ محرّك السيارة توفيراً للبنزين. تعال، استند، يا رأسي، على زجاج النافذة، (أنتم، أيها الأبالسة، هيا، تعالوا). تلمّ بنظرها حدود البحيرة بأكملها، بانتظار طلوع الفجر. تلعن. تضحك بصوت عالٍ فجأة. إنها أمّها التي اعتادت أن تلعن شياطينها! ولكن كيف اهتدت إليهم؟! خلطة رديئة من عناصر إخفاق، هل ان الأوان؟! إلى أين هذه المرّة؟! يلاحقانكِ، بطلة وبطل مجهولان موهومان! تلاحقكِ بلعنتها تلك الأمّ المتعجرفة القاسية، وتتعلّلين بأبيكِ السياسي المنهزم المتردّد المشطوب بقرارين لا قرار واحد، مرّةً منها، ومرّةً منكِ. قرار كما كان واحداً، هي وأنتِ، من نبعها، من إيماءة حاجبها، من جلدها، من كل شعرة من شعرات رأسها. شطبتِ كما شطبتْ أمّكِ على غياب أبيكِ التامّ، وهو حاضر، وحين غاب. المسكين، أجفلتكِ يده الراجفة المهتزّة، وهو يناولك كوب الشاي في أوّل لقاء لك به بعد سنوات من البحث والانتظار، شهقتِ بسرّكِ لمرأى الأخت الصغرى التي لم يكن لديكِ علم بوجودها، حين برزتْ من الغرفة فجأة، فذعرتِ للشبه بينكما.

عدتِ لائذة بأمّكِ، وقد تبدّدت أحلامكِ، وهي تعرفكِ، اكتفتْ برصدكِ للاطمئنان حسب في استعادتكِ، من دون تأنيب ولا حساب على فعلتكِ.

تهربين دوماً، حتى اسمكِ (وما علّتها الهوية تغيرينها كل حين؟). أقنعتك تسقط، الواحد تلو الآخر. مهلاً مهلاً الأقنعة ليست للتخفي، هي للعب! (ومن أنتِ كي تلعبي)، تشحذين ثمن الخبز والسجائر والنبيذ، تؤجرين شقتك ليلة أو ليلتين لصديقات مستطرقات خفية مع عشاق عابرين، وتقضين الليل داخل سيارتكِ الأتتيك منتصف شباط، مُسكنة بدخانك المحبوس، ممزوج بالبنزين المتسرّب من أعضائها المخلخلة، متقرفصة من البرد والجوع؟ هل هذا هو كل ما بمقدورك فعله؟ يا لَذلّكِ وضعفكِ! هل ستحكمين النوافذ الآن؟ أم لا؟ أم تفتحين الباب كي تتقيئي؟ ما هذه العتمة وهذا الصمت؟ هل ستظلّين تحفرين بظفركِ عميقاً بحثاً عن

عين لذّة موجعة!

الكوابيس تملأ ليل مريم ونهارها. تمرض. لا تتصل بأحد، ولكنّ بابها يُطرق. دقّاته منذرة. تنهض بجهد لتنظر من ثقب الباب. لم يكن غير عامر. تفتح. يرفع شعرها بعيداً عن وجهها، يده تحيط كتفيها. صورة غريقة انتُشلت من بحر، يسحبها للفراش، يساعدها في نضو ملابسها، تأخذ الحبّة من يديه، وتشرب الماء من القدح، يدثّرها على الأريكة، يلمّ أشياءها المبعثرة، ويطفئ الضوء. يمدّ له فراشاً على الأرض، ويستلقي.

صوت مريم يصله من بعيد. تعال، اصعد. لا يجيب. تسأله بصوت واهن، هل رأى تينا مؤخراً؟ وما هي ثوان حتّى سمع شخيرها. بعدد أصابعه الأيّام التي ابتسمت له تينا، المرّات التي قصّت له حكاياتها الخرافية. بعدد أصابعه الأيّام التي تركته ينام لصقها هانئاً حتّى الصباح. علّمته الكتابة والقراءة، وانسجما لبعض الوقت، ولكنّ كمثل لغتها، فالمكتوب غير المنطوق. كان عامر يرقب تينا بحذر. ذات يوم، أخذت حمّامها، العاشر ربّما، ومشّطت شعرها الأشقر ضفيرتين، يقطر الماء من ذيليهما. صاحية هادئة متمددة على الأريكة، تتصفّح قصّتها. قالت له إنها ستحكي له قصّة (تخيفه فتحة عينيها، ويكتم استغرابه). إنها قصّة تشبه قصّة أمّها التي تعتاش على كرهها لأطفالها. أمّ القطط الريفية في تنقّلها من مكان لآخر، ما إن تلفظ جوقة من رحمها حتّى تضعها، يوماً بعد يوم، الواحد بعد الآخر. أمّهات ينصرفن عن صغارهنّ ليمارسن بؤسهنّ براحة. أمّهات بطونهنّ مأوى للكره، تسعة شهور بعد أخرى. تتوقّف عن الحديث (يخشى عامر أن تنفجر بالبكاء)، يتوقف عند نظرتها التي أشبعتها يأساً، لم تطرف، وهي تصف له أمّها لأوّل مرّة. ولكنّ هل هذا هو كلّ ما عاشته؟ (يودّ صدقاً لو تُنصت إليه، وتُطلعه على قصّتها ليفهم).ولكنها لا تثق به. قالتها له، إنها لم تعد تثق بوعوده. إنه يظهر، ويغيب. أشاحت بوجهها عنه، وانقلبت ليكون وجهها بوجه مسند الأريكة. قالت بصوت منزعج مخنوق بالمفرش إنها تكرهه.

ظلّ يفكّر كيف يجمعها، تينا، كيف يلقمها ليحفظها في مكان آمن، لحين عثوره على دثار يقيها من مقتها، نوع نابت عنيد، جذر ضاز لا يموت إلا

بحرق الأرض التي تحمله. (عَظلُها يعرف ما يفعل، ماض بطريقه، لا يمكن إيقافه). ظلّ كالطير الخَاطِفُ ظِلّه. محوّط بعالم من الألغاز. يحاول قراءة وجهها، وهي منشغلة عنه. عندما تكون راضية عنه، حينها فقط يشعر أن لديه بعض الوقت ليفكّر قبل أن تتلخبط أفكاره.

في مرّة أخرى، بدأ الدرس، فقرأتْ له كتاباً مصوّراً للأطفال، كان ذلك في ليلة مبيته الثانية عندها، كانت حروف الكتاب كبيرة بألوان زاهية فوق المحتمل. تركت الكتاب جانباً، فهي تعرف كل ما فيه. استعارتْهُ من أجله. منفعلة، تحكي له عن أمّهات يأكلنَ صغارهنّ. ربّما بسبب الجوع، أو يكون لقلقهنّ وشدّة عصبيتهنّ بعد الولادة، وأحياناً لدرجة الحرص والخوف على صغارهنّ. يبدو على تينا الحماس، تلفيه منصتاً مهتماً. مستلقية فتنهض، تجلس متّكئة وسط الصوفا، تفرد ساقيها ليتسع المكان لبطنها الذي يوشك أن ينفجر بجلده المشدود، تسأله هل اقتنعتْ؟ يوافقها مرتبكاً، لكنه لا يستطيع أن يخفي استغرابه (بطنها). قال إنها معلومات مفاجئة، صدرت الكلمة منه بحذر. يعني كيف مفاجئة؟مفاجئ سماع أن الكثير من الأمّهات من الحيوانات تقوم بذلك، عقارب ونمور وأرانب وهامستر وكلاب بحر. هناك بالضرورة خَلَل ما في تلك الحيوانات، فالغالبية ليست هكذا. (هيا، جِدِي لنا موضوعاً آخر). حيّرته نظرة الاستياء في عينيها، فراح يبحث عن مخرج. أعني الأمّ أمّ، يا تينا. لا، ليست كل أمّ هي أمٌّ، بالضرورة. لا تكن ساذجاً، فأخافه صوتها، وكأنه يخرج من حنجرة أخرى، وهي تكمل، أنت لا تفهم شيئاً، والحيوانات تمرّ بكآبة أيضاً، وتتعاطى دواءً ضدّ ذلك مثلنا (ستضحك مريم، وتهزأ به).

اسمعني. وضعتْ يدها على كتفه. حرص ألا يتحرّك عضو فيه، ألا يرفّ له جفن، وهو منصت. ألّا يسرق نظرة من بطنها الحنون أكثر منها. ألّا تربكه رائحة الصابون الممتزجة برائحة ممرّها منبعثة بحدّة من سروالها. صوتها يقينياً تغيّر، وكأنها ستأتي بالأهمّ. هناك بالمقابل صغار يقتلون أمّهاتهم. عناكب تلدهم الأمّ ليبدؤوا حياتهم، بينما يبدأ العدّ التنازلي لحياتها. هي عناكب رَضَع، تقوم بلدغ الأمّ ما إن تلدها، إصبعها يضغط على الرسمة في الكتاب، ومهما حاولت الأمّ تلافي ذلك، لن تنجح، سمُّ لدغات الصغار يدخل من كل مكان، ويدور، ويدور ليُذيب أحشاء الأمّ من الداخل، ببطء، ببطء، يشرع أطفالها بامتصاصها سائلاً، على مهل، يفرغ جوفها، جوفها حليبهم، ببطء، تودّعهم، وهي ترقبهم يمتضونها ليكبروا، غلاف كامل فارغ، قليلاً قليلاً حتى تموت، ولا يتخلّف منها إلا قشرتها الخاوية. لم يحتمل عامر

نبرة التأثر في صوتها. اختنق، وهي تسأله بمحاسبة إن كان قد سمع هكذا قصّة من قبل؟ ترجّاها ألا تحصر تفكيرها في هذه المواضيع، وهو يشير إلى بطنها، فسرحت بعيداً عنه.

فزّ عامر فجأة من نومته على الأرض حذو الأريكة. ارتفعت حرارة مريم من جديد، فأخذت بالهذيان. عرفوا عنواني، كما أخبرتك على الهاتف، لقد تركتُ لك خبراً في هاتفك، لِمَ لمْ تأتِ؟!لمَ اختفيتَ؟! أين اختفيتَ؟! هل خفتَ على نفسك؟! يا لجبنك. ظننتُك ستحضر. مريم، اشربي الماء، نامي الآن. أنتَ تعرف أني لا أحبّ النوم معكَ تحت الضوء من دون غطاء. أششش، نامي. لا تذهبْ، تعرف أنهم في طريقهم للوصول إلى هنا، اتّصلوا بي. إشش. لن أبقى هنا، سأهرب. نامي، إنها الحمّى، يا مريم. إنهم يهدّدونني. سيقتلونني، صدّقني. عامر، لا توقد الضوء، لا تغادر. أنا هنا، معكِ، هيّا، نامي.

(أرقبكِ من فوق. ستنتهين بتسديدة قنّاص، لم يخطئ يوماً. إنهم يحاصرونكِ إذ حان انتقامهم. أرى النار، ستلتهمكِ. ما نفعكِ هنا، أيّتها البائسة الضعيفة. أنا مختبركِ. أرى كل شيء عبر كاميرا مثبّتة لمتابعة حيوان، حيوان يرتعد من الخوف، ينزف، أشهد، ولا يحقّ لي التدخّل. إنها الطبيعة، وأنا صداعكِ المستديم، أيّتها الفأرة).

تعال، تفضّل، ادخل، يا عامر، لا تقف عند الباب، أنا بخير، أعرف ما قيلَ لك عني، هل صدقتَ كل ما قيل لك؟! هل جئتَ لتحذّرني؟! أم تودّعني؟! كنتُ آمل أن تكون مباشراً معي. هؤلاء الذين ملؤوا رأسك بالأكاذيب مرضى، كلّهم جبناء، وأنتَ واحد منهم، هل تعلم أني نمتُ مع البائع الجوّال الذي حذرّك مني، اليساري الذي صار صديقك بعد المشادة إياها في المعسكر؟! لكنْ لكنْ أنا التي اخترته، وليس هو، دعني أتخيّل الصورة التي نقلها إليك عن نفسه، تعال، تعال، ادخل، لا تقف كالأبله هكذا أمامي، لنذبحها على قبلة، ولننته من بعضنا، لا أحبّ تهرّب نظراتكِ هذه. سأحكي لك القصة بأكملها. ولتسمعي أنتِ، أنا صوتي العالي، أنا صوتكِ العالي، دور قصير في فلم أمريكي طويل سيناريو مختصر لفصل في حياتي. اتّصلوا من أقصى بقاع العالم معلنين مجيئهم. لا محال وجدوني، حصلوا على رَقْم هاتفي عبر سَفَلَة من أشباههم. هبط المساء. قبضتُ يداي على المقود بقوّة. قدمي على دوّاسة السرعة، أقود السيارة لأمسح كل أثر للخوف في داخلي. ها هم يأتون لي بأنفسهم هذه المرّة. الفكرة تتسابق مع مؤشّر السرعة. أنتَ تدري اللعب الخطر لي. هل يمكن لي أن أبلغ الذروة إذاً؟! أعبر العمارات والإعلانات الملوّنة، وأجتاز الإشارات. تخيّلني نجمة سينمائية، أجلس خلف المقود، في أبهى حلّة لكي أتمكّن من التصدّي للتتانة. في الصورة الأكثر إغراءً وإرضاءً لغروري. كنتُ طالبة فقيرة حين اصطادني أوّل مرّة. كان له ولعصابته سلطة، لا يقف أمامها أحد. اندسّوا لكشف الهاربين والمعارضين، ومنذ ذلك الحين، لم يتركوني وشأني. لم يستلم مني غير ما سمحتُ أنا بمنحي إياه بنفسي. قصدتُ الفندق لأقابله، أرّقني باتّصالاته وتهديداته، واتّفقنا على موعد. آخر السادة، وما تلفظه بقايا الأنظمة والسفارات المغلوقة، ومَن أشعل الدولارات من فئة المئات ليوقد لي سجائري. هل سمعتني؟! كل ما تبقى لهم خواء ولغو جرائد وتهديد أبواق وبضعة دولارات. يظنّوني خائفة. يهدّدونني بأمي. أدوس العتبة الحمراء بكعبي العالي الرفيع دخولاً إلى بهو الفندق الفخم بحثاً عنه. ضحكتُ، وارتخيتُ، وزالت حرارتي في فضاء الخمس نجوم الدافئ الهامس، رفعنا معاً أنخاباً لا تُحصى برفقة قنّينة الشامبانيا أوّلاً، والمساء

في أوّله، (نخب العثور عليها، نخب ليل البلاد الأسود، نخب أولاده، نخب زوجته، نخب سيّده، القائد، نخب فستانها، نخب الناهد التي أمامه، نخب الوشم أسفل ظهرها، يتحرّق ليراه ثانية، نخب اليوم الأوّل في منفاها الأوّل، "هل تذكرين؟". نخب الزمر والملاحقات والتقارير، من بلد إلى بلد، نخب ضبّات الدولارات في الحقائب المسافرة، ذوي القربى والمحتاجين، الجوازات كالدفاتر والفيزات....).

أقول له نخب السيّدة التي ساومني عليها. (الأمّ لا تصدّق ابنتها)، كانوا سيقضون عليها. يقترب مني على الكرسي العالي عند البار في الزاوية خافتة الإضاءة، بشَعره المصفّف وشواربه وحذائه اللامع وأظفاره النظيفة المقلّمة، والقلم الذهبي الذي يبرز من جيب سترته، وجلد الساعة الليّن على رسغه، وأزرار الكمّ الفضّيّة التي تطرق زجاج سطح البار. يترك لي ممارسة أجمل هواياتي، فأختار نبيذاً أحمر فاخراً، أجعله يشرب، يشرب، ويشرب ارتباكاً وتلعثماً وعجزاً، يعرض عليّ بلسان ثقيل هدية مقابل ليلة، حقيبة ملآى بالدولارات. حسبة سريعة خير من العودة مهزوماً. الفلم على وشك الانتهاء، وحان دوري للانتقام، ليس لأهل لم أرهم، لآباء وأمّهات وأطفال قُتلوا مثل الدجاج، ليس الحصار والاتفاقيات حول الدواء والغذاء والنفط، بل إنهاءً للعبة. انتهت اللعبة بسحق كعب حذائي لفخذه، ولفأره الميت تحت البنطلون، تهديد فضحي بتهديداتي بفضحه، إن بقي في البلد يوماً إضافياً. انتهوا، وتلك الصغيرة التي تنزلق دون أن تعي ما تفعله بنفسها، كنتُ أعيدها إليّ في كل رشفة، لذكرى تهوّر لم أفهمه، وبطولة توهّمتُها فيّ، (وبراءة لن تعود). نِزالي وحدي معه، إنها حلبة الموت والحياة، وأنا مَن غرز الرمح الأوّل، مشيتُ، وتركتُ الثور للمساعدين. ثأراً لها ولأبالستي الصغار، لها هي، تلك الأمّ التي يقول ويحه إنها تبرأت من ابنتها. أضرب باب السيّارة بما عندي من قوّة، وأبكي فرحاً في طريق عودتي.

المطر لم ينقطع، والليل حالك جداً، ومسّاحات الزجاج أمامي على إيقاع أفكاري، قدمي تضغط أكثر، ومؤشّر السرعة يتجاوز الحدّ المسموح بكثير، والخيارات قليلة من خلف المقود! تملّكني الخوف، وشعرتُ أني وحيدة مثل طفل في عتمة، ينادي على أمّه، لكنها، تخيّلْ، شتمتني في آخر مكالمة لها. لعنتِ اليومَ الذي ولدَتْني فيه، والبطنَ الذي حملتْني. لو أنها أمّ فقط، أمّ عادية، لو كانت أمّاً مثل باقي الأمّهات. (مَن تغرز سكّينها في قلب أبنائها). رددتُ لها الصاع صاعين من السباب، قاطعتُها، ويلها، مَن تظنّ نفسها؟! ما هذا الكبرياء؟! ما الذي يُبقيها امرأة عنيدة، توزّع الأخلاق يميناً

ويساراً، ولكنها لا تحيد؟! كيف يظلّ الإنسان ذاته؟! ما الذي لا يعجبها فيّ؟! لِمَ لم تحبّني؟! لم ترضَ يوماً عني؟ هل أمسح آثاري من الوجود لتغفرَ لنفسها ذنب مجيئي للكون! (حذار، لا تظنّ أن مريم تُشكيك ظُلمَها، أو أنها تبكيها، لا، كل الألم والغضب والخوف يجعل المزيد منه هدفاً).

كان بار الفندق فارغاً، دفعتُه بقصد توديعه، فسقطَ من على كرسيه العالي لحماً رخواً، تكوّم في مكانه على السجّادة، فزّاعة زرع تهالكت تحت المطر والريح، بصقتُ عليه، وأفرغتُ بقايا نبيذ كأسه على رأسه في الظلمة. التفتُّ إليه عند خروجي من الفندق، الإضاءة خافتة عدا المكان الذي يسقط منه ضوء سبوت لايت ليكشف عنه، مكومٌ في مكانه على الأرض بلا حراك، بالنبيذ الأحمر المدلوق على جانب وجهه، على بدلته، على صدر قميصه الأبيض، وعلى ربطة عنقه.

وأنتَ، يا عامر، فكرة الاغتصاب لا تستهويني إلا معك. أنا لا أرغبك، إنما أستلذّ بلمس عطلك حسب، طفل حمل كاذب، أستلذُّ بعجزك حين أحضن نصفك متلبّساً به. أترطّب حين تثبته لي، وتبلغ النشوة لديّ ذروتها. بوجهك الأصفر الناشف تجلب لي الشؤم مضاعفاً، (هل تلوّثتُ كفاية؟ أم بعد؟). أنا بلا رجل، بلا طفل، لا بلد، لا مادّة، لا عمل، ولا رضى الوالدين. وهؤلاء الذين تعرفهم من حولك، أو لا تعرفهم، فهم جبناء مثلك، لا يملكون غير الكلام، يُخفون ضعفهم هنا، ويتحامون بأوراق لجوئهم، وسطوة مانحيه. كم أكرههم. أكره نفاقهم، ادّعاءاتهم، يساريّتهم المزعومة، البغاوية الزائفة بما يتفوّهون به، وازدواجيّتهم التي حملوها معهم من بلادهم، يُغلّفونها بتعاليهم الفارغ، باحتمائهم بكلمة ثقافة (يُصدرون كُتُباً، ويُقيمون ندوات، ويجمعون تواقيع). فضحتُهم جميعاً، كل شيء مزيّف من حولي. يُثيرون القيء، لا غير. ظننتُك شيئاً أصيلاً حقيقياً بدائياً، لا يتلوّث. اشتهيتُ آخر فيك. آخرَ آت من صحراء مفتوحة نقية، أو زرعة بستان نظيفة ترفة، لم تكبر. أجل، يئستُ من سلسلة محاولاتي. لا خطّة للإيقاع بنفسي، الوحش الذي بداخلي مات، لا خطّة للإيقاع بأحد إذ لا أحد! هل تفهم؟! شجرة هرمة لا تملك الآن إلا وقوفها. لا، انتظر، اسألني هل نقيتِ نفسكِ كفاية؟أم بعد؟ اسألني هل ازددتِ نصاعة، حبيبتي؟ هل تملكين جناحي ملاك؟ هيا، اسأل، قل لي الآن ما الذي تريده من زيارتك هذه؟ أنتَ مريض، حبيبي، أعرفك، رأسك يتعب لأدنى جدّيّة في حديث، تُثير شفقتي، جِد لك دواءً، حياتك مثل مماتك، اذهبْ، وافعلْ شيئاً من أجل حياتك، عُد إلى هناك، اِبنِ لك كوخاً وسط بستانك الذي تحكي عنه. دعني الآن، أريد أن أنام.

لا، لا. لا تلمسني، اطمئن، اخرج، أرجوك، وأغلقِ البابَ خلفك، من فضلك.

تينا هي الوحيدة التي نظرتْ إليه، كما لم ينظر آخر إليه. نادتْه عيناها. انتظرتْه في أوّل لقاء عند مدخل المطعم القميء، حتّى انتهى من عمله. ارتدتْ الجينز الأسود المشقّق عند الركبتين وأعلى الفخذين، والسويتر القطني العريض ذي غطاء الرأس المتدلّي على ظهرها. كان الثلج يهمي مع المطر، فطلبتْ منه مرافقتها إلى شقّتها. مترددة، عند الباب، وهي تنظر إلى حذائها الرياضي البالي. شبه خائفة منه. (طلب منها في سرّه ألا تعير شعرها الأسود أيما اهتمام أو مبعث للتفرقة، وأن تنسى ركاكة لغته المزعجة). أطرافها ناعمة، قدمها على الأرض بحركة بندول. أنصاف دوائر تتراكب فوق بعضها، وتنسحق، تتلاشى، وهي تعده أن تدعوه للدخول يوماً، أن تعطيه دروساً في اللغة، وأن تقرأ له قصصاً، وسيتعلّم اللغة.

كان ينام عند صديق أيّام نزوله من المعسكر للعمل في المحلّ ذاته. (في العمل مخالفة للقانون، استغلها صاحب المطعم لصالحه). العودة آخر الليل إلى المعسكر مستحيلة. المحلّ فرن ساخن، والصديق كان يضايقه بحديثه، فيفز أحياناً لينام على مصطبة فوق الرصيف، قريباً من محلّ سكنها.

لكنه لم يفهم ما تريده منه. تريده أم لا. تغبّ منها، غضب من نفسه. تواصلهما مُرهق. قاطعها طويلاً جداً. لم يمزّ بها لفترة. لم يتّصل. وكثرتْ بمجيء الطفلة ألغازُها. كانت تشك على الدوام في فَهْمه لما تقول. ليس كل الأمّهات أمّهات مثار خلاف، والأمّ أمّ محاولة اغتيال منه. (اكتشفتْ بحراً من البديهيات لديه أفزعها). لا يفهم، ولكن وجوده مرهون بابتسامتها، بحاجتها إليه. تتكوّر في حضنه، شعر منثور، جسم ناعم منهك. يقتنص عامر الفرصة ليعاود المحاولة، التعرّف على رائحتها بغفلة منها. يدسّ أنفه حذراً في شعرها، يمسك بطرف خصلة من شعرها ليشفها، يتردد في تقبيلها (حيرتْه قطعة الحَلَق المعدنية الصغيرة في لسانها، في أوّل مزة). إنها تحبّه، لكنها لا تطمئن له، تتضايق من وجوده قريباً منها في بيتها، ولا تستطيع أن ترتخي (كيف وكلّ ما يحيطها من أخبار عن أشباهه في الصحف والمجلات والتلفزيون).

كان الموقف ذاته يتكرّر كل مرّة. أن تقبل عليه بلهفة، ثمّ تنسحب دون كلمة في اللحظة التالية، مُديرة له ظهرها على الصوفا، أو تضغط زرّ الريموت كونترول متكوّرة مبحلقة في الشاشة، متعفدة إنكار وجوده. يحاول كَتْمَ غيظه لثوانٍ، لكنه ينهض، وينفجر بوجهها مستنكراً طريقتها. ببرود وأقصى انزعاج من هيئته تسأله وما الذي تريده؟! لا أظنكِ تحبّيني.لا، لا أظنّ. يقترب ليحضنها، فتجفل. يتناول قدح الماء، ويرميه بهيستيريا على الجدار لكي يصيبها الهلع، وتصرخ به إنها تكره رائحة جسده، تكره لكنته ولون شعره، هو يُخيفها، وهي لا تطمئنّ إليه. (اخرج، وإلا اتّصلتُ بالشرطة).

اختفى بطن تينا. بفعل ساحر التصق جلد البطن بالظهر، ولم يعد هناك من أثر. حاول بعد موت الطفلة ألا يتكرّر ما فات بينهما. ألا ينفعل، يتركها لتهدأ، لساعة أو ساعتين، وأحيانا حتى يحلّ المساء. يترك الأضواء مطفأة، والصالة تسبح في عتمة، قبل أن تعاود رغبتها في الحديث.

عامر، هل ما تزال هنا؟ لا تشعر تينا بمكانه قربها على الأريكة. صوتها مرتجف. نحن نموت، إن لم نحصل على أجوبة لأسئلتنا. أية أسئلة؟ لماذا؟ لماذا ماذا؟ لماذا تكون أنتَ من بين آلاف البشر؟! لماذا أنا؟! لماذا أحبّكِ؟! ليس هذا، أعني قصّتَك وقصّتي. قولي لي، وما هي قصّتُكِ؟ متى سأعرفها؟ (قصّتها أنها لا تعرف ذنبها، ولكنها مُذنبة إلى الأبد، هو كل ما يعرفه). ولكني عنيتُ لماذا هي، الصغيرة؟! لماذا تموت هي؟! لا ذنب لكِ في موتها، يا حبيبتي. بلى. لا. الظلمة تجعل الأذن مرهفة، تلتقط الحروف بوضوح. هل تعتقد، بسبب خوفي منها ربّما؟ هل أخفتها؟ لقد كرهتُها. هل سمعتْ ما دار في رأسي، هل رأتْ جسدي من الداخل؟ هل ذاقته؟ طعمه مُرّ، وسخ، مُنفر. تعتري عامر رجفة لطريقة نطقها المنفعلة، ولحن الكلمات. مَن كان والدها؟ قلتُ لكَ من قبلُ لا أريد الحديث عن هذا.

ليس مهماً. يقاوم عامر رغبة عنيفة بمغادرة المكان، ولكنه مكبّل محاصر بفارق السنّ بينهما، ورجفتها.

عامر. نعم. هل تعرف قصّة البنت ذات الحذاء الأحمر؟لا. أعرف ليلى ذات الرداء الأحمر. يحاول عامر أن يضحك ليفتح كوّة في الظلمة التي حوطتهما، وخنقته. إنها قصّة مرعبة، سمعتُها في طفولتي، كوابيسي منها، بسببها. فتاة ارتكبت ذنوباً كبيرة، فعاقبوها بحذاء أحمر، جعلها ترقص من دون توقّف حتى هلكتْ، وأهلكتْ مَن هم من حولها. قرّروا أخيراً أن

يقطعوا قدميها، وماتت بعدها. قالوا لأنها لم تسمع كلام الله، كنتُ مذعورة أشدّ الذعر، بسبب ذلك.

مسكينة، ولكن هذه ليست قصة للأطفال (حذار، راعِ مشاعرها، واترك ريفيتك جانباً). اطمئني، لن تدخل بالضرورة النار. لا، ارتاحت، فالجحيم على الأرض، لا السماء. أتخيلها تبتسم، لكن هل تعرف، يا عامر، أني أجدها في مكان آخر، غير الجنة أو النار، في مكان، تنتمي إليه، في كوكب ما غريب عنا. هل تتخيل أن هناك عالماً آخر، يتحكّم بنا، ربّما هو أنسب لنا من هذا، أناسٌ لهم طاقات خيالية، وعقول فذّة، لماذا نكون نحن بهذه العزلة مثلاً، بهذه القسوة؟! لماذا لا قدرة لدينا على إنقاذ أنفسنا؟! تينا ستوجعين رأسك، حبيبتي. ولكن هناك عوالم، لا نعرفها، ربّما أكثر مناسبة لنا من هذا الموجود، وأنتَ قلتَ ذلك بنفسك، وأنا فكّرتُ بعد مغادرتك، لديك حقّ، سنموتُ إن لم نحصل على أجوبة. (ما الذي قاله لا يذكر). يبحث عامر عنها، فلا يجدها، يتعب، تينا مثل نيزك، يحتاج إلى مكان معتم كي يراه، ويحتاج لوقت يستعيد فيه أنفاسه ليدرك ما تودّ قوله. لا شيء، لا شيء بين يديه غير رماد.

قلتُ لك إن رماد الكُتُب وصفوه تلالاً، على السفح والأرض أطراف صفحات أثيرة لهم مفا تبقّى، أغلفة عنيدة خطرة أجهزوا عليها بالنفط والبنزين ولم تستسلم. أكوامٌ أكلت حطب العالم، ولم تحترق، وأكوامٌ دُفنت تحت الأرض في صفائح وأكوام، غيّروا عناوينها، وهُرّبت، وأخرى نُسخَت. ولكنه أخبرها أنه لا يقرأ، صح؟ كُتُبي المدرسية يا تينا من بينها، بين المصاحف والأناجيل والمخطوطات وكُتُب السياسة والاقتصاد التي أحرقتْ. الصور الملوّنة والكراريس هو أوّل ما التهمته ألسنة النار. اختلطتْ كُتُب الأدب بدفاتر الحساب، وأقي تمزع بيدين قويتين الأغلفة العنيدة الجبّارة، تنهمك في ذلك، ترصد الطريق بعين متوجّسة، وبيدٍ تقلّب الأوراق بعصا، وأخرى تغذّي النار. كنتُ جالسا على مبعدة، قريباً من خالي، ألمحه بجانب عيني، وهو يفتل حاجبه، ويشرف على العملية بصمت. أشبه بحفلة شواء عظمى لثلاثة. ولكن لماذا الكُتُب؟! لماذا حرقتُم الكُتُب؟! تينا...(كيف لا تعرفين بربّك سبباً واحداً لحرق الكُتُب؟).

تيبّس جسد تينا المتقرفصة، ولم يعد بمقدورها أن تقف دون تقوّس ملحوظ في ظهرها. انتظرت بشدّة أن تطلع من قرف هذا الجسد، وبأسرع وقت. ستتعافين (وهو يفكّر بالهروب). لن يفهمها. هذا الجسد ليس لي، تقول له، جسم غريب، أنا محبوسة في، أريد تسليمه إليهم. هناك سرٌّ ما،

هناك مَن يطالب به. أنتَ أخبرتَني، هل تذكر؟! لماذا انتحر معلّمك جاحظ العينين في غرفته؟! لأن زوجته والأطفال كانوا في الصالة يشاهدون التلفزيون. ولماذا لم يفعلها في المدرسة، أو في مكان ما خارج البيت؟ لأن العيون متربّصة. ليست هناك أماكن في المدينة لا تقع العين عليها.

هل رأيتَه؟لا، هل جننتِ؟ انزلقتُ مع الجمع إلى الداخل لأرى ما حصل، وهربتُ عندما رأيتُ الدم المتناثر مع مخّه على الحائط، بقيتْ صورة واحدة تلازمني، عيناه الكبيرتان جداً تتدحرجان في الصفّ أمامي على الأرض. (لفترة قريبة لم يكن يذكر شيئاً!). هل كان مسدّساً؟ لا، كانت بندقية، انتحر في اليوم الذي سلّموه فيه زيّ الجيش الشعبي والبندقية والطلقات، لقد جنّدوه. لماذا؟ اندلعت الحرب ولم يكن الجيش النظامي كافياً.

حلّ صمت، بينما كانت تينا تدور برأسها مثل قطّة، وكأنها تودّ أن تحجم عن السؤال، وليست قادرة أيضاً. هل انتحر، بسبب ذلك؟ لا نعرف مَن المُلام، تكتّم الكلّ على الخبر، لم يكن شديداً مثل باقي المدرّسين في المدرسة، ولكنه عبوس وصامت. الآن أتذكّره حزيناً. تينا، لماذا كلّ هذه الأسئلة؟!

تشيح تينا بوجهها عنه بعيداً لفترة، خالها طويلة قبل أن تنهض من مكانها، وبنبرة خافتة تقول: لأن الحزن يجب أن يعرف مكانه الصحيح. وتُكمل، وهي تفرد شرشف الأريكة الكبير على أرضية الصالة الخشبية، وتشرع تُلقي أشيائها المتناثرة فيه.

- ألم أقل لكَ؟ الانتحار له أسبابه.... ليس الانتحار جبناً دائماً. وهي تعقد شرشفها مثل صرّةٍ.

تدخل الممرّضة عليه لتزوره في غرفته في المعسكر. أبلغوها عن صمته وعزوفه عن الخروج من الغرفة. رفعت حاجبيها بوجه مبتسم للّخيةِ التي أطلقها، ولشَعره الطويل. تجلس على طرف سريره، وتمنعه عندما يهمّ بالجلوس.

إنك على الأقلّ معافى، لك يدان وقدمان، وعينان تُبصران، وأنا قد جبتُ معسكرات العالم، يا عزيزي، خدمتُ في الأديرة، وأقمتُ في مستشفيات متنقّلة. عالجتُ عسكريين ومدنيين، ساعدت في بتر أطراف، وأغلقت عيون أطفال، رأيتُ الأهوال. جِد لك كنيسةً، أو مسجداً، كنيساً، أو معبداً، وصلّ. أنتَ بحاجة إلى جدران، تعيد إليك السكينة. أنت بحاجة إلى رحم، يا صغيري، إلى بطن. أ لم تحصل على جواب بعد؟! (الانتظار زاد من علله). تسحب لها كرسياً. تُدنيه منه. هيّا، اصعد بجذعك، حاول أن ترفع رأسك قليلاً. أغلقْ عينيك، وأبحِز في دواخلك، ستجده يعينك في أن تجدها. مَن هي؟ أغلقْ عينيك، وانظر عميقاً في داخلك، وستجدها. ولكنْ مَن هي؟تسحب كرسيها لتدنو أكثر منه. يغمض عينيه، ويسمع صوته يدمدم بكلمات. ما قيمة أن أفقد ذاكرة سنوات من عمري؟! الممرّضة وكأنها لقّنته ذلك لتعلّل بالحال أنها الوحدة، يا حبيبي، الغربة أشدّ وطأة عندما تكون وحيداً. أنا أيضاً مثلك غريبة. وما فداحة ذلك، أن أسير في ذات الطريق؟! ماذا؟ أيّ طريق تقصد؟ لا شيء. لا شيء.

غير أنه يشعر بهذا اللاشيء كجسم صقيل أملس بارد صمّ. جسمه يتحوّل إلى كتلة لحمية ميتة، لا يشعر بها. وإن غرزوا فيها سكاكينهم. لا يستطيع أن يجد له مستقراً في مكان، أو عند أحد. يخاف أن يخيّب أمل القريب منه، كلّما دنا أكثر. تمسك يديه بيدين باردتين خشبيتين يابستين، وأنفاسها تلفحه: دعنا نُصلّي، يا بني.

رحمك الطبيعةُ، الطبيعة إلهةٌ حنونة، ربما أسقطتْ عنك الجزء الأثقل والأشدّ عتمة، رحمتْكِ، أيتها الأم. رحمتْكِ قطرات المطر. رأفتاكِ به، أيتها الكبيرة.

يغمض عينيه، ويغوص في داخله. لا صورة لأمّه، ولا صورة لأبيه في رأسه! تضغط على يديه ليواصل في غوره أعمق. يسمعها تُبسبس بلغة أخرى. ينحدر دمعه إلى الجانبين حازاً. كان في سنّ العاشرة، نحيلاً عليلاً. رآهما يدخلان غرفته. حرارته مرتفعة حدّ القدرة على الطيران. يقف خاله عند رأسه مرتدياً دشداشة زرقاء غامقة، بينما هو ممدّد مطبق الجفنين مستلقٍ في سريره. والصوت بدا ثخيناً ناهياً. اسمغ، أنتَ تكبر، وعليك بما هو قادم، سيكون أهمّ، لا تخفْ، سنكون لك. بينما جلست زوجة الخال عند حافة سريره، تعصر كتفه بيد، وتمسّد بالأخرى جبهته، ودموعها تنحدر. أعطني إيّاه، أنتَ مخنوق به، يا ولدي، اترك ماضيك لي، حبيبي، اتركه لي، هيّا، ثقْ بي، أنا مَن سيحفظه لك حتّى تكبر، هيّا، أعطني إيّاه ريثما تكبر، وتستلمه مني. كان واهناً جداً، رأى خاله، وهو ينحني صوبه ليعينها، لم يمانع، أو يوافق. استسلمَ حسب. أحسّ بهما يسحبان شيئاً بألم حادّ من جسده، مثل خيط معدني رفيع جداً، وطويل، يُستلّ ببطء، شيء حارق، يُسحَب عبر لحمه، وغادرا.

لخيانة الذاكرة رائحة حزيفة فاضحة، يحاول أن يُخفيها كي لا تنتشر. الوفاء كلمة أكثر قسوة، وُجدت منذ البدء في قاموسه، مفروضة عليه، ولكنه يجهل التعاطي معها، لمَن يكون وفياً؟! لبقعة الأرض تلك؟ للملجأ؟ لأمّ وأب، لا يذكرهما؟ لامرأة النهر، تنزل من السماء، وتصعد؟ لأصدقاء ومعارف على مرّ الطريق إلى هنا؟ تينا؟ مريم؟ لهذه الأرض التي لم تألف خطوته بعد؟ زوجة خاله؟ أمّه؟ أبيه؟ خاله؟ مَن؟

اقتربا أخيراً من بعضهما. مريم وعامر، لقاؤهما جاء بالصدفة بعد سنوات. وقفا قريبين من بعضهما قبل أن يتحاضنا في صالة الانتظار، في مطار بلدٍ ثالثٍ غريب.

لم تكن محطة قطار، كما ظنّ عامر الذي ينسى للحظة المكان الذي هو فيه. ولم تسحب مريم من خلفها حقيبة سفر، كانت تجرّ بدلاً عن ذلك مرآة عملاقة مثل صليب، يزن طناً. اختارا أقرب مقهى، وأسرعت مريم رامية أوراقها على الطاولة. بطاقة سفر وجواز ومجلّة سياحية باذخة الطباعة. تضع المرآة جانباً، وتختار مقعداً، من ضمن صفّ طويل من مقاعد جلدية، بلون الكونياك. شفتاها تبحثان بإلحاح عن شيء، تُطبقان عليه، كما أصابعها. ترمي خصلات شعرها إلى الوراء، تخلع نظّارة عينيها الشمسية السوداء الضخمة التي غطت نصف وجهها لتتأمّل لائحة رحلات الإقلاع.

محض امرأة مسافرة، تواصل طريقها، وتلتقط ما تراه يستحقّ الذكرى لتزركش به عربتها المتهادية المهتزّة. يا لظرْفها الوعرة، كانت كلّما تثنّت ومالت، تساقط الزهر، وانعقد الثمر في ثوبها رغبة. وطأت خرائط بلا دليل، سوى خمرٍ بطعم الأرض، استوقفها طويلاً كل مرّة. أطاح الطريق بجمالها، وورثت القيادة مثل أمّ عجرية بثوبها الأوحد، ولونه الحائل، وجيبه المثقوب. لا رنّة في مشيتها، لا جناحان يغذّيان تحليقها العالي، ولا عشبة تستقرّ في شقّ صدرها العامر.

يأتي عامر بالقهوة، ويجلس لصقها. تميل برأسها ليتكىء إلى رأسه، وهما ممسكان بكوبين ورقيين كبيرين، بقهوة سوداء.

المسافرون يعبرونهما رواحاً مجيئاً. الحقائب الصغيرة تنزلق على المرمر من حولهما. يقترب طفل، يتابع خُذروفاً، ألقى به بمهارة، وهو يسحب خيطه بسرعة. يدور الخذروف المخروطي بين الأقدام، منتصباً بدورانه، وكأنه يحفر في رأس عامر، كما في الأرضية بمسماره. يصحو جسد عامر مرّة واحدة، وهو يتابع دوراته السريعة. تقترب صور من الطفولة، أمعنتْ في غيابها. يرتعد، يتذكّر ألواناً وكراتٍ، ووجوه أولاد صغار. لم يرَ هذه

اللعبة من قبل، ولكنه يعرفها. يسدّ المسافرون عليه الطريق قبل أن يتشبّع بمرأى الطفل الذي كان يشبهه. يبتعدون، فيراه ثانية، وهو يركض ليحمل الخذروف في يده بعد أن تناقصت سرعته، وأوقفته أقدام المسافرين.

صوتها الحزين يعيده إلى الطاولة. عامر. نعم. لسنا في طريقنا إلى الانتحار؟! كان عامر يتلفّتُ متأمّلاً المارّة، بينما يصغي. نفعلها في أوطاننا لنوسعها وجعاً. سندخلها برايات سود.

اقترب منها مائلاً بحذعه ليؤكّد لها أنها على حق.

كانت إعلانات الأسواق الحُرّة تتبدّل على الشاشة المعلّقة عالياً أمامهما. على المسافرين في الرحلة... التوجّه إلى البوّابة رَقْم...

عامر! لِمَ أطلقتَ لحيتك؟ يحرّك رأسه، لا أدري. لن يتعرّفَ عليك أحد. يهزّ رأسه إيجاباً، أدري.

عامر يؤكّد لها أنه مُنصت. أنا لم أشأ ملامسة النجوم، الصعود كان من أجل أن أهوي، أن يُسمَع صوت ارتطامي، أن تخرج الناس من مرائبها لتنتشل حطامي، وهل تعلم، يا عامر؟ ماذا، يا مريم؟ اسمي في الجواز. يسرع للقول، ثانية؟ وهو ينفض رأسه، وكل وجهه يومئ باليأس من محاولاته لفَهمها، بابتسامة مدله.

أشعر أن كل الأسماء تجلب لي التّهمة، إنها مثل ثوب، يضيق عليّ فجأة. لا أشعر براحة داخله، كل الثياب ملوّثة. هل تعرف؟ يسبقها ليقول لا، ويضحكان، ولكنها تواصل خالك مرتاح الآن، وهو عارٍ، أخيراً وجد الزيّ الذي يُرضي الجميع.

نداء أخير، على المسافرين في الرحلة رَقْم... ابتعد الطفل صاحب الخذروف، ولم يعد بإمكان عامر رؤيته.

نحن نتزيّا أيضاً هنا في هذا العالم المفتوح المتحضّر كي نتخفّى عن الأنظار، لنتماهى، ونتّقي شرّ اختلافنا. باختلافنا العقبة للأسف.

وأنتِ؟ إلى أين؟

الطريق نفسه، نتعب لنزوحنا المستمرّ، نهلك في إجادة اللكنات، تضمر العضلات المسؤولة عن الحبّ واللغة.

ولكنْ يعني هناك أمل؟

عامل النظافة النيبالي يقترب جداً بممسحته حتى تصطدم بكعب حذائها..

آخرون سيسمّونه هزيمة، هذا غير مهمّ الآن.

يظهر على الشاشة أمام عامر إعلان سياحي للجوق الموسيقي، الحَرَس المَلَكي في مارشه الأثير. تتصادى النغمات الرشيقة، وتبعث انتعاشة في الروح. تتبّع عامر ذات مرّة مسارَهم الذي ينطلق من الثكنات، دار شوارع المدينة، برفقتهم، وانتهى بانتهاء استعراضهم الموسيقي عند قصر الملكة حيث تمّ تبديل الحَرَس. لقد دخل وخرج من المملكة، وكأنه كان يعيش في داخل إحدى قصصها الخرافية. حيّا الملكة في شرفتها، عامَ على سطح بحيراتها، نصحَ جندي الصفيح بالاستسلام، وأحبّ حوريةً صغيرة التي كانت تصرخ من الألم في كل خطوة لها في الحياة. خرج، وهو يلوّح بيديه مودّعاً، كما لو أنه يخرج من كتابٍ مجسّم مصوّر للأطفال.

ولكنه لا يزال يشعر أنه ولد مخدوع. بينما كلّ همّه كان الهروب للتخلّص من هذا الإحساس.

ولكننا نشيخ، يا عامر، ولا تعود لنا طاقة على تحمّل الضياع. يحضن يدها، ويدوّر محبسها بأصابعه، ويمسح أظفارها المَطليّة. أنتِ دوماً على حقّ، يا مريم، هل لديكِ عنوان؟

لي أخت تُشبهني. ولكنْ قل لي، وهل بقيتْ هناك أرقام بيوت وأسماء شوارع؟ نعم، ولكن إبليس يتلاعب بها. إنه يغيّر بالعلامات أيضاً ليشير إلى الكارثة بطريقته.أيّ كارثة؟ قد لا نجد أحياء. هذه خطوط طيران إلى الجحيم.

نداء أخير إلى السيّدة .. نداء إلى السيّد...

العامل يجمع الأكواب الورقية الفارغة، ويمسح بحركة دائرية سطح الطاولة.

لكنْ قولي لي، لِمَ هذه المرآة؟

أ لَمْ تحدس بعد؟

هامش

رحلة طويلة بتفاصيلها خلف الكواليس، تخطيطات دقيقة، ورسومات مجسّمة للديكور الذي تمّ تنفيذه كجزء من تحضيرات مرهقة، خضّت عرضاً من عروض الحياة الذي احتلّ المتن.

نحن هنا في اللحظة الفاصلة التي يحاول فيها بسيم أن يتجاوز نفسه، وينتهي من آخر خططه (هكذا يظنّ)، راجياً أن تكون نهايتها أفضل ممّا سبق. لم يكن على يقين من شيء، وهو يعدّ نفسه لوداع هاني. وبسيم هو الخال الذي كان جزءاً من ماضي عامر. وهاني هو عامر أصلاً، الشاب الذي استرجع اسمه بنفسه عبر رحلته في المنفى، في محاولة مستميتة منه لربط الروح الهائمة بالجسد الرخو، والرأس المشوّشة، في وحدة واحدة.

كان من الطبيعي أن يُعاد التحقيق من جديد، لو صادف أنّ طالب اللجوء الذي صدر عليه حكم بالإبعاد قد حصل على ورقة ثبوتية جديدةٍ، من شأنها أن تؤكّد قضّته، وأن تبرّر طلب لجوئه (لنفترض بواسطة مسافر، قدِمَ من البلد ذاته،أو قريب ما، أرسلها إليه من دولة أخرى).لكن هذه الصفحات(ورقتنا الثبوتية)،أو الهامش هنا، لن يطّلع عليه المحقّقون للأسف لأنه لا يخصّ عامراً وحده، وإن كان قطعاً سيُثبت حقّه في اللجوء الذي لم يحصل عليه، هذا لو كان قد تسنّى له الحظ، ووقعت الأوراق بين يدي محقّق حليم متأنٍّ فضوليّ، يُقبل عليها بشغف قراءة رواية!

كما أن هذا الهامش لن يُنصف مريم أيضاً، أو يدينها، فكل ما سردته على لسانها سابقاً يبعث على الشكّ، ذلك ما يؤكّده مَن عرفها في مختلف مراحل حياتها. أكّدوا غرامها بنشر إشاعات وهلوسات، تُشبع خيالها، وإن كانت مؤذية لها. لم يعرفها الجميع بذات الاسم على سبيل المثال، أو سنة التولّد، كان لها اسم في كل مستقرّ من مستقرّات حياتها، وعمر مختلف. حتّى إن خيبة أمَلها سلوى ذاتها من نفسها أكبر من أن تتفهّمها أمَ أخرى في الدنيا، فاقتْ فَقْدَ أمٍّ لابنتها بكثير.

ومَنْ يعرف مَن؟ كيف يصدف أن يكون هناك رابط لكل تلك الأحداث المسفوحة على الورق؟ في قديم الزمان، عُدَّ كلُّ مَنْ آمَنَ بالصدفة مِنَ الجَهَلة أي مِنَ الذين يؤمنون بالغيبيات، قبل أن يكتشف العالم ما سُمّيَ حديثاً بقانون الصدفة.

بسيم كفن يركع على ركبتيه مُنهكاً معفّراً بالتراب، بانتظار إعلان انتهاء آخر الحروب، وهو يتجاوز خمسة عقودٍ منها. وعليه أن يضيف اسماً آخر ضمن قائمة الناجين في العالم. اسمه موثّق تحت هذا التصنيف في كتاب الحياة. ولكنه أيضاً من جيلٍ قديم، ممّن تلحقه الأضرار دوماً بأثر رجعي!

يروح ليعدّ له وليمة لأفضل ما يتخيّله احتفالياً. قَدَمُه في اليوم، وذهنه في الغد. إن لم يلتزم بذلك، ستتعرقل الخطط التي عليه أن يستغلّ ما تبقّى له، من أجل تنفيذها. كيف سيتدبّر هاني أمره؟ يجب ألا يشغله السؤال. أبعَدَ هذا النوع المرضي من القلق. كرّة تلك العاطفة غير المحسوبة التي تُكال بكرم في مناسبة، ومن دون مناسبة. كره ادّعاء الناس بانتمائها إلى ثقافة ذات طبيعة عاطفية، أو روحانية. تشكيكاً بما يُقال ومَقتاً للخصلة ذاتها. الناس لا تعرف ما تقوله، بل لا تعرف في الأساس مَن هي أصلاً، يفرك ذقنه، ويحكّه، يكاد يشعر بغضب كبير الآن، وهو يتخيّل أصابع الاتّهام التي تشير إليه، من كل ناحية.

في عمر هاني، دخل سجناً، وطورد، وهرب، واختفى، وعاود، وتابع، ونجا. ولكنّ عليه أن يحذر المقارنة. يتراجع. كلمات زوجته المتوفّاة دبابيس منسية بين ثنيات ملابسه. صوتها يخترق طبقات الغيب معاتباً (باللهِ عليك، كفّ عن السخرية المبطّنة). ولكن هاني ضمن الخانة ذاتها، لو اعتمدنا التصنيف. كلاهما من الناجين. أين المشكلة، إذاً؟ ها هو الولد تجاوز عقدين مثله رافعاً راية المقاومة وسط الجموع في لوحة سوريالية ضخمة. مقاومة الإخفاق، مقاومة اليأس، والأهمّ مقاومة الموت. (مَن قال إنها مشكلة؟!) وهاني كما يبدو مقتنع، لا يحفل بالتفاصيل كعادته، ولم يعترض، وهو يرى خاله داخلاً خارجاً لإتمام أوراقه متّصلاً بالقريب والبعيد، من أجل ضمان طريقة وطريقٍ لسفره.

هاني لا يعلم مَنْ هو، وما اسمه الحقيقي، وماذا كُتِبَ في أوراقه الثبوتية. لا يظنّ بسيم أنه بحث في الأمر مع نفسه. يحجم كل مرّة عن قول شيء حين يلمس ضعفه وسرحانه. تعامل مع الموضوع كونه شيئاً

ثانوياً، وهو يتجنب التفكير الآن في ذلك مداراة لذكرى زوجته، ومخافة اتهامها له بالقسوة.(مَن الذي يحدّد أولوية وثانوية الأمور؟). يُمسك بسيم بنفسه، وهو يشبه عجوزاً بطعم مرارة أبدية في فمه. لكنه سمع صوتها،وبوضوح، إنها قد تتفهّم أسلوبه التهكّمي مع باقي البشر، ولكن ليس مع هاني. هل كان جارحاً وبارداً حقاً معه؟ نعم، وهو بحاجة إلى من يُغلِفه بذلك. وهي، لا، لم تقل له كلّ ذلك في حياتها. لم تجرؤ، مثل كل الزوجات المتحسبات على انتقاده. أو لأن صدرها ضاق ربّما، وبَرِمتْ لثقل وجوده من حولها، شأن المنشغلات بأمورهن البيتية، الملولات المنصرفات عن أزواجهن بأطفالهن (للحقّ لم يتبادلا الكثير من التُهم في حياتهما). صدى كلماتها يلح في رأسه. وكل ما سمعه كان إذاً عبر شبَحِها الذي زاره بعد وفاتها فجأة.

كيف سيجد بسيم حياته بعد رحيل هاني؟ لا ينوي التوقّف طويلاً عند ذلك. لا شيء، لن يحدث شيء. سيعود كما كان قبلها. حزاً يستعيد سنواته ليعيشها لنفسه. توفيت زوجته، وما لبث مكانها أن انشغل بشكل ما، وفاجأه. لم يعهد إليها بشيء، ولم تسلب منه شيئاً. سيستعيد حياته بالطريقة ذاتها."وكانت امرأتي عاقراً، وقد بلغتُ من الكبر عتياً" تصدح في أذنه مجوّدة بصوتٍ بالغ التأثير راسخٍ في ذاكرته. يعنّ له أحياناً أن ينصت، وليتوقّف حينها الكون بأكمله عن الحركة.

سيفكّر بملاذه الأخير، سلوى، الأرض الثابتة الوحيدة لديه، أمّ وفاء، السيدة التي تخطّاها في سيره، وعاد خطوات ليتأكد من شبابه الذي عهد به إليها، وتابع من ثمّ سيره. هي له الآن. سلوى التي لا تكفّ عن التشكيك بما حولها، فترتمي في حضنه لتوهم نفسها، وتوهمه، بلامبالاتها. لا تتحدّث سلوى عن وحدة، مادام الماضي يملؤها، الأصح بالنسبة إليه يطاردها بروحه الشرّيرة. هي الأخرى لا تقول ما تُضمر، يفهمها، ويدرك أسباب عزوفها عن الدخول في مواضيع، تعدّها خاصة. لا شغل لديها غير عدّ أخطائها، والدوران في فلك ابنتها، لغزها الذي يقتضي التفسير. وهي لم ولن تهدأ قبل أن تعثر عليها.

لن يظلّ بسيم وحيداً. فعل والده الشيء ذاته. لا رجل يقاوم وحدته، وإن عُجن من حجَرٍ ونار. قانونه يختلف في نضه عنه لدى المرأة. ناموسهن العجيب. ليس في غسل جواريب وطبخ أكلة. إنها الوحدة المفزعة التي تقارع رجولته المنسحبة ببطء. لا يفعل غير أن يسرع ليسحب أنثى، تداريها بطريقتها، بينما يقف في الخلف صامتاً، وهو يُخفي

تلصصه على ما يحدث. يضحك في سره. يقولها، بينما هو بشوق للتحرر من كل التزاماته. لسلوى مرهم، يُبرّد السطح، ونظرة إهمال، تُبطل مخاوفه، وتُسفّهها.

تلخ زوجته المتوفّاة في اتّهامها له، بشأن تجاوزه لهاني، بتناسيه دور الأب الذي كان يجب أن يكونه. شبحها حين دخلت عليه الغرفة كاد أن يُسقطه أرضاً. بدت أمامه أطول قامة، وأكبر حجماً، مرتدية الثوب الأبيض الطويل، والفوطة البيضاء، عاتبته بوجه شاحب ثلجي، وهل كان لهما هو وهاني معاً معنى الحياة المشتركة حقّاً؟ كم كرّرت عتابها على مسامعه، وليس لأنه لم يفقه شيئاً، فقد حفظ عن ظهر قلب دورها ودوره في الحوار. يعترف ضمناً أنه يفهم جزءاً كبيراً مما في قلبها، ولكنه غير قادر على فعل شيء حيال تأزمه في علاقته مع هاني. أقرّ بعدم صلاحيته لهذا الدور، وانسحب. هل يُنعش ذاكرتها الآن؟ أ لم يوشك يوماً أن يترك كل شيء، ويغادر؟! أ لم يحزم حقيبته قبل أن تبادره بالقول فائرة منفعلة ولكنها لم تُخلّق أماً أيضاً، وليس هناك من يُخلّق أباً؟!

ماذا؟ هل يتمنى شبابه ليعيذ بناءه بوعيه الآن.؟! وتلك الخسارات الفائضة التي كان بالإمكان تلافيها. هل تسقيها الآن خسارات؟

مجزد زلّة لسان في حضرة شريكه. يعلم أنها أقصى ما يتمناه ذلك الصديق. أن يشهدَ اعترافه علّناً أو ضمناً بلا جدوى تلك الشعارات والمشاعر الوطنية الثقيلة، وكل ما أهدر طاقته وحياته من أجله. تنطلق ضحكات شريكه عالياً، من صدر أتعبه الدخان، وبنشوة غريبة، يرسمها شبه توزد على محيّاه، وكأنه كسب قضية كبرى، وحاز على نصر جديد.

ما ثمن الطريق الذي اختاره؟ يشعر أنه فعلاً "دقّة قديمة" لو حاول الآن أن يوضح نفسه، وهل هناك من مبرّر ليشرح؟! طريق السياسة المعارضة، النضال الثوري والسرّي، في مناهضة الاستعمار، ومحاربة الملكية لزمن، وضدّ قهر البعث الذي هيمن واستحوذ على السلطة، وأدخل العراق من جديد في أزماتٍ وحروب، لا ضرورة لها. الفارق أن اسمه لم يرد في سجلّ السياسيين، لم يكن مناضلاً وفق الصورة المتعارف عليها، مناضل غير رسمي، كما يمازحه صديقه، غير مسجّل، وفي أحسن الأحوال سياسيّ سابق، يتوارى بسيم خلف غيوم دخان شريكه، ورعدِ قهقهاته. لم ينظر يوماً إلى ما فعله، بقدر وجوب المواصلة في أن يفعل، دفع قسطاً كافياً من ضريبة النضال، شأنه شأن كثيرين اختفوا فجأة، أو انسحبوا. أما القسط

الأكبر فكانت أخته من دفعته على يد السلطة ذاتها.

حاول أن يزيح كلّ ذلك جانباً. أن يزيح صورة أخته الجبّارة عندما كانت في مقتبل عمرها. لا يشعر بارتياح، ليس لسفر هاني، ولاقتراب موعده. هناك ما يحدث، ويعيده إلى ما مرّ من قبل. لا يشعر بالاطمئنان. شيء ما يدور في الأجواء، ولا يبعث على الطمأنينة. هناك غموض في نشرة الأخبار، في حركة المرور، في أجواء السوق والمضاربات. هناك تساؤل في العيون حول ما هم مُقبلون عليه. يتذكّر سخرية الموقف، قبل عشرة سنوات تقريباً، منتصف الثمانينيات، حين بلغ الناس شيئاً حول ضرورة أن تتنبه إلى الطيور والأشجار. كانت الحرب قائمة، وعلى أهالي البصرة التوضل بأنفسهم إلى سبيل، من أجل حماية أرواحهم، فالدولة عاجزة عن القيام بذلك. (قيل إن تساقطت الطيور أو أوراق الأشجار فذلك مؤشر لاستخدام سلاح كيمياوي، ويعني أن الهواء قد تلوّث). ولكن ألن يكون الوقت متأخراً؟ ضحكت الناس لمهزلة التوجيهات، وإعداد البعض لطسوت الماء. غموض القادم، هو ذا ما يشتفه في الهواء الذي يستنشقه الآن.

سيختلف حجم الخسارة هذه المرّة، إن وقعت. وهو لا يود أن يغامر، ولكن ماذا يبقى من التجارة، إن لم يفعل. إنه سوق، وعرض وطلب، ليس إلا. اتّفق هو وشريكه حول ذلك. تباحثا في الأمر طويلاً، واقتنعا في ضرورة خوض المغامرة معاً. بدا شريكه أكثر ارتخاء منه واندفاعاً (ومتى كان أبو حارث متشنّجاً قلقاً؟!). مذ تعارفهما قبل سنوات في مزارع الزبير، وهو يوقن يوماً بعد يوم باختلاف طبيعتيهما، بميل أبي حارث إلى تمشية الأمور، كجزءٍ من الرضوخ إلى الواقع الذي يعيشونه، بلا معقولية ما يحدث من قبل السلطة والحياة على السواء. من جانبٍ آخر، يختلف أبو حارث عنه كثيراً في تلقائيته، وفي فضوله المنفر في الغالب، الذي يدفعه إلى التوقّف عند كل فاصلة صغيرة، والتحدّث مع كل من يصادفهم في طريقه، ذلك جعله قريباً من الناس، ومصدراً لجسّ نبض السوق. كان سريعاً في كسب ثقته، أشركه بسيم في شأن مغادرة هاني إلى الخارج، وهو أمر اقتضى التكتّم والسرّيّة، لم يعلم به غير اثنين، سلوى وهو. الأولى لم تكن مقتنعة إطلاقاً، والثاني شجّعه، وبذل ما بوسعه في سبيل مساعدته.

إنه يدفع بهاني من صخرة شاهقة إلى عمق البحر! ما له منفعل هكذا؟ سيعود أدراجه ليتابع ما يشغله. هاني يجيد العوم مثله، إنه ابن النهر، رغم أنه لم يسبح مع الصبية في مياه العشار مثله، ولا شطّ الخورة. ليس العوم

هو ما يطمئنه لحال هاني، إنها مواصفاته الأخرى التي رصدها فيه. لها شأنها في تقبّله لما يأتي. إنه الخَلَل الذي اكتشفوه لاحقاً، من دون طبيب، أو أخصائي نفسي إذ لا ظرف كان يسمح بترف معاينة الصبي حينها. لا وقت، ولا عقل، سمحا بذلك، في خضم الرهبة التي عاشوها. إنها ذاكرته! اكتشفوا ذلك عَرَضاً، وهم في هروب، بين القيامة والقيامة. لم يكن هناك من مستشفى، أو طبيب قريب، وحرارة الطفل ارتفعت، ووصلت درجة الهلوسة. جلسا باتّفاق النظرات، هو وزوجته عند رأسه الساخن. هاني الذي لم يكن قد أتمّ السادسة أو الثامنة، كان يصرخ متوجّعاً، توسّلا إليه، أقنعاه، أو أجبراه على النسيان. (عملية جراحية صغيرة سحبا من خلالها شريطاً رفيعاً أسود، ورمة خبيثة، بتشخيصهما، لم تكن غير الذاكرة التي آلمته. هذا هو سرّهما، إنهما عالجاه بطريقتهما، بمشرطٍ معقّم حادّ، ويد ممرّضةٍ مرتجفة حانية).

مضى بسيم سنينه من أجل أن يجعل الجريمة كاملة. إنه لشقائه لا يذكر الآن كل تفاصيل ما مرّ. مضيا يلقيان اللوم على بعضهما، زوجته وهو. ليس هو مَن سَرقَ هاني، هي مَن سرقته، ولكن زوجته سرّقته بمباركته هو، بصمته، على الأقلّ. شعرت بأحقّيتها به مباشرة بعد اختفاء أمّه. كان اختطافاً، لجأت إثره إلى الله، من أجل جعله شرعياً، بعد حفل تتويج للأمومة والأبوة، تولّى فيه كلّ منهما منصبه على حين غرّة.

الاثنتان غابتا. أمّ هاني، وأخته، أخت بسيم، الشابّة الصغيرة التي ظنّ الناس أنها لا تعرف الخوف، ولم تأبه للتحذيرات. يذكرها مَن عرَفَها لشجاعتها، لمثاليّتها، وإنسانيّتها، وطيبتها، ولكنهم يخشون الاقتراب أكثر من كلّ ما خصّها. كلّ منهما استهان بالعواقب على طريقته، فاختلف مصيرهما. اختطّت طريقاً وعراً، كلّفها حياتها وحياة عائلتها التي لم ينجُ منها غير هاني. هاني الطفل الذي تاه ذات ظهيرة، فانقضّت عليه زوجته، وكانت أعنف من عنف الحَدَث ذاته، ولم تتنازل. أعلنت أنها المرشّح الأوّل والأفضل ليحتلّ مكان أمّه. هاني ليس ابن بطنها، لكنه الضحية المَنسية التي فازت بها انتقاماً من القدر. دخلت به إلى عرينها، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

بسيم يشعر الآن كمَن أوكل نيابة عنهما للمثول أمام محكمة، بموجب ورقة الاستدعاء التي استلمها (مع جواز جديد لهاني، ومبلغ بالعملة الصعبة، وقميصين جديدين للرحلة).

سلوى ترجو، وتتأمّل، لا تنتظر. يحدّد سنّها الأربعيني الكثير، غير اختيارها لملابسها وتسريحة شعرها، وهي نادراً ما تبارح بينها. اقتصدت في علاقاتها ومشاويرها حتى انتهت بالتسوّق وزيارة الطبيب مذ أُطلق سراحها من السجن. ما تبقى يعينها فيه الأخ وزوجته، وهما كل ما تبقى من العائلة لديها. يأتيها بسيارته المضعضعة، كلّما احتاجت لشيء، ولا تتوانى زوجة الأخ في اتصالها ومتابعتها للاطمئنان عليها. سنوات طويلة أطاحت بالمسافات المحسوبة في علاقتها بهما، وتحوّلت إلى مصدر أمان واتّكاء لها. لم تقم بزيارة أحد إلا عند الضرورة القصوى. لكنها ما تزال رغم عمرها تندفع في خطواتها تحت ضغط انفعالاتها. ما تزال تثور بحكم مزاجها، وتندم لاحقاً. لا الحكمة، لا الجرأة، ولا البطولة، وكل ما تُعتّث به من صفات حسنة حينها، لاشيء من هذا يمكن أن ينطبق عليها، أو يمتّ إليها بصلة.

أوشكت أن تهشّم زجاج النافذة، بسبب طنين ذبابة حبيسة بين دَرَفة الشباك والشبك المعدني. حاولت جهدها أن تتجاهل الصوت لأن فتح النافذة سيثير حساسيتها للتراب الذي يجمعه الشبك الصدئ. ولم يكن الحال ليمرّ بسلام، لولا مغادرتها الغرفة. حقيقتان لم تكتشفهما مبكّراً، أن مرارةً ساكنة في أعماقها، لا يمكن السيطرة عليها، وهي المحرّك الأساسي للكثير من أفعالها، فيما لم يكن لها ذنب بما آلت إليه حياتها. كما أدركت الحقيقة الثانية متأخّراً، لدى الناس، أو بعضها التي تنظر بعين التقدير لماضيها. بالكاد تلمّست ما دفع القلّة الذين تعرفهم إلى الاعتقاد بجلَدها. هل يكنّ الناس لها الاحترام صدقاً؟ التكتّم الشديد بين الناس بشأن الأحزاب المعارضة ليس جُبناً أو خوفاً عادياً، من مجرّد التورّط في مشاكل مع جهاز الأمن، كان هلعاً، يصعب وصفه لعنفه المفرط الذي خبرته الناس. ليس هناك من عائلة تجاهر في هذا، لا يكاد أحد يعرف شيئاً عن السجينات السياسيات، وإن حدث، فالسلطة تحيد بالقصص بمهارة لتحظ من قدر هؤلاء النساء، ولينتهين، كما كانت سلوى في سجنها، في عنبر واحد مع المومسات.

ولكنْ هل يشملها تعريف سجينة سياسية؟ بين أن تُنكره تماماً وبين أن تحتمي به. ذلك للأزمان والحكومات المتعاقبة دور فيه. وهمّها على أية حال أبعد ما يكون عن ذلك. همّها الأكبر هو وفاء، الابنة التي خافت على حياتها من تلك الحقيقة، وبسببها ربّما ضاعت الابنة منها.

ويلها، تضرب بطنها. مذ ولادتها، وهي تصرخ محتجّة تلك الابنة، على كل شيء، وهي تتلقّم ثدي أمّها، عندما لا توافقها صديقة على رأي، حين لا يعجبها ضيف ما، وحتى اسمها، غيّرته ما إنْ شبّت. لماذا؟ لكنْ ما الفرق، وفاء، مريم، سارة، لمى. جماهير؟ تقاطعها زوجة أخيها، في محاولاتها المستمرّة من أجل التخفيف عنها. لا ذنبَ لكِ، يا سلوى، ولا تفسير مقنع غير اختبار صبركِ! أيّ اختبار، أيّتها الخائبة؟! النصائح بالمجّان، واللسان بلا عظم، وبحاجةٍ إلى مران.

لا تملك زوجة أخيها،ضخمة قوية البنية، إلا أن تساندها، تنهي حواراتهما التي لا تجدها مجدية بنهوضها للشروع في التنظيف والترتيب. تفضّل ألف مرّة استغلال وقت زيارتها في ما يمكنها إعانة سلوى فيه. تبتسم سلوى، ولكنْ بحرقة في داخلها. خبرتْ زوجةُ أخيها روحَها الحائرة، فيها من البساطة والطيبة ما يجعلها لا تأبه كثيراً لما يرد من سلوى حين تنفعل. تقترح سلوى عليها أن تُعينها في بيع الكُتُب التي جمعتْها في علب الكارتون جانباً في الممرّ بدلاً من جمعها هكذا للغبار.

نهض بسيم باكراً جداً. فكّر بإعداد شيء، يليق بمناسبة الوداع. سيضطرّ إلى ترك البيت مؤقّتاً. راقَ له للحظة ارتداء قميص وبنطلون مع جاكتة وربطة! لكنه لم يكن مرتاحاً. قرّر أن يرتدي دشداشة مَكوية، انتزعها من الخزانة. تضاعف وزنه، وبرز كرشه في السنوات الأخيرة، فبدت قامته أقصر بكثير. اعتاد شريكه أن يمازحه في هذا الذي يتضارب مع الحصار المفروض على العراق، وما أفرزه العوز، وألزم الناس في الترشيد في كل شيء. وكأنه الوحيد الذي تضخّمت بطنه تَرَفاً، لا يقولها، ولكنه يكتفي بالإشارة هو الآخر إلى بطن شريكه. الاثنان اضطرّا إلى مماشاة الوضع، كلّ بطريقته، ولكنْ بما يخص الزّيّ، فكان لابد لهما معاً من رَفي البنطلون والقميص، وارتداء الدشداشة والغترة تقلّداً بأصحاب النفوذ ورجال الأعمال.

رشّ عطراً، وألقى الغترة على رأسه، اعتدل أمام المرآة مُلقياً نظرة سريعة على هندامه، ثمّ توجّه إلى الهاتف ليترك خبراً في المكتب حول تخلّفه عن الحضور. الوقت مبكّر ليسمع رداً. التقط ساعته من على المنضدة عند السرير، وتأخر قليلاً بضبط إبزيمها أمام المرآة ثانية.

خرج إلى الحديقة. عبَرَ نظرُه حدودَها إلى بستانه. البرودة مخبّأة، لا تزال من الفجر. أشعل سيجارته، وأخذ نَفَساً طويلاً. ألقى نظرة بعيدة في الأفق. المشهد منبسط مفتوح، ولم يعترض نظره في هذه الجهة غير نخلات، وبضعة أشجار. لفّ الهدوءُ المكانَ. حتّى الحيوانات بدت هامدة هذا الصباح، بضع حشرات طيّارة، عصافير وبذور تحطّ على مهل أرضاً. شعر بألمٍ في مؤخّرة رأسه حتّى أسفل رقبته. حزّك فقرات عنقه. فرك صدره بيده، وحرّك ذراعه. علامات ارتفاع ضغط الدم واضحة، وعليه بمراجعة الطبيب. تنبّه إلى ضرورة إسراعه بالخروج قبل أن تسخن الأرض. قطع الممشى المبلّط ليفتح درفَتَي الباب، عاد ليلج سيّارته المركونة بعد أن انتهى من تدخين سيجارته.

الظلّ الكثيف لأوراق العنب على العرائش حَبَس أيضاً شيئاً من برودة

الليل داخل السيارة المرسيدس البيضاء. أدار محرّكها، وهو ينظر في المرآة الأمامية إلى الخلف، انزلقت السيارة عبر بلاطات الممرّ بهدوء خارج البيت. دعست عجلاتها الحصى والحجارة، وتقافزت من تحتها حبّات الرمل الخشنة. لم يظهر هاني من الباب الداخلي كعادته ليغلق الباب الرئيس من بعده. دقّق النظر في المرآة حتى انعطف بالسيارة، وغاب باب البيت المشرّع عن نظره خلف غبار الطريق الترابي الذي أثارته السيارة بانطلاقها.

على امتداد جانبي الطريق بساتين، تفصلها أسيجة واطئة من سعف وطين، تهدّمت في جزء كبير منها. طريق وعر متعرّج، يخترق الأراضي الزراعية بعشوائية، يضيق، ويتّسع، حتى ينتهي مبتوراً بمساحة قفراء، تفصل بين بيتين، شُيّدا مؤخّراً، أحدهما بيته الذي بناه بنفسه. كان يسبح في أنهرها تلك البساتين، وهو صغير، معظمها جفّ الآن، حتّى لون النخيل لم يكن كالحاً، كما الآن، وهو يتنبه إلى أن الجفاف يغزو المنطقة التي عرفت في كونها الأغزر في كثافة بساتينها. والبيوت بينما السيّارة تصعد إلى الطريق العام صار لها لون صحراويّ شاحب ميت.

سُرّ جميل القصّاب لرؤيته. تبادلا حديثاً سريعاً، واتّفقا على حلّ. سيعدّ طبق مشويات الليلة، أنسب ما يليق بالمناسبة، بديلاً معقولاً للسمك. لم يعد يأمن للسمك كثيراً، بسبب التلوّث، ولأن هاني لا يفضّله، إن توفّر غيره. اختار أفضل قطعة من لحم عجل، ذبحه جميل للتوّ، كما أخبره. الولد لا يميل كثيراً للأكل. احتالت زوجته في حياتها، من أجل أن تفتح شهيّته. عملت أصنافاً من الكبّة، وخبزت المعجّنات لأجله. ركض صبي القصّاب ليضع كيس اللحم في صندوق السيّارة، ويعود بالمفتاح. شكّرَ جميل، ونقده المبلغ، ومن ثمّ نقد الصبي، وتحرّك مشيّعاً بالتحايا.

خفّ سيره. رائحة الدم تزكم أنفه رغم أن الخطّافات لا تحمل جزوراً، فالمحلات بسبب الحصار شبه فارغة. الممشى الوسطي ناشف، والمجرى خال من ماء الغسيل والدم، ولكنه يسير، وهو يرفع بلا وعي طرف السروال القطني الأبيض تحت الدشداشة خشية أن يتلوّث. فكّر وهو يبتعد أن جميل القصّاب بدا منهكاً، فَقدَ نصف وزنه الذي ألفه الناس. هو عينه الذي عمل صبياً في سوق العشار لدى عائلة قصّابين، عُرف عنهم نشاطهم السياسي السرّيّ، وصدرت فتوى حينها بمنع شراء وتناول اللحم من جزّارين، يؤمنون بالمبادىء الشيوعية. (جناس اللحم الأحمر والشيوعية الحمراء). غادر دكاكين القصّابين. تلكّأ قليلاً ليحدّد وجهته منتصف السوق. مال يساراً إلى رجل مسنّ، يفترش الأرض ببضاعته،

انحنى لينتقي ما تبقى من خضروات طازجة لديه، معتمداً في الباقي على الموجود في حديقتها.

أتمَ من بعدها مشواراً قصيراً في طريقه، وأسرع في عودته إلى البيت. لم يغلق الباب الخارجي بعد أن أدخل سيّارته. فكّر للحظات، وتركه من ثمَ مشرّعاً. لربّما خرج هو وهاني ثانية لإتمام أمر ما. أدخل اللحم في الثلاجة، ووضع الماء على النار. ليس لديه ما يفعله. لم يستطع التركيز في فعل شيء منذ فترة. يفرك ذقنه. ناب شريكه عنه هذه الفترة في متابعة أعمال الشركة. يتناصفان الجهد، برغم أن أبا حارث أكثر تقنيناً منه في الوقت المخصص للعمل. ترك له بسيم أن يشغل الواجهة، وارتاح هو للعمل بهدوء خلف الكواليس. العلاقات الواسعة مهمّة، والروح الفكهة من العوامل المساعدة في عقد الصفقات المربحة. يُخفي قلقه لتحرّكهما الحالي في السوق، ويدرك الآن أهمّيّة اسم أبي حارث، في إقدامهما على مغامرة كبيرة كهذه. أجداده من المزارعين المترفين، وبعضهم كانوا من الملاّكين القدماء في البصرة، وقد عمل والده وكيلاً لملاك أراض وبساتين معروفين، ارتبطت العوائل من خلالها بعلاقات متينة مع بعضها على مرّ السنين. اختلف الأولاد داخل العائلة في طبيعتهم، وفي خياراتهم في الحياة، وفي تخصصاتهم. غادر جلّهم البلد، بينما عمل البعض الآخر في المجال البَحري والبواخر وتصدير النفط، وهو الجانب الذي ساهم في إبقاء مكانة العائلة ونفوذها على حاله، وما حفظ لأبي حارث حياته، غير مذهبه السّنّي الذي يُعلن عنه بين الحين والحين على سبيل المزاح والطرفة.

أدار بسيم الماء المغلي في إبريق الشاي، وطلع ليدور على مهله حول البيت متفحّصاً النبتات والأشجار بعينيه. اقترب من حديقة زوجته المتوفّاة. بقايا حديقتها تأبى الذبول. لا تزال آثارها ماثلة له، زرعت جزءاً منها وروداً، وخصّت الباقي للخضراوات والأعشاب باختلاف مواسمها. المزرعة عموماً جفّت بعد أن أغلقَت معظم فتحات الأنهر تباعاً. المَدُّ، ذلك السّحر الإلهي، وهو طفل، حين يصعد عالياً في تلك الأنهر، ويسقي مساحات تلك البساتين الشاسعة، مرّتين، ثلاث، فيض غامر يرويها من دون شقاء، وبتلقائية عجيبة، يسحب ملوحتها. صورة ربّانية، يقول الأجداد المستريحون على الحصير، وهم يسبّحون بحمده.

يتفحّص النخلات، ويصعد بنظره إلى فوق حيث العثوق. يشعر بضيق لأوان قِطافها. سيرسل بطلب الفلاح ليُنجزا المهمة معاً قصّ العثوق، نشرَها على الشُفرة، فَرزَها، وتنظيفها، وغسلها، تَرْكَها لتنشف، ومن ثمّ تحضير علب

الصفيح. وتنظيفها، أكياس النايلون لتعبئة التمر، وأخيراً كبسه داخل تلك العلب، ذلك بمثابة دَين لا يدري الآن لمَن، لا رغبة لديه في شيء، لا في تذوّق التمر، ولا بيعه. لِمَ عليه أن يتقمه بيده؟! لِمَ كل هذه العملية المتعبة؟! يودّ أن ينتهي منها، ويستعيض بذلك بشراء بديل جاهز من السوق، شأنٌ يشبه زيارة القبور حين تتباعد حتى تنقطع. هل هو دَين لها؟! وفاءً لحرصها على إنجازه بنفسها كل عام؟! ألا يكفي أنه قام بنفسه بذلك السنوات الأخيرة بعد مماتها؟! هل هو دَين للأرض؟! أم احترام للنخلة؟! أم أنه يشطب يوماً بعد يوم مهمة من المهمات المدرجة في القائمة، وهو ماضٍ في علاقة شبه منتهية مع كل شيء.

قلع كومة حشائش غافلته، وغافلت هاني. نقل خرطوم الماء من حوض إلى حوض. إن نشدتَ السعادة، اختَرِ الزراعة، كما يقول مَثَلٌ صيني، وطب اليوم يتحدّث عن العمل في الأرض كمحفّز مهمّ لهرمون الفرح. أن تعرقَ، وتتذوّق فحوى الفرح في الملح، أن تتنسّم الرائحة. هذا هو قاموس الحصار. نبش مستمرّ، وقفز من التراث إلى الأمثال الصينية مروراً بالطب البديل، اختلاق بدائل، لا حصر لها، وإيجاد مبررات سعادة لعيش بائس، السعادة، كلمة باهتة، صارت مُلفتة، يزداد استخدامها لتطرية الأجواء، فندق السعادة، السعادة الزوجية، مشروبات السعادة، مطعم السعادة، رفاهية محضة تقع الان في قمّة الهرم.

دخل البيت ليصبّ له كوب شاي. لم تصدر حركة بعد في البيت. ألقى نظرة على غرفة هاني، وعاد ليخرج ثانية من دون هدف. خمسون عاماً من الهرولة، ولا ضرورة للحساب، أو لقياس ومراجعة شيء. حياة منقلبة رأساً على عقب، لم يفلح عقله في استشرافها، ولا قراءة واقعها. هو لم يكن متشائماً! لا يحبّ أن يُذكر بشيء من قبيل الهزيمة. ربّما مكابرة، انتهى زمن المهزومين، ولكنه يقرّ بالخَلَل، بانتمائه إلى جيل قديم، يؤمن بالتضحيات بعد أن أخذ على عاتقه جزءاً من مسؤولية البناء والعدالة (مسؤولية إسعاد البشر!)، من أين جاء بهذا؟! كيف يبدو كل شيء مدعاة سخرية الآن؟! إنه شيء من وحي قصص الخوارق والبطولات، وهُم كل ما هنالك جيل من الفقراء الخائبين المترفّعين، من ينتقي التفّاحة الأفضل ليتشهّاها لغيره، وما في جيبه، يمكن له أن يعين بجزء منه آخرين.

غار الماء ببطء في سواقي الأحواض الضيّقة، والشمس تعامدت، ويده على الجدار الذي سخن. يتأمّل بيته. يتأمّل البناء، أتمّه بيده، الغرفة تلو الغرفة، الممرّات بمستوى الحديقة حول البيت. يتقدّم خطوات، يدوس

أرضها، يجد نفسه، يضع الكوب جانباً على الأرض. يخلع غطاء رأسه، يتمدد على التراب تحت ظلّ نخلة وارف، وفسحة عشب صغيرة، يكوّم الفترة، ويدسها تحت رأسه. يقرر أن يفعلها منذ زمن. مناسبة الوداع هذه الليلة تستدعي ذلك. ينظر إلى السماء، وهو مستلقٍ. لم يتسلّق نخلة منذ سنوات. يشعر بوزنه تضاعف، وقوّة جسده أقل من نصف ما كانت عليه. ضوء النهار حادّ قوي، وصداع رأسه يطيح به، ترتسم دوائر، حلزونات وفقاعات أمام عينيه، ويغيم نظره.

حين أرسله أبوه ليكسب ما يعينهم في حياتهم الشحيحة تلك، لم يكن يتجاوز السبعة أعوام. ربّما بعمر هاني حين دخل حياتهم. وفي يوم قائظ حين قرّر الطواف بمثلجات "الليدي ستيك" بعيداً عن محلّ سكنه، حيث يقيم الخياطون الباكستانيون، توجّب عليه الصياح عالياً ليسمعه الناس القاطنون في قيلولة الظهر. تفاجأ بالباكستاني الذي خرج غاضباً، وانهال عليه بالضرب المبرّح بعصاه، وهو يتقافز مهدّداً إياه بلهجة مكسّرة ألا يكرّر فعلته، ويمرّ ثانية بهذا الزقاق ليوقظه فترة استراحته. قصر قامته وضعف بنيته لم يمكّناه من أن يفلت من بين يدي الباكستاني بطوله وقوّة عظامه. عاد إلى البيت متوزماً، يحاول أن يُخفي وجعه، لكنه في ذلك اليوم أنهى بيع ما في ثرموس المثلّجات أكثر من مرّة، وسلّم أمّه بفخر ٨٥٠ فلساً، مبلغاً يعادل ثلاثة أضعاف ما يكسبه الوالد في اليوم الواحد.

نام على العشب على مبعدة من قبرها. ليس مجيء الولد السبب في ابتعادهما عن بعضهما. حدث ذلك في سنوات قبلها. تجنّبا مواجهة شيء ما أشبه بخَلَل، وهي سبقته، وأعرضت عنه، ولم يعرف ما يجب فعله. لم يكن هناك من شيء فيه يدعوها للالتحام به. خفّت النهاية من العنوان، أو أن العمر خانها، مثلما خانه هو. فقرٌ في الإيمان، كما ظنّت. وسرعان ما ألفيا نفسيهما في محنة بيولوجية اجتماعية. تلك الكتوم لم تترك لأحد أن يشعر بذلك. لها غرفتها، مبكراً، ولم يقترب منها إلا في فترات متباعدة، كانت تُشعره وهو يترك الغرفة إثرها أنها قد استعانت بكل الأولياء الصالحين والملائكة، من أجل إتمام مواقعة هذا الحيوان لها. وتركت للعشرة أن تنوط بمسؤولية حياتهما لباقي سنوات عمرها.

كان المحيطون قد حاصروه بموضوع الزواج، وتسابق القريبون في مقترحاتهم. وبين المزاح والجدّ الرفيق فلان، وأبو فلان، أعتى المناضلين بدؤوا بالاستقرار، وراحوا يتزوّجون، ما بالك؟! ولكنه عندما سافر عازباً إلى مصر مطلع السبعينيات، اختمرت برأسه فكرة التراجع كلّياً عن مشروع

الزواج. كان مشدوداً إلى خطط التطوير التي ستفتح له آفاق اكتشاف واسعة في مجال عمله، وفرصاً ليجوب العالم حين تمّ إيفاده لأوّل مرّة من قبل شركته في دورة تدريبية لمدّة نصف عام. البلد أيضاً بازدهار ملفت للأنظار، السبعينيات وقيام الجبهة الوطنية والمصالحة بين الأحزاب السياسية، وزعم ضمان سلامة المعارضين، ذلك الصعود الاقتصادي الراسخ السريع الذي سيؤمّن له تحقّق كل طموحه. استعاد فضوله في الاكتشاف، وبزغت الرغبة فيه من جديد مثل شمسٍ في نسيان ما فات. توضّحت علائم الاستقرار، بسبب المسافات، فوقف يومها في شرفة الشقّة في القاهرة، تحتشد الأفكار في رأسه بوحيٍ ما قد نزل عليه متّخذاً قراره في إلغاء تلك الخطوة (أن يعتذر لموظّفة زميلة، دار بينه وبينها حديث بهذا الشأن، صارت زوجته حال عودته).

يضحك بسرّه، وهو ممدّد على الأرض الصلبة، بوخز الحشائش الجافّة من تحته. هل يقول إن كل ما لحق به من أذى وملاحقة له دوره المجدي في دوران عجلة هذا البيت، ودوام الزيجة، وتأجيل القرار، وبيت وعائلة من أب وأمّ وابن، طفل متبنّى؟!

كم أمٌ تبنّت هذا الطفل؟! كم امرأةٍ تشبّثت بذيال أثوابه، وتذلّلت إليه؟! كم أمٌ نافست الأخرى في إظهار ولعها لتفوز بقلبه؟! وهاني يتبعهم مجذفاً على السطح بفتات ذاكرة وضياع. مثل السائر في حلم! هكذا لمحه بسيم عندما استيقظ ذات ليلة ليقصد الحمام. لمح ظهره، وهو يغلق الباب الرئيس الداخلي من خلفه، ويتسلّل خفية. همّ بمناداته، ولكنه أحجم. خشي أن يوقظ زوجته، ويُقلقها. انتظر بعضاً من الوقت خلف الباب قبل أن يتبعه ليتبين ما ينويه في ساعة متأخّرة من الليل مثل هذه.

وجد درفة الباب الحديدي مواربة. ظنّه حقّاً داخلا في حالة السير في أثناء النوم، لولا أن ذلك سيتكرّر. تبعه في الممرّ الخارجي للبيت، وتلفّت عند الباب يميناً ويساراً. خطا خطوتين، تعدّتا المساحة الإسمنتية المنحدرة أمام الباب حتى لمح قامة هاني، وهي تسير بخفّة مثل قطعة مستطيلة وسط الظلمة، تسرق لونها الأبيض المزرق من القمر، وهي تتحرّك تجاه بيت الحارس، في البستان المجاور.

لم يكن بيت الحارس عبر الشارع الترابي مقابل بيته سوى غرفة مربعة واطئة السقف، يغلقها نصف باب، تنسدل عليه ستارة من قماش مهترئ. وكل ما يحتاجه هذا البيت أو الغرفة قد نُشِر خارجاً حواليها، مثل أحشاء خرجت من بطن مفتوحة. المطبخ وأدواته يشغل صفحة الجدار من الخارج إلى اليسار، مع التنور والموقد والأواني. أما الجدار إلى اليمين فهو للغسيل بطسته، تخته، دلوه، وحبال الغسيل، والحشيات، والأغطية المنشورة على الطابوق المصفّف بالقرب.

تدور التفاصيل اليومية على مسرح مكشوف بكواليس حقيقية، لا يداري أصحابها كثيراً في إخفائها (البخار المتصاعد من القِدر، الملابس المنشورة للمرأة والرجل بتصنيفاتها وهي تقطر ماء، حتى الشاي وطقس تناوله عادة ما يكون عند الباب بمواجهة الطريق، على الحصير، تُديره الزوجة عند الغروب في الأقداح قبل أن يتوجه الحارس إلى خفارته).

الحارس ذو القامة الطويلة النحيلة كان مَعفياً من الخدمة العسكرية،

خجولاً، يحاول ألا يثير جلبة، وهو يمشي حاملا بندقيّته إلى جانب منجله. يمسك بمشروعين في آن واحد، أحدهما حراسة موقع البناء القريب، وعليه تقع مسؤولية حفظ أدوات ومواد وأجهزة البناء واستقبال لوريات التراب والإسمنت والطابوق والحديد والإشراف على تفريغها. وهو أيضاً فلاّحٌ في الطرف الثاني البعيد من البستان، يحرث، ويبذر، ويبيع ما يزرع ليأكل مع عائلته ما يتبقّى.

حين ينشغل في الأرض، تقوم زوجة الحارس بالمهامّ المتعلقة بموقع عمله نيابة عنه. لا ترتدي ثوب الفلاحات الملوّن، زيّها أقرب إلى زيّ العاملات في الطين والبناء. تتلفّع بأقتم الألوان، وكأنها تعمد إلى التمويه والتخفّي، فلا تبين حتى ملامح وجهها، إن لم تكن على مقربة،تجمعُ شعرها تحت عصابة سوداء، تعقدُ أطرافها أعلى رأسها في المنتصف، لا أرض لها، حَرِكة، تتنقل بشكل سريع قلق، فتظهر هنا، وتختفي هناك فجأة. تضيع بين النخيل، خلف تلال الرمل وأكياس الإسمنت، تنهمك في جمع الحشيش والحطب، وتسرح، بينما يغلي القدر على الموقد، وهي ترشّ أساسات البناء للبيت الجديد، والأعمدة لترطيبها.

كان بسيم يرفع رأسه قليلاً من على الأرض بين الحين والحين، لسماعه حركة، تصدر من داخل البيت. كان قلقاً، فاختار أخيراً أن ينهض ليُنصت جيّداً، لعلّ هاني استيقظ. نفض العشب الجافّ عن ملابسه، ونفض الغترة، من ثمّ وتناول كوبه الفارغ، ومشى.

الحديقة بدت له مهملة أكثر من أيّ وقت مضى. مرِضَ فلاحه، وخطّة سفر هاني عرقلت أمر متابعة أخباره. زوجته ورغم حرصها على الاعتناء بكل زاوية في الحديقة رفضتْ حينها عرض الحارس في الموقع المقابل في الاعتناء بأرضهم. نال التعب منها الكثير، وانشغل هو بالتجارة والسفر خارج البيت، ولكن محاولته إقناعها لم تغيّر من موقفها. لم يأخذ رفضها في البدء على محمل الجدّ. ظنّه يكمن في إصرارها على القيام بنفسها، بأغلب الواجبات كعادتها. لم تثقْ بالغرباء عن المنطقة، ولم تمل إلى عقد صداقات، رغم أنها عُدّت من الغرباء. ولكنه اكتشف قلقاً آخر لديها، توضح له شيئاً فشيئاً.

لم يشعر مثلها بالضيق في تمضية هاني الوقت مع الحارس وعائلته لإشباع فضوله، وتزجية وقته. كان يلمح هاني عبر السياج، وهو يقبّل الدجاجة من فمها، ويربط الخروف، وهو يعيد الأفراخ الساقطة إلى

أعشاشها، وهو يسحب خرطوم المياه ليعين الحارس في رشّ الأرض للتقليل من ثوران غبارها ليساعده في البِذار، في نقل الخشب، أو السعف المقصوص من هنا إلى هناك. لا شيء، لا شيء ليعترض عليه. يروي الولد قصصه عن الديك الذي يتكفّل بعائلته، بإطعام اثنتي عشرة دجاجة،وإدخالهنّ إلى مخدعهنّ عند الغروب، يعود فرحاً إلى أمّه راكضاً نحوها، يريها مكافآته بزهو لجمعه البيض مع زوجة الحارس، ولحصوله على حصّته منه، وأقراص "حنّونات" صغيرة، تخبزها، وتخضه برشّ الدبس والسمسم عليها، وهي حارّة.

اختلفا، هو وزوجته، وانقطع الحديث بهذا الشأن بينهما. ولطالما لمس من ناحية أخرى رغبةً أكبر من أن يستوعبها لدى هاني في إشباع جانب طفولي فيه رغم عمره(أن يجلس حذوها بالساعات مثلاً)، ظلّت الحالة برأيه مرافقة له حتّى بعد أن شبّ. لم تستمع زوجته إليه. صدّته، رأت الأمر طبيعياً، وأوعزته لحساسية الولد المفرطة، ولجهله هو به، وابتعاده عنه.

اختارت لها ليلةً شتائيةً، عاد فيها من سفر. حين وصل، انفتح المصراعان في الحال، من أجل دخول السيّارة. وجد هاني واقفاً بانتظاره عند الباب. تناول الحقيبة منه بحركة، يعجّله فيها ليسرع في الدخول. لم ينظر في وجهه ليلحظ شيئاً، ولكنّ في المصباح المحترق أعلى الباب عند مدخل البيت والظُلمة التي استقبلته في الداخل ما يشير إلى خطب ما. لحقه هاني ليُخبره أنها راقدة في الفراش منذ أسبوع، ترفض بشدّة الاتّصال بطبيب. عندما دخل غرفتها، أفزعه شحوبها الشديد، ما جعله يفكّر آلياً بالتفاصيل العملية لليومين القادمين.

غابث عنه، وعن هاني مبكّراً، من دون اتّفاق. أرعبه فراغ مكانها. بَردَ البيت، وألغي جزء كبير منه. بسببها، لم يرها إلا عبر زوايا البيت، خلال ملابس مَكويّة، لقمة جاهزة، أصص وصفائح زرع، تُحيط بجدران بيت، بنياه معاً. وهي مَن دفعته عن عمد إلى سلوى!

صندوقها الأسود

لم تزر بسيماً يوماً في بيته، حتّى بعد وفاة زوجته، ولم تلتقِ هاني. حصر بسيم علاقته بها داخل شقّتها. جاء متأخّراً عشرين عاماً، تغيّرت عبرها حياتها، واتّخذت شكل قدح ماء، نصفه عكر. كيف ترتّبت حياتها لتجمع كلّ هذه الصدف؟ ولِمَ التقته من جديد؟ بسيم تحديداً؟ أمورٌ ترسم ابتسامةً على زاوية فمها.

تفتح سلوى صندوقاً خشبياً صغيراً، أصاب قُفلَه عطل مذ حملته معها من بيت أهلها. تقلّب محتوياته على السرير بكلتا يديها. أشدّ ما تخشاه أن تترك في رحيلها ما يشير إليها. لا أن تمسح آثارها، ولكنها أقرّت في داخلها بذلك الخوف الذي يسكن أعماقها، خوف مجهول، تتهيّأ له على الدوام خوفاً من أن يُباغتها، خوف على صورتها، من اكتشاف وصمة. لا علم لها بها، وأخرى لم تُخفِها جيداً. إنه هاجس الخطأ، الرعب من افتضاح أمر تجهله، يُلصَق بها، ويسيء إليها. إنها تخاف العالم خارجاً. وفاء مَن واجهها بذلك، لم تكتشف ذلك بنفسها، ابنتها مَن جعلها تفكّر بتلك الحقيقة.

غريب كيف مرّ صباحها بعد مغادرة بسيم مبكّراً وهي راضية، وهي تمسح آثار مبيت الليلة الفائتة.وهي تحمل فنجاني الشاي الفارغَين إلى المطبخ، وتفرّغ منفضة السجائر في القمامة. وهي تغسل كل الصحون والأكواب، وتقلبها على الفوطة جانب الحوض. كان صباح جمعة هادئاً، وهي تدخل الغرفة لتعيد ترتيب السرير، وتمسّد طويلاً الجانب الذي نام عليه. ولكنْ وكأن نداء من عمق الخزانة وصل أذنيها. إنه صندوق ودائعها، وما بالها انقلب حالها؟ عادت الهواجس، وما كرّرته وفاء على مسامعها، أخذ يدور في ذهنها. ما لم تستنتجه بنفسها، أنها تنتمي لجيل يدّعي المثالية، ينشدها أكثر ممّا يؤمن بها، يدّعيها أكثر ممّا يفهمها. جيل تعايش مع نسج الخارج بالداخل المتفاوتين بكل المقاييس، عقدة عقدة، وقدرة على حلّ العقد، وفصل خيوط الواقع من دون إشكال يُذكَر، رموز للعَلَن، وأخرى للسّرّ.(اتّهمتها وفاء في حالات انفعالهما الفالت، وبشكل مباشر بالازدواجية، بالنفاق والمخادعة، ولأكثر من مرّة!).

فرَقت كومة المحتويات بيديها، فرشتها بحذر على الشرشف. أوراقها الثبوتية، شهادة الجنسية، ووثيقة الأحوال المدنية. رفعت من بينها صورة وفاء قريباً من وجهها. تأمّلت الوجه الطفوليّ الأسمر والشعر الأسود الفاحم، فرق الشعر في الوسط والقرنين اللذين بَرَمتهما لها طويلاً ليأخذا قالباً حتى يحين موعد العرض المسرحي، والتقاط الصورة. أخاطت لها بدلة صيفية بنفسجية اللون، بحمّالات رفيعة، تُبرز تدويرة كتفيها العاريتين، والعظمتين أسفل عنقها، لوحتها الشمس. بشرتها سريعة في كسبها سمرةً مضاعفة لأدنى تعرّض للشمس. كانت تخشى أن يناديها الأطفال بـ "سودة". ضحكت في سرّها، وفاء ألحّت مرّة بشكل مَرَضي، وقلبت الدنيا، ولم تُقعدها حتى حصلت على مظلّة صغيرة، تُناسب لون ثوبها استعداداً للعرض المسرحي في المدرسة الابتدائية. البيت على مبعدة خطوات، تنطلقان معاً صباحاً، يتوادعان عند باب المدرسة. تأخذ الأمّ نظرة الاطمئنان من عينيها، وتتابع طريقها متوجّهة إلى عملها. ولطالما اكتشفت لعبة الطفلة في تغيّبها ما بين الدروس، أو حتى في إعراضها عن إكمال يومها المدرسي. استدعتها مديرة المدرسة مرّتين لاجتماع، للسبب ذاته. حتّى بائع الساندويتشات بعربته التي تحتلّ مكانها أمام باب المدرسة نادى عليها ذات يوم ليشتكي من هذه اللعينة ذات السبع سنوات التي تفوق قريناتها بصيغ القَسَم والحلفان مطالباً بالدَّين الذي تراكم عليها. لم تصدّق أن وفاء تعلّمت أن تستلف، وتشتري، وتعد بالسداد دون أن تُخبرها. واشتكى لها حارس خزّان المياه الضخم المقابل للمدرسة من تحريضها للأطفال، وتسلّقها الأعمدة بغية الصعود إلى الحوض، وهو شاهق في علوّه.

قلبت الورقة المهترئة على ظهرها، وأعادتها إلى وجهها. أدركت فحوى الورقة التي لا تعرف لِمَ تُخفيها بين أوراقها الخاصّة، ولم تقطعها منذ زمن بعيد. ولكنها تبثّت لها هويّتها، بحاجة لأن تقرأها موقّعة من الطرفين إضافة إلى القاضي. صفة، أو عنوان، أو هويّة لم تسقط عنها بعد كل هذه السنين. إنها وعث على أخرى مطلّقة في داخلها منذ الصغر، كبرتْ معها. إنها دمغة بطاقتها الشخصية.

تذكر اللقاء عند باب المحكمة حينها، الإجراءات التي لم تتعطّل، من أجل إصدار عقد الطلاق. لم يكن المكتب مزدحماً، كما ظنّت، لكن الأجواء غريبة عليها، والضغط النفسي الذي شعرتْ به، وأرغمت نفسها على سحقه الأهل الذين تعنّتوا برأيهم، واعترضوا على القرار، الذين مانعوا عند الزواج، ومانعوا عند الطلاق، والموظّفة في المحكمة التي التزمتْ بسؤالهما حول

القرار، مشكّكة في تنازلهما التامّ هي وزوجها عن كل شيء.

خزنت سلوى زمناً بأكمله في صندوقها، منذ تفجّرت أحاسيسها، وتجذّدت أفكارها، إلى اليوم الذي وجدت نفسها فيه وحيدة أمام تجربة قاصرة، تفترش السرير، تجربة لا تتعدّى قياسه، ولا تملك منها غير حفنة أدلّة وإثباتات مقتصدة.

في حينها، لم يصل سلوى خبر عن زوجها، والد وفاء، مذ مداهمة الشرطة البيت، والقبض عليهما. كتبث رسائل، وهي في السجن، تسأل فيها عن مصيره. لم تعلم بخبر إطلاق سراحه قبل إطلاق سراحها. علمث منه لاحقاً، أنه لم يكد يمضي في طلبه الذي تقدّم به لأخذ ابنتهما حتّى أُفرِجَ عنها. لم تعلم بنيّته أخذ الطفلة منها. لم تعلم عنه شيئاً، وإن علمث بنيّتِه هذه ربّما ستتفهّمها منة بالمنة، فمَنْ يترك لابنته أن تكبر في سجن!

كان رعب فقدان رضيعتها قد حوّلها إلى ذئبة ونعجة في آنٍ واحد. تصاعدَ هلعها بسبب ما تناقلوه داخل سجن النساء من تهديدات شتّى. (أخذ الأطفال عنوة مثلاً، أو سرقتهم واستبدالهم). هل اختلف الأمر، لو جاءها ولد؟! هل يخفّ الهلع حينها؟!

لم يدخل ذلك ضمن حساباتهما حين تأكّدا من حدوث الحمل. إنها لا تذكر وقع الخبر عليها، أو عليه، رغم كونه حملها الأوّل. لم تكد تتجاوز قيء الصباح، ولم تكد تتنبه إلى ثقل نهديها، وامتلاء خصرها. أحداثٌ تسارعت حينها، من دون استعداد كاف لها. أو أنها أخذت تشكّك في كل شيء حتّى في فرحتها حينذاك بحدوث الحمل. الخوف أم الشك جفّفا الحليب في صدرها! زاحمت أفكارها نظريات النسوة ما قبل الإفراج، وبعده، وفتاوى الحكيمات وتحليلات المجرّبات وشؤم العجائز. هل هو السجن؟ أم هي السبب الذي جعل أمومتها لا تستيقظ كما يجب؟! قرفث من عملية الإرضاع، ولم تجد الطفلة ما تسحبه من ثدييها. تغيّر جسمها وإشاراته، لم تفهم كمَن حلّت أخرى فيها. حتّى اللحظة لا تعرف مَن كانت، ما الذي ألمّ بها؟! كيف حدث كل ما حدث؟! وما الذي أتى بها إلى هذا الطريق؟! كيف زجّوها مع الأخريات في ذلك القبو؟! وصارت في غضون ساعات سجينة سياسية؟

تُساق مع زوجها ببطنها البارز، أوّل حمل، أوّل شبابها، أوّل زفافها، أوّل حبّ وأحلامها البعيدة تماماً عن البطولات والنضال والسياسة. والداها بسيطان قنوعان، أمّ لم تُنجب سوى اثنين قبل أن يضعف قلبها، يؤمنان

بالستر، ويرفضان كل ما يقترب من تسمية نشاط، أو معارضة، فكيف لو سُمّي "ممارسة نشاط إجرامي"! هزّة لم يحتملها الأب مثلما أخرست الأمّ. وعندما أفاقت من صدمتها، انعدمت الخيارات غير الحال الذي وجدتْ نفسها فيه.

وهي لم تعرف كذلك الخطأ الذي جعلها تنجو، وأن يُفرَج عنها مع ابنتها، بينما ماتت أخرى، رافقتها منذ اليوم الأوّل لدخولهنّ السجن، لفظتْ أنفاسها بينهنّ، بسبب نزيف في المخّ، وأخرى قصم ظهرها، وبقيت تتّكىء عليها في قضاء حاجتها، وأخريات لم يُسمَع عنهنّ، وأطفال وُلدوا، وماتوا، أو اختفوا. تصعد برودة الأرض من تحتها، رطوبة وظلمة تجعلان الوجوه مضبّبة، كما لو أنها منتمية إلى شريط ذكريات، ليس إلا.

تثني الورقة كما كانت، وتعيدها برجفة إلى قاع الصندوق.

اكتشفتْ سلوى عبث ابنتها وفاء بصندوقها في غيابها، ولم تعرف ما يتوجّب عليها فعله حيال ذلك، لم تجدِ محاولات كفّها عن النبش، ولم ينفع لا التعنيف ولا تغيير مكان الصندوق، والقفل عاطل. الشقّة صغيرة، وهما يتشاركان مذ ولادتها في غرفة نوم واحدة، دولاب ملابس واحد، وسرير نوم، وحتى في صيدلية البيت في الجارور. مذ صغرها، عرفت الطريق إلى الحبوب المسكّنة، كبسولات المضادّات الحيوية، شراب السعال، وحبوب تهدئة المعدة، تصفها لنفسها ولسلوى، ما إن تلحظ أعراضاً محدّدة، تظهر على إحداهما.

من المحال أن تردم تلك الفراغات الكثيرة التي بانت أمامها. لم تشعر سلوى في سنوات مراهقتها برغبة في التمرّد مثل ابنتها. تتوجّه فتية حالمة عصر كل يوم لتلتقي بصديقاتها، وهنّ يجتمعنّ عند بعضهنّ في البيوت المجاورة. النهر وقطيع الخراف الذاهب بانصياع تامّ إلى حتفه، وما تحمله الريح من روائح جهة المسلخ الكبير، الميزة التي تقرّبها وتُبعدها عن المكان. تعبر الجسر الحديدي الأحمر خجلة من ظلّها، مستعينة بالمخيّلة، تنقلها إلى أجواء الروايات التي دفنتْ نفسها فيها. العربات والمشاة من الفلاحين يتداخلون على الجسر مع العمّال والراهبات الأنيقات، ويدفعونها أكثر إلى الحافة غير آبهة. تزورها عفاف لينطلقا لزيارة أخريات. عفاف هي مَن تتبرّع على الأغلب في احتضانهنّ حين يكون عددهنّ كبيراً. بيتها واسع، والأمّ الكريمة تُغدق عليهنّ، بما لذّ وطاب وما ندر بين تلك البيوت الفقيرة. ولكن عفاف لم تكن الأثيرة رغم قربهما، وتزاورهما اليومي

ومشوارهما من وإلى المدرسة. بشرى التي تسكن في محلّة، تبعد أكثر قليلاً عن بيوت الصديقات المجاورة لبيتها، هي التي تقصدها وحدها، ومغامراتهما السرّيّة ابتدأت من هناك، في مخالفة الأوامر، وتجاوز الوقت المسموح لهما بالبقاء خارج البيت، في أثناء زياراتهما لبعضهما. ولم تنصت إلى بشرى، بل أنصتت باهتمام بالغ وعجيب إلى أختها الكبرى، ولساعات متأخّرة أحياناً.

أثارت الأخت الكبرى لبشرى انتباهها، تأمّلتها بفضول، تلك الشابّة الممتلئة ذات البشرة البيضاء، والشعر البني، التي تمتّعت ببساطة مظهرها، وخُلوّه من المكياج والزينة، والتي كانت تجمع شعرها الكَثّ في ضفيرة متينة، تصل بطولها منتصف ظهرها. ما إن يبدأ الاجتماع حتى تنفعل في أثناء حديثها، يحتقن الوجه، تزبد الشفتان، وتفلت الخصلات من قبضتها، وتتلاحق الكلمات. هيئة تثير الحماسة، وتبعث على الاطمئنان، في الوقت نفسه. امتلكت سطوة أمومة ما على البنات، وكسبتهنّ إلى صفّها. تلك التي تُتابع أخبار الرياضة والعلوم، لا غير، ذاتها مَن أدخلتها إلى تنظيم رابطة المرأة العراقية حين أكملت الثامنة عشرة من عمرها، وصارت مسؤولتها.

تقاسمت سلوى السرّ المملوء إثارة مع أخيها الكبير، وهو الذي اعتاد مرافقتها في مشاويرها، والتغطية عليها. لم تمرّ سلوى بتجارب خارقة قبلها (أقصاها حين اختيرت من ضمن مجموعة معونة الشتاء، عندما رافقت البنات إلى سوق العشار ليجمعنّ التبرّعات من التجّار لأجل شراء ملابس شتوية للفقراء، بحلول الفصل). خضّتها تلك الأخت الكبرى بالاهتمام والمتابعة، فداومت على الحضور، وتحرّجت من التخلّف عن موعد، أو الاعتذار عن القيام بمهمّة. مزيج من رهبة وشغف. انضمّت لمجموعة، شعرت بأهمّيّتهنّ، ولم تفهم كل ما يطرحنّ، حديث عن حقوق المرأة، والعدالة الاجتماعية، وقراءة في فقرات قانون الأحوال الشخصية الجديد الذي أنصف المرأة، ومنحها حقوقها. بشرى تناقشهنّ في كل اجتماع بخصوصه، تحذّرهنّ من الاستسلام.

أقام الكتاب في حضنها، ينهض، ويمشي معها. تحزك شيء ما بداخلها. استعارت المجلات، وتنبّهت إلى ما حولها، شعرت باختلاف زمنه عن زمن البيت. تطلّعت إلى الخروج إلى العالم، إلى كسر رتابة ما في هذا البيت الكئيب، إلى القيام بعمل ما مغاير، وإلى دراسة شيء آخر غير الانخراط في سلك التعليم الذي درجت عليه البنات، وهنّ يدخلنّ العام ١٩٦٠، وهي تحتفل مع الآخرين بخبر تعيين نزيهة الدليمي أوّل امرأة عربية وزيرة،

كانت قد تخرجت من كلّية الطّب.

الهوس لم يلبث طويلاً، والعيش فيه لم يدم غير ثلاثة أعوام، قبل اعتقالها إثر انقلاب شباط في العام ١٩٦٢. هذا الانجراف مع الفكرة الرومانسية الحالمة أوّل الحياة تتحسسه الآن في صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، عبر شوارع آمنة، وأحواض زهور، عبر صور أناس طيّبين، وأبواب بيوت مفتوحة. ذلك الاندفاع لم يكن سياسة، كان حلماً وحقيقةً، تقاسمته مع مَن كانوا حولها. وزنها من وزن الريشة، والحلم ماضٍ بها بسهولة، مثل تدافعها مع الباقيات والباقين في مظاهرة، في ترديدِ شعار، في التطوّع، في مشروع خياطة ملابس للفقراء، وتعليم القراءة والكتابة للأمّيّات من النساء، أو الانخراط في تنفيذ مشروع خيري. واقعٌ ممزوجٌ بشيء غامض، ولكنه حلو وممكن مادام مشتركاً، لا تدرك تماماً ماهيّته، ولكنها تحبّه، مندفعة إليه، مأخوذة به مثل غيرها. مساحة مغامرة جارفة، انضمّت فيها إلى حشدٍ، التفّ من حولها، وانتمت إليه، وكأنه يرفعها إلى فوق، ويهتف بروحها.

ولكنْ لِمَ أفرِج عنها؟! أ لم يجد فيها المحقّق ما يسيل له اللعاب؟! هل بدتْ خالية من العند والإصرار تماماً؟! هل اكتشف مسبقاً أنها فأرة، والجلاد لا يحترم إلا الضحية التي تبدي جلادة وصموداً؟! هل اكتشف أنها بلا عقيدة ربّما، أو بلا دين، أو طائفة، تستميت من أجلها كالأخريات؟! لمَ اكتفى باللكمة التي سدّدها إلى وجهها أوّل مرّة؟! كيف لم يحرّضه عاملٌ ما فيها شيء ما يدفعه إلى الهيجان؟! ألم يُكتب على جبهتها لقب ما، شهيدة، عاهرة؟! أم أنها زُميت بالخطأ أمامه، ببطنها المنتفخ، فرفسها في خاصرتها مرّة واحدة، ونهض؟! الأسئلة تذلّها، تقسمها نصفين، ذاتها دارت ودارت في رأسها لسنوات، ولكنها لم تصعد يوماً إلى طرف لسانها.

عادتْ من السجن إلى بيت أبيها، وشعرتْ أنها لن تخرج إلى الشارع أبداً. وقفتْ منتصف الحوش، أنزلتْ على الأرض صرّتها، ثمّ عادتْ، ورفعتْها مِن على الأرض ثانية، جامدة في مكانها لثوان. بقيتْ متلاحقة الأنفاس في حيرة حتى التقطت الأمّ الصرّة، وألقتْ بها مثل خرقةِ صوب باب المطبخ بعصبية. تناثرت أمامهم ملابس وفاء المغلية المجعّدة، بذلّةٍ، مع فرشة أسنانها المأكولة، مشطها، وقنينة الرضاعة.

الجميع من حولها يشكّ فيها. الجميع ينحو باللائمة عليها. الجميع يراقبها. احتارتْ بتعاملها مع النظرات التي كانت تُعزيها. كانت تحارب

مقت نفسها. تعاظم بوفاة أبيها. لم يكلّمها مذ أُطلِق سراحها. وهي خَشيته من صغرها،وخَشيث على أخيها منه، لدفاعه الجاهز عنها. كما خَشيث غضبَه من بكاء ابنتها المستمرّ الذي احتار الأطبّاء في تشخيص أسبابه، وخَشيث على زوجها منه. ظلّت نظرة الأب الصامتة كلّما التقث أعينهما تحفر في ذاكرتها منذ ثلاثين عاماً، وغادر، وهو ناقم عليها.

ترى الوجوه غير الوجوه التي أمامها، تراهم، وهم يرون لها وجهاً غير وجهها. (لا وقاحة، ولا صلابة تحت هذا الجلد، لو يدرون، ولا عار). رعب، لا غير. كانت تستجمع قواها من خلف الباب، كلّما همّت بمغادرة غرفتها، تجهد لتُظهرَ تماسكاً، يجابه الضعف الذي سيستقبلها في أعينهم.

يجري ماء نهر الخندق تحت الجسر الحديدي الأحمر ببطء ممزوجاً بمخلّفات السجن، مجاري المستشفى، وغسيل المقاصب. تبتعد عنه قدر ما يمكن، ولكنه يظلّ أحمر أمامها، يرتفع في منامها، ويصعد على المنحدر المتآكل، فيصبغ الحشائش على الجانبين، يسيل على القير مع الأطراف والرؤوس الطافية على الشارع، مع الحقن الفارغة والذباب، وهو يحوم فوقه.

ولم يبقَ ذلك الخصر دقيقاً، ولا رسمة خطّ الكحل الجرينة ذاتها، لا طلاء الأظافر، لا تسريحة الشعر المرفوع، ولا الأثواب السّتينيّة القصيرة الزاهية، ولا الروح المشرّعة للصحبة والمساعدة والحبّ. ثنيات في الذقن جديدة، وأفكار سود تجتاحها في فترات تأزّمها النفسي، ولا تعرف كيف تهرب منها. ليست على يقين. والبنت لأمّها! (تلك العبارة تخزها، وكأنها سبّة في الاتجاهين). يحتلّ الشكّ جزءاً كبيراً من تفكيرها. تشكّ في نفسها، مَن هي؟! تشكّ في ابنتها، وهو أمر في غاية الفظاعة، كيف يمكنها تلافي ذلك، في سرّها، كيف لو أنهم استبدلوا بابنتها أخرى بالفعل؟! من أين لها أن تعرف؟ جرت في الظلمة أفعال شنيعة. تُسائل أمومتها، تحاكمها، تقاضيها. تختبرها. لا إثبات، ولا نفي! تلعن الابنة، وتموت حبّاً بها، ويخيّل لها أنهما واحد مصدومٌ بنفسه، يصطدم بنفسه طوال الوقت، يصدم نفسه بنفسه حتّى يُدميها. تنظر إليها مليّاً في الصورة. ولكن عينيها الواسعتين لأبيها الذي لم تتحسّس أناملها الصغيرة معانيه، ولم تخربش أظفارها الطريّة خدّه. طولها الفارع لأبيها أيضاً، وتجعيدات شعره الأسود.

لم تستطع الخوض مع وفاء بشأن والدها. تجنّبت نظرات ابنتها المستفهمة دائماً. واجهت أسئلتها بنرفزة وانفعال، جعلا وفاء تكفّ شيئاً

فشيئاً عن سؤالها، وتفتش من خلف ظهرها. وتوقن أن كل ما جمعته وفاء هو نثار وألغاز، حارت المسكينة في فكّها.

ماما، أين التقيتِ بابا؟ تفزّ من نومتها، وكأن صقعة كهربائية أصابتها. متأكدة أن الصوت الذي سمعته كان حيّاً. تتلفت من حولها، إنها إحدى ألعاب تلك اللعينة حين كانتا وحيدتين، صوتها، وهي طفلة عندما كان السؤال يلحّ عليها، عجولة متسرّعة، ولا تملك أن تغفر لأمّها انشغالها، أو سوء مزاجها، أو امتناعها عن الإجابة.

التقته بواسطة شقيقها. مازح الجميع هذين الصديقين، وهما يقفان جنباً إلى جنب، بطولهما اللافت. شابّان يساريّان فارعا الطول، يوجدان ويتحركان سوية، في كل مكان. صداقتهما هي التي اعترضت طريقها. الصداقة التي أدخلته بيتهم، ودفعتها إلى اليقين من الطريق الذي سلكته حينها. الأخ الذي دَرَجَ على استضافته في غرفته، فراحت تنتظر في كل مرّة دخوله وخروجه من بيتهم. الصداقة التي أورثتها مرارة ما لحق بها. هل يحقّ لها قول ذلك؟! يا لضعفها! بل يحقّ لها ذلك، فهي تعلم بما يقال عنها من خلف ظهرها، رغم تعنيفها لنفسها.

تمكّنت القسوة منها، والمرارة مثل نعناع تجفّفه، وتسحقه لترشه على كل ما يدخل فمها. أحبت الطعم، وراحت تبحث عنه، أدمنته في الشاي الأسود الثقيل من دون سكّر، في لبّ البذور، وفي علكة "المستكة" التي لا تخلو ثلاجتها منها تُدوّر الحبات في فمها لتذيبها، تتحشرج بها، تتكسر مثل حبات رمل وزجاج، تتبعثر في الحلق قبل أن يُذيبها اللعاب مُسكّنةً كل مراكزِ تذوّقِها مرة واحدة. للمرارة فوائد لا تُعدّ، تكسبها الجَلَد، وتحسّن من الذاكرة، وتجلي القروح.

صوت وفاء حاد، يعود يلحّ من خارج غرفتها، من الممرّ، وهي تدبك بعناد على الأرض، ماما، أين قبّلك بابا لأوّل مرة؟ كيف؟ يسبح جسدها بالعَرَق، فتلقي الغطاء عنها، وتنهض إلى الحمّام لتبرّد وجهها وأطرافها.

لِمَ لمْ تظلّ في زنزانة واحدة معه، تحت سقف واطئ، وهواء خانق؟! لو تريّثا لأجل الطفلة، على الأقلّ، لو أنسا بالصندوق الذي تمّ قفله عليهما، الضيّق المظلم المميت بالهواء الذي يعيدان استنشاقه وزفره، ولا يمكن الفصل فيه بين الليل والنهار! ولكنْ كيف انعدمت الاحتمالات؟! كيف للطريق أن يكون واحداً، لا اثنين، أو ثلاثاً حيث تنتهي الخيارات، ومن دون تفرعات، تدلّ على حيوات أخرى، ولا بأس إن اقتضى الأمر أن يطول، أو

يتلوى؟!

دخلت سلوى إلى الحبّ، وهي لم تتمّ الثامنة عشرة عبر روحها، لا جسدها (الحواس شبه نائمة، لولا بضع روايات عربية ومترجمة، وكَمّ من الأغاني، ودزّينة أفلام، شاهدتها في سينما الوطن الصيفي، وسينما الميناء مع صديقاتها).في تلك المكتبة التي أنشأها اتحاد الشبيبة، ونَهَل الكلّ من كراريسها، ومن جدارياتها معرفة وأدباً (ديوان بابلوا نيرودا الذي وقع بالصدفة بين يديها، وأشعاره"بلعت كل شيء، مثل المسافة. مثل البحر مثل زمن، فيك غرق كل شيء"). وجدت نفسها منتصف قصّة الحبّ الأوّل والمكتبات والتلامس الخفيف الكثيف المدوّي. هناك انقذفت إلى أجواء مختلطة، امتحنتها. أخوها مَن كان يدخل غرفتها ليثفق معها سرّاً على مرافقته لحضور نشاطات الطَّلَبَة وحفلاتهم. لم تكن بالنسبة إليها نشاطات سياسية. لم تفكّر في شيء ما دامت هي في حماية أخيها، ومع شعبية الأجواء، ومعرفة هذا الجار، وتلك الصديقة. ومن بين الجموع، برز الصديق للمرّة الأولى، بطول قامته، وشعره المجعّد الأشعث. تابعها بعينيه المفتوحتين، فاشتعلت دواخلها. أطلقت اللعنات في داخلها، وشتمت حين ضرب قلبها بشدّة، وارتبكت أحوالها، ولم تفهم. لم تجد مَن تسأله، لظنّها أن الأمر مُلِحّ، ولكنه سيزول. صورتان كانتا ترافقانها في هذا المحفل الصاخب والحديث الحماسي الدائر، صورة الزعيم عبد الكريم، وأخرى تتسلّل آخر يومها المزدحم إلى الفراش، وتنام على الوسادة.

وارتبكت حين تسلّم الشباب من زميلات وزملاء الأمر الفجائي بحظر نشاطهم، وحلّ مكتبة الاتحاد بكل فروعها، في المقاهي التابعة لها وقاعاتها. استنفر الجميع للقيام بالمهمّة، وراحت مطيعة للإشارات منهمكة بإخلاء الرفوف معهم. وقف هو هناك على أهبة الاستعداد، كما بدا لها.

حدث تماس، تسبّب في حريق، كما مازحها أخوها، وهو جالس على حافة سريرها في الغرفة. المحلّة الشعبية الصغيرة والهمس، وهو غريب عن البصرة، ومعارضة الأب ووساطات الأخ لدى العمّ والخال. ولم يأخذ الأمر طويلاً حتّى أصبح والد ابنتها وفاء. كابوس حقيقي، عاشته ليل نهار. حبّ عاجل سريع يعترض حياتها في التاسعة عشرة من عمرها، وسرعان ما يُنبِت وفاء في بطنها، ويحول دون العيش بطبيعية مثل الآخرين والأخريات.

بردٌ، لا تعرف كيف تصفه اليوم. على اختلاف التسميات التي سمعتها،

والتقييمات التي تمّ تناقلها بين ثورة وانقلاب، فالحماس الذي ألهب الناس بعد ١٩٥٨ تراه اليوم بعد كل هذه السنين بركاناً خمد بعد أن أصاب روحها بندوب وحروق. حين فزّت صباح قيام الثورة، قفزت من السرير بخطوات سريعة إلى منتصف الحوش لتتبيّن الأمر. أيقظها نحيب أمّها. كان نصف الحوش مشمساً، ماج الغبار بأشكال أميبية داخل شعاع مائل عريض، وهرعت القطّة إليها محتجّة حين انطلق المذياع مجدّداً باثّاً الخبر بصوت عال. ارتفع صوت بكاء أمّها حزناً على عالية أمّ الملك، نَعَتها بصوت، لم تألفه من قبل. راحت سلوى تبحث عن أخيها في أنحاء البيت، فلم تجد له أثراً. ظلّت في حيرة، وهي حبيسة أجواء متضاربة. منعها الأب خلالها من الخروج، وطلبت الأمّ منها أن تعدّ شاياً من جديد، كما لو أن العرس المنتظر قد تحوّل إلى مأتم! تعبر الجارات الواحدة بعد الأخرى عتبة باب بيتهم العالية، يبرزنَ من خلف الستارة بصمت، الواحدة بعد الأخرى يتجمّعنَ في الحوش، يشربنَ الشاي، ويتبادلنَ الحديث عمّا جرى، وهنّ يشاركنَ بعضهنّ الحزن على الملك وأفراد عائلته.

كان بسيم سيلجأ إلى صيد السمك في حالته النفسية هذه، عندما يضيق صدره والأفق معاً. ذلك متعذّر حالياً. هو أيضاً استمرار في تلبية حاجات الطفولة البريئة، وتكريس لمرحلة التبرّؤ من كل شيء. بسيم كائن مديني، وإن قضى طفولته بين البساتين والأنهر. فمن أجل ممارسة وحدته التي يحتاجها، ويتشبّث بها، اعتاد بين الحين والحين أن يركب الدرّاجة ليبتعد، وليقصد أقرب مساحة مائية، أو جرف. يضيق شطّ العرب، ويتّسع، ويتفرّع كلّما واصل سيره، وتغلغلَ محاذاته. كيف يهدأ ويرتخي في غضون مشوار؟! عجيب فعل الطبيعة! يختار جرفاً معزولاً، يختلي فيه مع نفسه بمباركة البيئة المسالمة الصامتة. يقضي ساعات بدائية بتفاصيلها، مع قصبة وخيط وسنّارة، يتلهّى بعجينة وديدان، يجمعها من بين كثبان طينية زلقة. تحطّ الطيور، وتدنو، وتغيّر رأيها. حركة الماء هادئة، تدنو، تنحسر بإيقاع مهدهد. الطبيعة تحدّثه من دون صوت، في انبساط السطح المائي أمامه، وتماوج الطحالب عند الجرف، الضفاف الخضر الممتدّة مقابله، وحتى مشاهد السفن الغارقة التي يبان جزء منها. كل شيء يروي له قصّته بصدق وحيادية، كيف كان، وما آل إليه، ومن دون وسيط. وهو يرقب سطح الماء، يكتشف كل مرّة أن بإمكان الصمت أن يعالج قضايا كبرى في الكون، مثل حُرّيّته التي تخيّلها يوماً في قبضة يده، كما قرأها على يد سارتر وكامو، ولم يفهم الكثير غير أنها متحقّقة، لا جدال في ذلك.

أيّ أرض تتّسع لهمومه؟! وأيّ سقف ينشقّ، وينفتح أمام ندائه؟! إنه ولا شكّ يتعالى على خيبته بينه وبين نفسه، يلخّص اندحاره، بوصفه محض حلم (وإلا لما استطاع كبده التعبان أن يقاوم).انحسرت تلك الامتيازات الآن، (ها هو يخاطب نفسه، إنها الوحدة). في الكبر، لا تأبه لشيء، لا تأبه لكونك إنساناً مملاً، تقرأ ذلك في وجه مَن يقابلونك، الأهل لا يرون غير القسوة والاستبداد والعزوف فيك، والنساء يعبرنك الواحدة تلو الأخرى، ولا يجدنَ في شخصك ما يثير الفضول (فيما لو كنتَ حلقتَ شاربك، أو شذّبتَه على نحو مختلف، أو حدّدتَ سالفيك بعناية شديدة). ربّما لا تتخيّل امرأة أنه يعدّ عضلات وجهها حين تبتسم، أو يدرس تجاعيده المبكّرة،ولا

تتخيل قدرته على اختيار لون ثوب زاهٍ لها. لطالما تمنى لو تجلس بين يديه امرأة، يلقي بمنشفة على صدرها، يرفع شعرها من الخلف ليُحكم عقدة المنشفة، يغسله لها، ويشرع في قصه، ويظلّ يسرّحه لها، لزمن مطلق!

ما الذي سيقوله لهاني الليلة؟ لا يدري! يزفر طويلاً. يحاول أن يلين عضلات وجهه التي يشعر بها متشنجة. هناك صدأ في الروح، يخشى أن يظهر على هيئته، يشعر به كلّما فرك صدره المنقبض. سيحاول أن يغيّر من مسار علاقتهما الليلة. يعلو صوت داخلي ساخر. لن يدع هاني يغادر من دون أن يتعرّف إليه. سيحدثه عن بسيم العازف عن البوح بسرّ ذلك الفتى الذي قمعه في داخله، في أوج نشاطه الاجتماعي. لا يعرف هاني عنه شيئاً،(لا شيء غير الدشداشة والغترة التي عليه، والوجه الجافّ الكئيب). ولا يعرفه الغير. لم يبقَ من صديق، أو زميل، يتواصل معه. جيل غريب يفصل ما بينهما، فاصلٌ بفعل ثقب أسود. الكلّ اغترب، وتغرّب هو بدوره عمّا حوله، ولم يبقَ هناك ممّن يتقاسم معه ماضيه البعيد.

أحبّ الحياة والاحتكاك بالناس والمتعة في الحصاد. لكن الكثير اختلف منذ الستّينيات. الحصار الاقتصادي وويلات العوز والفاقة فرضت شروطاً مغايرة تماماً (الظرف يستنبط طُرُقاً جديدة في المقاومة). استمرّ منحنى الأمان لحياته بالصعود والنزول مذ أن ابتعد عن السياسة إثر أحداث العام ١٩٦٣ واغتيال عبد الكريم قاسم.

عاد من بغداد إلى البصرة بعد تخرّجه، وانطلق في البحث عن وظيفة. تعذّر الأمر، ووجد مع بضعة أصدقاء ضالّته في فكرة بديلة، وشكلٍ آخر للعزاء. الأغنياء من أعضاء جمعية الاقتصاديين والأصدقاء تبرّعوا من أجل شراء قطعة أرض جديدة في منطقة جديدة. بنوا لهم مقرّاً جديداً بحديقة واسعة جداً، استوعبت عوائل البصرة على اختلاف طبقاتها وانتماءاتها: صارت الجمعية ببساطة انطلاقته في يومه، المكان الذي منحه هدوءاً، وأعاد إليه بعض حماسه. وصفةُ توجّهٍ ديمقراطي، وجهةٌ مستقلّةٌ يحلم بها. حرَص مع مجموعة من الشباب على جعل القاعدة أوسع وأكثر انفتاحاً، الجمعية منحته الهويّة عن إيمان حقيقي، ضاع منه اليوم، كما ضاعت تلك الروح وأصحابها. نبض جديد، وأجواء جميلة، شِعر وموسيقى وفنّ، حفلات شهرية صيفية وشتوية، وسفرات داخلية وخارجية، تعد الناس بالكثير الذي يأملون به. حافز ما يزال يدافع عنه بذات الإخلاص، كلّما صادف وأثير النقاش بصدده. الحياة نحت منحى، جعلني أغفر لها قسوتها،

وهو يستذكر مع سلوى تلك الأيّام التي تعارفا فيها. حديث مصير وأقدار وفردوس مفقود. (ولكن موضوع الغفران موضوع قديم، له جوانب عدة، يخصّ الكُتُب الدينية، في الغالب). وهو يغفر لمَنْ؟! ظلّت الجملة تدور في ذهنه. المرأة لا تغفر مثل الرجل. قالها، وهو ينظر إلى سلوى مباغتاً نفسه. كان شبه متأكّد من جوابها بالنفي، أو الاعتراض، وربّما خطر بباله أنها لن تُجيبه بصدق، لن تستطيع أن تقول له ما إذا كانت قد غفرت لكل مَن تسبّب في إيلامها. لكنها بدت مرتبكة متوتّرة من دعابته، وتخلّل ذلك صمت جدّيّ وبارد، فتابع محاولاً تلافي الخَلَل في زعمه: تخيّلي حتى البعثيين ذاتهم أظهروا إنسانية وتقبّلاً حينها، أوّل السبعينيات وأيّام الجبهة،كما تعرفين تقرّباً منهم، ومحاولة لكسب الناس!

ورغم مواصلته الحديث اضطراراً، لم يسبر سرّها. لم يستطع أن يخمّن ما كدّرها فجأة، وما الذي كان يدور في رأسها. شعر بتراجعٍ ما من قِبَل سلوى، وعزوف.

مع سلوى، دام سواد ٨ شباط سنوات طوال. لم تسمع عن زوجها شيئاً. اقتادوها إلى مركز العشار، ولم تعلم إن كان قد اقتيد إلى مركز الرباط أم ملعب الميناء. كما لو أن المحلّة قن دجاج، هاجمته مجموعة ثعالب. لم تر الناس أثراً في أزقّتها غير ريش منتوف، وبضعة عظام خلال ساعات. هكذا انقضّ رجال الأمن على البيوت. اضطرّ الأخ إلى الاختفاء لفترة أيضاً. قبع في البيت خشية القبض عليه، لذا لم تفلح في الحصول على ردّ واضح في السجن على رسائلها. فنعت المواجهة لفترة طويلة، ولم تصلها إلا رسائل شفوية من أهلها، لم تحمل غير سؤال وسعي للإفراج عنها قبل النقلة الأخيرة إلى سجن النساء. انعزلت حينها تماماً، وانقطع كلّ شيء لحين يوم الإفراج عنها.

لم تجده في استقبالها، ظنّته مات لأوّل وهلة. اعترتها رجفة، شهقت، وخفق قلبها. لم يستقبلها غير أبيها الذي وقف على مسافة من المدخل تحت أشعّة الشمس الحارّة بانتظارها. وعندما وصلا الشارع العامّ لاستقلال التاكسي، وجدت أمّها تقف بانتظارها ملتفّة بالعباءة. حاولت أن تعدّل من مشيتها قدر المستطاع لئلا يلحظان صعوبة مشيها باعتدال. الجرح بليغ، وملح تعرّقها حارق. خصرت الطفلة بينهما، واختنقت، وهما متعانقتان تنشجان. قد مرّ شهران على الإفراج عنه، همست الأمّ في أذنها، من أجل طمأنتها خشية أن يسمع الوالد شيئاً.

تحرّك بيت أهلها الساكن قليلاً بعد وصولها. خلسة وبصمت، دخله الناس المقرّبون، بحرص على إنزال الستارة من خلف الباب عند الدخول، وعند الخروج. موجات حزن صامتة متتابعة، تبادل نظرات عتب وتوجّس من قرع الباب. تستثمر طاقتها المتبقية في كبت نرفزتها. تفزّ من نومها، تتحسّس الفراش الذي هي فيه. كأنها غائبة عن المكان بوعيها. تستلقي منهكة مع رضيعتها على السرير، تسمع ولا تسمع، يأتيها صوت صلصلة صحون بعيدة من المطبخ، تشعر بمرور الأمّ، وخروجها من الغرفة، تشتمّ رائحة رطوبة وعطن غريبين، وتبتسم في سرّها لخربشة قطّتها العنيدة عند باب الغرفة.

حين دخل زوجها الغرفة في أوّل لقاء لهما بعد السجن، انخرطت بالبكاء. جلست على طرف السرير، تخفي وجهها بين كفّيها. فاجأها حزنها عليه، لما آل إليه. دنت الأمّ لتهدّئ من روعها. ظلّ واقفاً منكسراً أعزل في مواجهتهم، تخيّلته يعبر خطاً من النار، باختراقه الحوش من باب البيت إلى الغرفة بعد رفض الوالد لمجيئه. منع دخوله البيت، لولا عنادها ومحاولات شقيقها، لما سُمح له بالمجيء. كانت تسمع من خلف الباب مناوشاتهم، ولم يحُل دون صراخها غير غياب صوتها، أو انعدام تلك الطاقة تماماً. حمّله الأب أسباب الفضيحة التي ألمّت بهم، والأذى الذي لحق بها، وتصادم مع شقيقها للسبب ذاته.

ناولتها الأمّ كأس الماء. هدأت، ومسحت وجهها المتعرّق. لا تذكر أنها رأته بهذا القميص. سرى رعب مثل البرق في جسدها. خشيت أن تفكّر بما تحت القميص. ما أبقى على وجهه ذاته هو شعره الكثيف حسب. على يقين أنه مرّ بالحلاق قبل مجيئه. وحين انسحبت الأمّ من الغرفة، وأطبقت الباب من خلفها، رفعَ قدمه بثقل من على الأرض، وتحرّك تجاهها. تقدّم خطوات ليجلس على حافة السرير قريباً منها. سبحث في عَرَقها، وسبح في عَرَقه، وما إن دنا قليلاً حتّى انبعثت منهما رائحة سجن، تميّزها، مثل حيوانين في حالة فزع. لم تتمالك نفسها ما إن وضع يده على خدّها. انفجرت بالبكاء من جديد، وتبعها هو. راح جسداهما يختصّان بقوّة.

جاء ومعه طبيب زميل لهما في الزيارة التالية. حيّاه الأخ بحرارة. جلسوا يتحدّثون بصوت خافت، باقتضاب وتفاهم خفيّ عمّا جرى. ذُكِرت أمامها أسماء كثيرة، تعرفها، تعرّضت لما تعرّضوا له، سألوها عن أسماء ومكانات. وعبارات تشدّ من أزرها. ولكنْ كيف؟!

وحيدة في ما لحق بها، وستكون وتظلّ وحيدة مع مصيرها. أفزعتها المرآة، أوّل اصطدامها. فقدت نصف وزنها، وملابسها واسعة، ولكنها لا تخفي ضلوعها البارزة. لم تتآلف بالمقابل مع أهلها، ولن تشعر بالراحة في مكان. كيف حصل ما حصل؟! ألحّ في داخلها السؤال، يهتزّ شيء في صدرها يخضّها. تتمنّى لو اتّصل أحدهم بمَن رافقتها في السجن، لكنها تصرف النظر عن الفكرة في الحال. لا تريد سبيلاً إلى كلّ ما فات، ولم تسأل عن أحد. كل شيء بدا غريباً، السرير، الحمّام، الطعام، وما يدور من كلام. فجأة حصل قطعٌ مع ما حولها، لا تعرف ما هو، لا تُقدّر حجمه، ليست على يقين منه. شعور مؤذ، أخذ يتوضّح يوماً بعد يوم، زادها عصبية وعدائية. فحص زميلهما عينيها، كتفها المخلوعة، وضغط على رضوضها.

استمع إلى نبض قلبها، وطلب منها الاستدارة، وأخذ نَفَسٍ عميقٍ لينصت عبر ظهرها إلى رئتَيها. خشيث يديه، وهما تمسّان جلدها، والكلمات قليلة لئلا يتنضت أحد ما إليهم. الجميع مرعوب. تظنّ الخلع حصل في أثناء الولادة، لا قبلها. لتعسّر ولادتها، شدّت إحدى السجّانات كتفَيها إلى الأرض بعنف، في أثناء مخاضها. رأى ضرورة أن تفحصها طبيبة أمراض نسائية، في أسرع وقت.

ترمق زوجها، بينما تجيب عن أسئلة الطبيب زميله. يقترب من طفلتهما بحذر. يتأمّلها، وهي في مهدها، يحني رأسه تجاهها، يغافلهما ليمدّ يده الراجفة إليها، يتحسسها من خلف القماط، ويسحب يده ما إن تأتي الطفلة بحركة مفاجئة.

أبوها في أثناء الزيارتين بدا مثل رجل خرف، يدور في الحوش، وهو يلعن الكفر والإلحاد بصوت عال، يروح ويجيء، ويضرب على الباب.

القال والقيل على أفواه النسوة، حذر الأقارب والصديقات وابتعادهنّ، شعرث بالاختناق من أجواء الغرفة، وبيت الأهل بأكمله. تنتظر اللحظة التي تخلو بها مع نفسها من دون سماع كلمة من أحد. تنتظر العودة، لكن الأجواء مكهربة، والحَرَس القومي ما يزال في حومانه. حتّى جاء الزوج أخيراً بتاكسي لينقلها مع الطفلة إلى بيتهما. ورغم الاعتراض والمشادة أوّل الصباح، بسبب انتقالها، تبادلوا قُبلاً وكلمات. فسحوا لها الطريق لتمضي معه. تَقدّمَها يحمل الأغراض، وأسرعت الأمّ لتُلقي بعباءة فوق رأسها قبل أن تظهر إلى الشارع، وتدخل التاكسي.

انشغلا ببيان ولادة الطفلة التي تراجعا عن اختيارهما السابق لاسمها، "وفاء" بدلاً من "جماهير". حاولث كثيراً من أجل أن تمسح "جماهير" من ذاكرتها (من الأسماء الشائعة للبنات حينها). صورتها، وهي في بطنها، اختلفث تماماً، أو ربّما الاسم هو الذي رسم لها صورة أخرى. بطنها المملوء بالأحلام. بطنها الأحلام المشتركة تدعوهما للضحك والرقص والانتشاء. بطنها الملتصقة بصدره، وهو يرفعها، ويدور بها، ويقبّلها. جماهير كاملة تحرّكت في داخلها، كبرث يوماً، وصارت جموعاً مثار سخرية لها في السجون. خافث مِن القادم. أصابها نفور من بطنها. خشيث أن تلد كائنا ناقصاً، أو غريباً. نفورٌ لم تستطع قمعه إزاء ما تحمله، فلم يكن هناك من محلّ له في السجن. كوابيس وأحلام لا تجد تفسيراً لها، تمسك ببطنها، تنود، وهي تستنجد به سزاً. تعال، وخذْ ما حشوتَ به بطني. تعال، الله

يخلّيك، وخلّصني منه.

غريب كيف اختلف كل شيء! كيف يمتلئ الإنسان، ويفرغ! كيف يكون وحيداً جداً! غريباً عن نفسه، في العمق تحت كل طبقات الملابس وتحت الجلد، مثل لقيط مُلقىً خلف أكوام قمامة. لا تبارح الأنف رائحة البول والرطوبة والعفن، وهذا الذي يشبه حلم يقظة ظلّ يتكرّر لاحقاً شعور مُفاجئ يتملّكها، رغبة لا يمكن قَتْلها، أن تلد من جديد على شرشف أبيض في مستشفى مُعقّم. تحلم، وهي يقظة أن تطلع الطفلة ثانية من بطنها، وتسقط بين يدي أمّها، أو يدي القابلة، أو يديه. أن تسمع صوت أدوات طبّيّة تسقط في صينية معدنية، أن يظلّ صداها يتردّد في الفضاء، وأن تشمّ رائحة ديتول قوية وإسبرتو. خشيت النومَ لئلا تختفي الطفلة. لئلا تُباع. شيء غائم لكابوس، لم تفق منه بعد. مَنْ هي بعد شهور السجن؟! النظرات تلاحقها، وقع الأقدام في الدهاليز والقادم المجهول!

جمعهما البيت بعد فترة السجن مع المولود، الفرد الجديد يفصل ما بينهما. العائلة الجديدة. ولكنْ مَن هو هذا الذي لا يكاد ينام إلى جانبها حتّى يفيق وينهض مبتعداً. متقرفص في أقصى الطرف من الفراش، إن خلد إلى النوم. الذي برزتْ عظمتا وجنتيه، ومحجرا عينيه، الذي يبحلق في الطبق، الذي يرتدي عويناته وملابسه بأكملها، ويجلس على الأرض عند عتبة باب المطبخ المطلّ على الحديقة الصغيرة من الفجر، وحتّى تدور الشمس، وتؤذي بحرارتها رأسه، وهو يحرق السيجارة بعد الأخرى متأهّباً للفرار. وتلك(عصفور لحيمي) جاءتْها في عام مشؤوم، طلعتْ من قشرتها تصرخ بمنقار مثلوم. تدور بعصبية بين الاثنين، هل يراها حقّاً؟ هل يرى الكائن الموجوع الذي يروح ويغدو أمامه في البيت؟ هل هذه هي "جماهير" أم استبدلتْها السجّانة بأخرى في أثناء غفوة قصيرة لها؟ ما الذي يجعلها تبكي بفكّين مرتجفين وشفتين زرقاوين، لا يختلفان عنها، أبوها برجفته، وهي بقشعريرة خفية، لازمتْها طويلاً، وعينين منتفختين؟!

السجن هو التجربة الوحيدة التي ربطتْهما معاً زوجاً وزوجة، والأمر الوحيد أيضاً الذي لم يجرؤ أحدهما على الخوض فيه أمام الآخر. لم يتمكّن من الاقتراب منها. خاف أن يسأل. لم يُكمل من حيث توقّفا، اختفى فضوله الذي أبداه بمرور أيّامهما الأولى معاً، باكتشاف جديد يخضّهما كل يوم، تبدّد كله، ومات. لا حرارة في جلده، لا ورم في شفتين دافئتين، ولا قدح في تلك النظرة التي كان يخضّها بها، ولا حياة في صوته، وهو يكلّمها. لا شهية، ولا إقبال على شيء. تحرّكا مثل جروح مكشوفة، يدميها

الهواء. حملت هفه إزاءها. تحسّسته في نظرة عينيه المتهزّبة، وفي اختلاقه للأسباب، للبقاء عند العتبة، وفي تجنّبه للطفلة، وابتعاده عنها. وبإمكانها أن تقرأ في عيون النساء السؤال إيّاه. نظرات تخترق جسدها لتبحث عن آثار إثم. تراه في عيون الأمّ والأخ، وجعاً ما، وعطفاً يجعلها تحتدم.

ولكنّ... يصرخ في أعماقها صوت ليتقدّم هو بين أربعة جدران، ويسأل لينضو قميصه، لترى، ليدنو أكثر، ويتحسّس جرح الروح تحت الغطاء، وليشتبكا معاً بألم جرحيهما.

خجلث من نفسها، انكمشث، ولم يفضح ذلك غير وفاء التي كبرث. خطوتُها العرجاء! تسمع ضحكاتها الساخرة الآن (وكيف لم تعرفي، بربّكِ، ما أقدمتِ عليه؟). وفاء امتصّتها تماماً، شربثها، وتحسّست طعمها، وفككث مكوّناتها، وهزأث منها. اخترقثها، مزّقثها، وداست الجرح، وذرّت الملح، وأيقظث رطوبة قاع المكان القذر الذي انزلقث فيه. كشفث رعبها، حاكمثها في سرّها لإخفاقها، لفراغ مكان أبيها، ولمقتها له، محكمة ظلّت مفتوحة إلى الأبد.

بين يديها برتقالة كبيرة ذات رائحة نفّاذة، استنشقثها مرّات ومرّات حدّ الاختناق. قضمت القشرة بأسنانها لتفتحها. قشّرثها بأظافرها، وراحت تلتهم القشر بين أسنانها قطعة قطعة حثى أتث عليه بأكمله، من دون أن تتنبّه إلى حالها. سحقت الأنيابُ والضواحك القشرَ، وانبثقت مرارة الزيوت في الفم، دارت تحت اللسان، وفوقه، في اللهاة والجوانب، غلّفث داخل فمها حتّى أصابثه بالشلل. هدأث. نهضث بتمهّل من مكانها، وألقت بلحمة البرتقالة المعنّفة في القمامة. لو تقول لوفاء الآن إنها تشتاقها بحرقة، تودّ بشدّة أن تراها. أين اختفت؟ ويل إبليسها. تعبر الهاتف، وهي تنظر إليه بوهن، بيأس شديد.

كلاهما سجين المكان نفسه، مكان لا يكاد يسمح دوماً لتنفّس اثنين. أ لم يكن ذلك هو السبب عينه في انفصالها وطلاقها عن زوجها، والد وفاء؟! تلك الحقيقة تهوّن على بسيم أيضاً. وكأنه يدفع عن نفسه تهمة، أو يرتاح لواقع، فرض شروطه، وليخلي مسؤوليته عنه. سلوى تكاد لا تطالبه بشيء، لا تحسّسه بذنب، ولا أدنى تقصير. قصص حياة متشابهة ومصير وخيار واحد (أن تنهي ارتباطها بسجين لترتبط بآخر، لا يختلف كثيراً عن الأوّل).

في عينيها اللتين تلمعان ما تزال رغم الكبر شكوك وأسئلة. يحبّ بسيم نظرتها تلك، وهي تعكس حدود ما تجرؤ عليه. تشدّه أحياناً كثيرة من دون أن ينتبه. يجذبه خجل فيها رغم مقاومتها لتُظهر العكس. داخله يبتسم إزاء محاولاتها استعراض جرأة، تناسب عمريهما.

تلفّ وتدور في حديثها حين تحاول أن تنتزع منه اعترافاً ما، وهي تعيد المحاولة في أن تُرجعه دوماً إلى النقطة عينها. يفهم بسيم ما بداخلها، ولكنه لا يستطيع مساعدتها. يعلم ما تريد أن تسحبه منه، ولكنه وإن قالها لن تصدقها. في الوقت ذاته، يعترف بداخله بالنشوة والدفء اللذين تبعثهما في قلبه. إنها تذكر كل تفاصيل أيّامهما معاً، وكلماته باقترابه وابتعاده. غاب الكثير عن باله، حتّى تلك السُّفرة التي التصق فيها جسداهما أكثر من مرّة، فألهبته. نسي كيف انجذب حينها إلى تدويراتها التي لم تتردّد في كشفها، أو صعب إخفاؤها، تُفاجأ بحضّة تلك الذكريات لديها، وتُفاجأ أكثر بحضّته منها. ذاكرته تخونه، شيء مضمر ما يضمن له البقاء بحالة سوية. ولكن ليس هذا، سلوى شبه أكيدة من رفضه لها، وابتعاده لأسباب أخرى، يدور شقاؤها حولها، ويحول دون صفاء أجوائها وإبطال قلقها، بينما كل ما يذكره هو أن حياته دارت حول عائق واحد، هو الفقر، هو ذاته الشيء الملخ الذي كان في ذهنه حين التحق بكلّية التجارة في بغداد، وحين عاد بعد توقّف الدراسة ليُنهيها بإصرار. أن يتخلّص من هذا الفقر اللعين الذي عاشه أوّلاً، لم يكن لديه مجال للتفكير بشيء آخر.

تهيمن روح السخرية على أبي حارث، يستخدمها أحياناً لدفعه

للحديث. يُكثر من نقل الأخبار والقصص المكرّرة والنكات البذيئة. يُدخله في سجالات، لا ضرورة لها، أو متعة فيها. لكن بسيم الذي لا يثق كثيراً بمَن حوله، وثقَ به، ودخل في شراكة معه، وأدرك مدى أمانته. تعاطفَ أبو حارث في ماضيه مع الفكر اليساري أسوة بالشباب الجامعيين آنذاك، برغم عائلته التي كان يصمها أصدقاؤه الثوريون بالبرجوازية والإمبريالية والرجعية. لم يدخل تنظيماً سياسياً يوماً، لا معارضاً، ولا غيره. ظلّ أبو حارث يناور من أجل أن يحافظ على حياته مستقلاً بعيداً عن السياسة والدوخة التي ترافقها، والأهمّ مستمتعاً بالحياة التي يشعر أنها كانت دوماً تضنّ عليه بذلك، وكاد أن ينهي حياته بنفسه يوماً لحمقه. تفث محاربته بضراوة حتى تمّ الإيقاع به حين وُجّهث إليه تهمة الخيانة، واضطرّ بسببها إلى التواري لسنوات قبل عودته للظهور، بشكل علَني، والعمل في مجاله، من جديد. (هؤلاء الأوغاد، القنادر كما يصفهم).

لم يكن منتمياً للبعث، ولولا توسّط ابن عمه، الكابتن البَحري الذي كانت الدولة تستعين به، بصفته من أهمّ المرشدين الملاحيين، ومن الأوائل الذين ساهموا في بناء أهمّ الموانئ البَحرية والنفطية في البصرة. لولاه لما بقي على قيد الحياة. من الغريب تعرّضه لتهمة من هذا النوع، بينما كان هناك ما يشبه الاستثناء من الضغوطات والملاحقة قد شمل عائلته البصرية العريقة تلك، المستقلّة بطبعها. عدّت عائلته الحَدَثَ بمثابة حدّ فاصل لما قبل وبعد، (أن الحكومة لم تعد تقيم اعتباراً لشيء)، ما جعل أفرادها المترفين يفرّون خفية، الواحد بعد الآخر من المدينة، ومن البلد بأكمله، باستثنائه، أبي حارث الذي لم يفكّر يوماً بمغادرة البصرة.

بسيم لم يترك السياسة اختياراً، ولا اضطراراً، يقول إن الحياة تنوب في أحيان كثيرة لتفعل ذلك، لتأخذ القرار بدلاً عنه، وعليه أن يثق بذلك. ولكن أبا حارث يتّهم بسيم ساعتها بالمكابرة، ويفضح تناقضه في تصنيفه لنفسه. إنه ما يزال يتحدّث بترفّع عن نفسه، يضع متعالياً ضمناً فاصلاً بينه وبين الآخرين. وأبسط الأمثلة التي يضربها له، وهو يمزح (بصوت لا يحتمل بسيم علوّه دائماً) مدّ خطّ هاتف إلى المنطقة الزراعية التي بنى بسيم بيته على أرضها، منطقة بعيدة خالية من الخدمات تماماً، كان من شبه المستحيل تحقّق مَدّ سلك واحد، أو عمود كهرباء، لولا عقود عملهما مع شركاء، من تجّار ومستثمرين انتهازيين، وجشعين.

ليته أدار الحوار معها بصوت عال! نعم، الحياة ليست كما رأتها داخل الكُتُب، وسمعتها على ألسنتهم. لم يفكّر بسيم بالمصير الذي كان ينتظر

أخته. لم ينبهها إلى ضرورة مراجعة المثاليات التي دافعت عنها (ما قاله أبو حارث صحيح، فالعديد من المهمات أجبرته لاحقاً على مصافحة أيادي أناس، كان مختلفاً معهم كل الاختلاف). لم يتجاذبا الحديث بهذا الشأن. فكّر بأنانية الأخ الأكبر، بأولوياته، بوفائه والتزامه بالحزب. كان تابعاً مثلها، لكن اندفاعها كان مثالياً، وهو لم يعلن أمامها عن تراجعه في داخله، ولم يكشف لها عن شكوكه. كانت تنشد حياة ذات عمق وعراك وكفاح، وإيمانها الكبير بالقدرة على تحقيق ذلك وثقتها بنفسها يحضران بقوّة بين فترة وفترة في ذهنه، يزعزعانه، كان يظنّ أنها تُقلّده، تُقلّد الآخرين، ولكنه كان على خطأ، ولم يأخذ ذلك على محمل الجد، بما يكفي، يصدمه إدراك ذلك لأنه يُريه دواخله. يصدمه أن أخته وزوجها بإقبالهما المميّز على الحياة راحا من دون أن تتغيّر قناعاتهما، بينما هو في شك وتراجع وهروب مستمرّ. ظلّ صامتاً مكابراً. ولكن ما كانت قيمة كل ذلك؟! فهي قد فقدت حياتها، ليته أمسك بها من يدها، وجرّها بعيداً عن الجحيم، وهي في أوّل طريقها، لا. يظنّ أنها لم تكن قد لامست واقعها الفعلي بعد.

كل ما كان بمقدور بسيم فعله لخاطرها، هو الهروب بصغيرها، ودفن أثره. ولم يفلح في إسعاده. غلا الحزن محيّاه، سنة بعد أخرى، وها هو يدفعه عجزاً إلى الهرب ليتخلّص من تأزمهما كلّما التقت نظراتهما. ضاق به، شيء من كراهية زرعته زوجته فيه، ولم يستطع تبديده.

كانوا ينتظرون ظهورها مع كل عفوٍ يصدر، وفي كل زيارة لسجن، يعتقدون أنها انتهت فيه. لم تأتِ محاولاتهم بنتيجة في معرفة مصيرها، تعاسة قصوى أن يبقى في انتظار سماع صوتها، أن يأمل بعودتها، ويخشاها، في الوقت نفسه. يخشى أن تعود، وتلومه على محاولاته المخفقة مع ابنها المريض. كما يخشى أن يخيب أملها، وما آمنت به، إن عادت، وظهرت، واكتشفت أسلوب الحياة الذي يعيشه، (مثل الأمّ التي صدّقت المقولة "لن تبقى صريفة واحدة، ولا فقير). ساندوه في فكره، وتفهّموه حين كان يشرح لهم بإسهاب عن حقيقة مطالب الناس القريبين إليه. صدّقوا كل حرف مما قاله، حتى ظنّ معهم أن اليوم الذي سيكنس فيه هذا الحيف قريب.

أيّ حيف؟! هل اختلطت الأمور عليهم، وصعب فصلها؟! ياه!... ينظر إلى السماء، ويعجب من الوقت الذي مرّ، وتقلّباته، ليس القسم الذي قطعه، ولكنها النظرات التي تبادلها مع أمّه حين جلس قريباً منها، التي أكّدت إيمانه بما يفعل الخطأ والصح خلف ستار. ذلك الهدّ الذي اكتسحه! حماس

الشباب وثوابته. القصائد الحسينية التي يخطّها لأمّه بيده، وما يردّده من أبيات، تُلهب العاطفة، وهو يتقدّم الموكب الحسيني في شهر محرّم عاري الصدر هادر الصوت (نصوص حسينية، ولطميات، تجاور أخرى يسارية ثورية، كانت تبعث الحماس لدى الشباب).

عاشت عائلة بسيم لحظات رعب مخيفة، في غالب مراحل حياتهم، من الانقلاب على الملك في الخمسينيات، وحتّى التسعينيات، وانطلاق الانتفاضة.

في الفترة أعقاب انقلاب شباط، تحت سطوة الحَرَس القومي، وبحثهم المسعور عن معارضيهم، كان بسيم ملاحقاً في بغداد، وفي بقائه في البصرة خطورة بالغة كذلك.ولم يتحرّك أحد غير أمّه لثعينه في مأزق العائلة التي زجّها فيه.

هرّبته إلى أقارب لهم في المحمرة في عربستان خفية. تركته هناك كي يُنسى أمره لفترة. لم يكن قد فكّر في هذا، وهو لم يعرف هذا الجزء من نسب العائلة. التزاور بينهم بين مَدّ وجَزْر، تحكمه علاقات البلدين والعائلتين. لم يبقَ من الأواصر ما يُمتّنها. ربّما هو الوحيد الذي اختزن في ذاكرته قاموساً، لا بأس به من اللغة الفارسية مقارنة بأخوته. "زور نادارا"، نطقها الأب فجأة بالفارسية متعكّزاً عليه، في أثناء نقله إلى المستشفى قبل وفاته!

كانت أمّه تتلفّتُ طوال الطريق في ذلك المشوار الشاقّ، والعَرَق يسيل على جانبي خدّيها، مُتلكّئة من أجل أن يلحق بخطواتها السريعة على الطريق العامّ. يتخلّف عنها بأمتار، بسبب عرجه، بينما يسمع لهاثها، حفيف طبقات ثيابها، وجانب عباءتها السوداء في فمها، وهي ترفع أطرافها لئلا يمسّها الماء. صورة لطفل يجري خلف أمّه، يخشى أن يفقد أثر عباءتها. صامتة على الأغلب كعادتها، وكأنه يخشى الأفكار، وهي تحتشد في رأسها. يذكر يدها الطليقة وظلّها الأسود المهموم في ذلك الصباح البارد، وهما يسيران. لا ذنب له فيما حصل، ولكنه حزين لأجلها. تسير وكأنها لا تنوي التوقّف للحظة لئلا تسمع ما يفكّر فيه. وهو يحاول اللحاق بها رغم ألم ساقه، لعلّها تلمس في قربه شيئاً من اعتذار. عبرا وحيدين نهراً بين البصرة والمحمرة لا يتجاوز الأربعة أمتار. سحبت الحبل المربوط بالطست ليصلا الضفّة الثانية. الناس تلجأ في العادة لذلك رواحاً ومجيئاً، كلّما احتاجت التزاور. وطأث أقدامهما أرضاً زراعية، لا وجود لبشر فيها، عدا حيوانات

ترعى في فضاء أخضر ممتدّ. سارا أكثر من ساعة قبل أن يصلا بيت الأقرباء المقصود. أخبرتهم بعد تناول الغداء عن سبب زيارتها لهم هي وبسيم. باتت ليلتها معه، وأيقظته أوّل الفجر. جلست عند رأسه على الأرض، وهو مستلقٍ شبه غائب، تُوصيه بصوت خافت، وهي تمسّد بعض الخرق التي برزت من فتوق الحشية التزام الحذر، والاعتناء بنفسه. عليها أن تُبكّر في عودتها. عيناها متعبتان، اشتمّ رائحة جلد يدها، وهي تربّت على كتفه. ودّعته، ونهضت تُبسمل، وتدعو من دون صوت منطلقة في الطريق نفسه إلى البصرة. يذكر الموقف، وكأنه كان طفلاً حينها، حين غابت، وتركته.

لم يكن الأقارب في المحمرة على استعداد تامّ لاستضافته. وجد راحته في الطبيعة، وفي مرافقة واحد أو اثنين من المعارف، ومضى الوقت في قتل الوقت حسب. تعلّم اللغة والصيد، الإنصات لساعات إلى المذياع، ومتابعة أخبار الداخل في البصرة. ولكن آلام ساقه اشتدّت، وما عاد بإمكانه احتمالها، في أثناء ذلك. ولمحدودية حركته، تمكّن بصعوبة من تدبّر معالجة جرّاح إيراني في طهران، التقط شظايا، استقرّت في فخذه، ووجد أن من الأفضل إبقاء الطلقة التي في كاحله في مكانها. رأى في رفعها بعضاً من خطورة، وأقنعه بذلك. ليست إصابته الأولى، ولكنها الأخطر. إنها غواية بغداد الفائرة حينها التي لم تكفّ عن تثوير شبابها لسنوات متتابعة. كيف هَمدَ جسده، وثقل وزنه اليوم؟! وكيف كان نبض قلبه يفرز الأدرينالين، يتسارع في كل كرّ وفرّ لهم، وهم شباب في الشوارع؟! يذكر يوم إصابته وتلوّث قميصه بدم الطالب الذي تفجّر جسده لصقه. ولولا حماية الدبّابة له في يوم الانقلاب حين ألقى بنفسه بين سرفاتها، لما عاش الآن.

ساقه ذاتها تحمل ندوب السنة التي قبلها حين شارك مع طلاب الكلّيّة في مسيرة، تنادي بالسِّلْم لكردستان، بينما صدى الهتافات "سِلْم سِلْم كردستان، يا شعب طفي النيران". لم يكن في بال أحد ما حصل. بين ضحك وتدافع وهتافات، فوجئوا بنيران الشرطة، فتفرّقوا راكضين في كل اتجاه. لم يشعر في البدء بإصابته. فجأة رأى الدم يسيل، ولم يعرف ساعتها كيف نقلوه من حيّ الأكراد، ومن بيت إلى بيت حتى وصلوا به إلى الكرادة. خشي رفاقه أن يُعتقَل. أبقوه مختفياً في بيت أناس غرباء بعد أن جاءوه بطبيب، داوى جراح زميل له، ولم يتمكّنوا بسبب ضيق الوقت من إخراج الطلقة الأولى من ساقه.

يقف على تأرجحه في شعوره بالضيق من ذلك مسائلاً نفسه (يا للحظ! كم بدت المثاليات من البديهيات؟!)، يحاصره اعترافه بها، ولا يحب انهزامه منها، هل لأنه ما يزال وفياً لها؟! هل لأنه لم يستطع التخلص منها، وإن مقت الأيديولوجيات، واكتشف الألعاب السياسية لاحقاً؟! ظلّت تلك القيم البديهية مغروسة متجاورة مع قِيم أخرى مناقضة، فرضتها الضرورة. حتى دوره كمعيل للعائلة الكبيرة ومسؤول مباشر لها، لم يختره هو، ولم يكن مقتنعاً به حين أصبحت له الكلمة الفصل، بما عليهم أن يقوموا به، ويقرروه. جاء تدريجياً من قبل وفاة أبيه، وكأن العائلة، الأم، الأخوة والأخوات، كانوا يعدّونه لتولّي منصبه. كانوا يدركون جميعاً مدى ثقل التركة، راحوا يدعمونه في تفرده بالقرار، ويطيعونه ليبغضوه، في الوقت ذاته.

سلوى لا تصدّق ما يقوله، وتحسبه جزءاً من مزاحه حين يقول لها إن عامل طين أخذه منها. إنها تضحك بسهولة على الأقل، وتقتصد في تعليقها، ورغم حبه للخصلتين فيها، يفكّر فيما لو كانت حقاً تُنصت إليه. ربما لم تعد تثق بشيء، تعبث، تغلق على نفسها بين الحين والحين، ساهمة، وكل ما تفعله هو الاكتفاء بالتعامل على السطح مع كل ما يدور.

أجل، عامل طين فَخّز قلبه بكل تلك الحماسة، وحبّ العمل، وحينها لم يسع للكثير عداه. أي صدفة محض حين اعترض هذا العامل في المحلّة حياتهم، وبذّر تلك المحبّة في نفوسهم. قرأ لهم، وهم صغار متحلّقون حوله. شرح، وأفاض، وصعد بعيداً بمخيلته عن السطور في حب الناس. نسي بسيم أموراً أخرى، أو جعلها ثانوية. نحيل بسبب سوء تغذيته، يوفّر المتبقّي في جيبه مثل مَنْ رافقهم من جيله، من أجل شراء كتاب، أو جريدة. هكذا ظلّ يسترجع أيام بغداد محطّ التفاعل الأكبر، أيام الفوران والغرف المؤجّرة في الأحياء الفقيرة، والأقسام الداخلية التي شهدت صراعات الطّلبة، وتوجّهاتهم المختلفة، ورغبة فريق بمحو آخر عن الوجود. قومي، يساري، يذكر غليان الشارع أواخر الخمسينيات، تيّاران رئيسان وتبادل أدوار، طاقة وحيوية وطموح. يذكر الاصطدام الذي حصل يوم فوز اتّحاد الطّلبة على الديمقراطيين من الحزب الوطني في بغداد. استمرّ في حياته غير معني بصحته، بهندامه، بتقليعات تسريحة الشعر، بتقليد الوجوديين، البيتيين والعدميين، والأفلام التي تُعرَض في دور السينما. أمه هي التي نبهته لاحقاً بشأن ذلك، أواخر الستينيات، بعد أن أملّت في أن يُبعده الحب والزواج تماماً عن الطريق الذي اختاره. والبنت التي نسي

الدفء الذي بعثته في صدره، تلك الغامضة، الخجولة، سمراء البشرة، الممتلئة، باستدارات جسدها الواضحة وعينيها المكحّلتين، عندما عاد بسيم، وتذكّر تفاصيل الرحلة المنعشة سوية إلى بغداد ووجهها، سلوى السجينة المطلّقة، اختفت تماماً، وجعلته يلعن غباءه وفقره.

لم تفكّر سلوى بشيء سوى مطالبتها بالانفصال من والد وفاء بعد إطلاق سراحها. لم يكن قد مرّ زمن كافٍ ليألفا وضعهما الجديد. لم يكونا قد اعتادا بعد على أمكنة الأثاث والأواني في بيتهما. عروس وعريس جديدان منشغلان تماماً، في طور تغيير المواقع لحين إيجاد مستقرّ أفضل لها قبل أن تجزمهما السلطة. كان العريس قد غطس في زحمة الاجتماعات والنشاطات السياسية. وفي تلك الفترة القصيرة من حياتهما، شاركهما سزاً في هذا البيت كثيرون من أصدقائه السياسيين، في مناشف الوجه، في كؤوس الماء، الكتب، تخوت الصالة وأغطيتها، وكرسيي المطبخ، ومنافض التدخين، وعتبة الحديقة الخلفية الصغيرة، ومحتوى الثلاجة. لم تكتشف مقاومتها في داخلها لكل ذلك إلا متأخراً. رائحة البول المنفرة في المرحاض، السعال والبلغم في وقفة المغسلة صباحاً. صار عريسها واحداً منهم، يشبههم في حقيقتهم البيتية، وطباعهم، في إهمالهم وفوضاهم وتعزقهم وروائحهم المتخلّفة في المناشف. اكتشفت جهلها بأمور الحياة من جهة، (تدريجياً ولاشك، فذلك لا يحدث بالطبع مزة واحدة)، ولكنها لم تكن لتدرك مدى فضولها لحياة مختلفة، لم تعشها من قبل لولا ارتباطها به. تحسّست ببطء شيئاً من الخرزة في ذاك البيت وسقفه الذي ارتفع فجأة، جوّ مختلف، لا رتابة فيه، بلا متابعة، استقلالية بسيطة بعيداً عن بيت الأهل مصدر مللها وقيدها في الصغيرة والكبيرة. أحداث، نشاطات، قصص وأغان تدور بصوت عالٍ في المذياع وفق رغبتها. لا مواعيد للدخول والخروج، ولا وجبات ثابتة يومية. غاب ظلال الرقابة عليها، والعيون، وتُرك لها القرار غالباً فيما تفعله، ولم تُسأل.

في ليلة العرس، انزلقت كفاه على كتفيها، تنضوان عنها القطع الباقية، وتنحدران على جسدها لتدورا عجلتين في رحلة غريبة، أقرب منها إلى الحيرة (أوّل قرب صادم عجائبي لها من قبل رجل). لكن حفل الزفاف لم يكن تقليدياً، جاء بسيطاً ومحفوفاً، باتفاق بينهما، وروح شبابية، خضتهما وحدهما، فأبهرتْ مَن هم من حولها. لعلّه كان أجمل عرس، شهدته البصرة، أحدثُ حفل عفوي حديث قام الأصدقاء الشباب، فنّانون ورسّامون وأدباء،

بإحيائه لهما. حفل بلا زفّة، أو ضجيج، ولا أهل، رقص الجميع، وشرب، وأكل لساعة متأخرة، اضطرهما الأصدقاء حينها للانسحاب منه. لا يزال أخوها يحتفظ بالنسخة الوحيدة من صورة زفافهما بالفستان المستأجر، والبدلة الرجالية المُعارة. لم يبقَ بين يديها من شيء يخصّهما معاً غير وفاء. ولا شيء تخلّف الآن، وفاء اختفت، لا شيء غير ظلال ضحكات بعيدة.

تمّ الطلاق، ونُقلت سلوى أثاث بيت الزوجية الذي تركه لها أبو وفاء، وصعبت المهمة بسبب السُلّم الضيق للشقّة التي استأجرتها. عانت في رفضها العودة إلى بيت الأهل، وتردد أخيها إزاء اختيارها للشقّة البعيدة التي عثرت عليها، ولكنها أصرّت. شعرت أنها ستعيش بأمان مع ابنتها حالما دخلتها. عشّها الصغير المعلّق في الهواء، كما تطلق عليه وفاء. رفضت تركها على اختلاف الظروف التي مرّت بها، رغم تهالكها ورفض المالك إجراء تصليحات جذرية فيها، وتهديده المستمرّ بهَدّ المبنى. رغم السقف الذي يمطر رقائق من جبس أبيض، تستقر في صحن أكلهما هي ووفاء بين فترة وأخرى. رغم الماء الذي تبتدع ألف طريقة وطريقة ليصعد إلى خزّان الماء على سطح البيت. حتى القصف الإيراني الذي تعرّضت له البصرة في الثمانينيات، والذي أجبر الناس على المغادرة، وضعضع الأساس لشقّتها، لم يحرّكها.

لم تشعر بوحدة. حتى الخوف من الإخفاق، وإن لم تقضِ عليه، حاصرته. أبدى أخوها قلقه من العزلة التي فرضتها على نفسها. ولم يكن قرارها بشأن تلك الرحلة السياحية إلى بغداد قبل عشرين سنة غير محاولة لتُقنع نفسها بتجاوزها لأزمتها حسب، بمثابة انتهاء فترة حداد بعد طلاقها. رفضت فكرة السّفرة في البدء، وتعلّلت بطفلتها. بكت. هناك ألف سبب، قالت لأخيها. ألف قيد في داخلها. وشعرت بندم كبير أوّل صعودها القطار. تأكّدت غربتها في جلوسها وسطهم. خشيت الأسئلة التي ستوجّه إليها. وكيف سترافق عوائل وصديقات لا تعرفهم تمام المعرفة، والمبيت خارج البيت لأيّام أمر، لم تجزبه من قبل. تعرّقت، واحتارت بأغراضها، وبكيس الطعام في حضنها. لكنها حملت نفسها على القبول.

بهجة القطار، دويّ العجلات، اهتزاز العربة، وانشغال الجميع عنها بتحايا وتعارف وأسئلة، ذلك كله أعاد جزءاً من اطمئنان إلى نفسها.

أقسمت لها وفاء أنها تذكر تلك الرحلة رغم صغرها آنذاك. تذكر بكاءها

حين تركتها عند جدّتها، تذكر محاولات جدّتها إقناعها عبثاً، ومواساتها لحين عودتها. لا تشك سلوى بذاكرة وفاء الحادّة المخيفة. كانت كالعادة تأخذ بالبكاء حال دخولهم بيت جدّها، من دون أن يعلم أحدٌ سرّ ذلك. فلم بكاء طويل، ورفس، وعناد، وصراخ، ما إن تتجاوز معها باب عتبة بيت الأهل. رشّح أخوها أن يكون للضوء الكابي دخلاً بانقباضها. كان بيت الأهل معتماً رطباً قديماً، ولربّما يذكّرها بالسجن، وإن كانت طفلة رضيعة،وسلوى تجفل، برأيها لا غرابة في شيء (ابنتي ليست مثل باقي البنات)، لم تكتف وفاء بصديقة واحدة، بأمّ دون أب، بلعبة واحدة، بمزاولة هواية واحدة، واختيار دراسة واحدة. لم يُسكِت صراخَها أحدٌ مذ وُلدَتْ. سجينة تتبرّع بهدهدتها، وأخرى تخطفها لتدس في فمها مسحوقاً، يجعلها تنام، من دون أن تجرؤ هي على التدخّل في الأمر. يحتلّ سلوى الندمُ حين تنفعل، وتنفجر غضباً بوجهها، وهي تعلم في الوقت ذاته أن وفاء لا ترضخ. تظلّ تنظر بتحدّ إليها، من دون أن تتراجع، أو تخفض بصرها.

لحسن الحظّ، بسيم لا يرى صورتها تلك، هكذا تفكّر سلوى. دخل بسيم حياتها بعد طلاقها من والد وفاء، وتعجب لنفسها كيف تنسى بسهولة حاضرها، ولا تعيش معه إلا بماضيها حيّاً بزخمه. عجب كيف تبثّ حياة في صورة مجمّدة من الماضي، وتكتفي بلعب دور قديم عبرها. دور قصير، له فعل إزاحة لما قبله وبعده. بسيم لم يقلها حرفياً، ولكنّ كل ما يدور بينهما ينطلق من تلك الحقبة السّتينيّة التي تمّ لقاؤهما خلالها. حبٌّ شَطَب آخر، ولم يأتِ من بعده شيء ليمسح حرقته، فبقيَ، وهو ما باغتَها ناراً.

لا تعلم شيئاً عن مصير النساء ممّن كنّ معها في الرابطة، أو السجن. لا تعلم كيف تصرّفنّ في حياتهنّ. ابتعدتْ كثيراً، وانشغلت بوفاء، ولم تشأ أن يُقرَن اسمها باسمهنّ لأنها شعرت دائماً باختلافها عن الباقيات. لم تنظر إلى نفسها كضحية، ولكنّ هل انفصلنّ جميعهنّ عن أزواجهنّ؟ وهل بقي شعورهنّ أنهنّ نزيلات سجن، لا ينادمنّ فيه إلا شركاء لهنّ في التجربة؟!

لعلّها لا تبحث هي ذاتها عن سواهم. لعلّ هناك ما يجذب هؤلاء الرجال إليها. يدها على صدرها في لحظة شرود، تداعب سلسال رقبتها الناعم، وما الذي قرّبها إلى كل منهما؟ ولماذا لم تستجب لآخرين ممّن تقدموا لخطبتها؟! لطلب صديق مثلاً جاء به الأخ في زيارة ليقوم بتصليح جهاز التلفزيون الذي عطل. تردّد أكثر من مرّة على البيت، وفاتحها بموضوع رغبته في الاقتران بها، بعد لقاءين، أو ثلاثة، لا تذكر، ولم يكن من مجال للتفكير في الموضوع. شعور يرفعها عن الأرض قليلاً رغم ممانعتها، فتنزل

اللعنات على الجدّ والأب والعمّة والخالة، تجد نفسها مثل عجوز تلعن نفسها، وتسبّها بين الحين والحين لاختياراتها.

حين صادفت بسيم بعد أكثر من عشرين سنة، وكأنه نفض رأسه ندماً، قبل أن يقول لها حينها شيئاً، طار نصفه مع المازة في السوق وأبواق السيّارات. لمحت حلقة الزواج، بينما هو يحرّك يده. قال شيئاً عن توقيتات الحياة الخطأ. تردّد ذلك اليوم قبل أن يتبعها في صعود السلّم الضيّق المظلم إلى شقّتها؛

- توقيتات الحياة الخطأ!

لم تفهم المغزى، هل لأنها معتقلة؟ أم مطلقة؟ فلم يتقدّم نحوها خطوة أبعد؟ هل يعني ما فاته ربّما، أو ما نوى عليه؟ تلتقط بذوراً من الصحن الصغير أمامها، وتُلقيها في فمها، وهي تهاتفه. تفرّقها في الصحن بأظافرها الطويلة مثل منقار دجاجة، حبّة من حبّات البركة السود تليها حبّة خضراء حلوة، يمتزجان معاً في رحلتهما داخل فمها حتّى تعثر إحدى الرحى عليها لتطحنها. تتحفّز الحواس والكلمات بانطلاقها واضحة حادّة معطّرة بأنفاسها.

تسحبه سلوى على الهاتف إلى مناطق، أغلق عليها منذ زمن. يعي بسيم العمر والفوارق والمسافات. شؤون خاصة استدرجته ليبادلها الحديث بشأنها رغم خجلها. والخرق كان في اتّصاله بها منتصف الليل، أو حتّى قبيل الفجر. علاقته وهو في هذا السنّ أمدّته بشيء من الانعتاق، زاد هذا الشعور بعد وفاة زوجته. تخفّف من المحاسبة والدفاع في داخله، علاقة رضا عن النفس، لا التزامات، أو تأنيب ضمير، شيء أشبه باللهو المثير الذي افتقده في حياته مع زوجته.

لكنّ هناك ما اختلفا حوله، وجعلهما يبتعدان عن بعضهما. لربّما لم تكن فكرة اللهو سهلة لكِلَيهما، وأن كل الجدّيّة والهلع أيضاً كمَن من خلفها. انسحبت سلوى، ولاذت بأريكتها وهمومها، بينما زادت انشغالات بسيم، وارتباطاته.

شيء نابت مثل عشب ضارّ لا يمكن التخلّص منه. أرادت سلوى منه اعترافاً بانسحابه منها في تلك الفترة (قبل عشرين عاماً)، ولأسباب وضعتها له هي بنفسها. يشعر بتزايد الحالة لديها إلى حدّ مَرَضي. تُجبره على التوقّف عند قرارات قديمة، نسيها، وفي حالات تكلّل جنونها باتّهامه

بإثارة إشاعات عنها. (متى؟ الآن؟ أم قبل عشرين سنة؟)، رغم إدراكها بنزوعه إلى الابتعاد معها، عن كل ما من شأنه أن يُثير استياءَ لديها ولديه، من آثار لتلك المرحلة.

ما له وتلك القصص التي توجب عليه أن يُنصتَ إليها؟! ومالها وهؤلاء الرجال العابرين في حياتها، هي التي لم تتنازل يوماً عن عنادها؟!

يحاول بسيم أن يهدئ من روعه، يفرك صدره. يشعر أنه لا يملك السيطرة على دماغه في هذين اليومين. يحاول أن يمتص قلقه، مهامّ عديدة عليه إنجازها هنا وهناك. لولا شريكه لما واصل عمله. عاد إلى التجارة، بصورة مختلفة غير التي تمنّاها، فالتجارة تقتضي جسارة. يشوّهها الحصار الاقتصادي، ويتآكلها الفساد. لم ينجُ من خسارات فادحة، اعتمد عليها في حساباته، بما اكتسبه من مهارة وخبرة وتجربة. الأشياء سارت ضدّ المنطق إلا فيما ندر. ابتلع الخسارة سياسياً مدركاً أن المدينتين البصرة وبغداد تغيرتا، بشكل كبير، لحقتها خسارات اقتصادية بتغير البشر كجزيرة. لكن التجارة الحُرّة ساعدته في إغلاق باب الملاحقة إلى حدّ ما (الكل بعثي، وإن لم ينتمِ، يصاحبها ابتزاز، وتبرّعات ضدّ الحصار)، وعلاقات مع التجّار ورجال الأعمال. ذلك كله ساعد على نقله إلى قائمة أخرى، وتصنيفه ضمن خانة أخرى.

يتأمّل السماء خَلَل الأغصان من فوقه في الحديقة. الضوء ساطع، وظلّ الأوراق الصغيرة في الأشجار العالية يرسم لوحات متحزكة على بساط العشب. لكنه يضيق بارتفاع حرارة النهار. يحكّ رأسه. يستدرك أن الخيوط متشابكة الآن، وليس كما تبدو عليه من بساطة، وربما لن يستطيع فكّها، رغم دراسته لقانون السوق جيداً. غيرت السلطة من أولوياتها، ولا يخفى ضعفها، ورغم ذلك، فالوضع نزق، ومَن يملكون السلطة نزقون، والشرّ سيهيمن في هذه الحالة. وهو لا يشك في أن الطريق في المتبقّي منه منهك أيضاً، ولا يقلّ متاهة وفوضوية عن البدايات. هكذا تنتابه لحظات، من شأنها أن تجمّد خطوته، ولكنها سرعان ما تتخلّف وراءه في عدوه. ذلك لأنه صنف الخسارات في سرّه مذ زمن، منها المؤقّت، ومنها الأبدي.

عندما أنهى الثانوية أمل في أن يرى اسمه مدرجاً في دائرة البعثات معلناً عن حصوله على بعثة دراسية أسوةً بكثيرين، حصلوا عليها بعد الثورة، ولكن ذلك لم يحصل. خلّف حزناً في نفسه. ابتعث الكثيرون إلى ألمانيا والاتحاد السوفيتي وبلغاريا وإنجلترا. ما يزال يذكر ذلك بحسرة. التجارة التي لخّصت طموحه في الحياة تقلّصت في سنوات الدراسة في

كلّية التجارة والاقتصاد في بغداد. المسيرات والمظاهرات والانقلاب شغلته، وأثارت قلق عائلته. أوقفت الدراسة شهرين قبل الامتحانات النهائية، من أجل تخرّجه، ما جعله يرتبك. أحبّ دراسته، وأخلص لأساتذة فيها، ما يزال يذكرهم بإعجاب وتقدير، ويرجع الفضل إليهم في الحسّ الوطني الذي غرسوه عند الطّلَبَة، ومنهم مَن تصدّر المعارضين المنادين بالتغيير، ومَن غامر بحياته ثمناً لإخلاصه. وحتّى شريكه أدرك مع الأيّام إن كان هناك ما يودّ بسيم الحديث عنه، فهي أيّام دراسته الجامعية. وتعلو الدهشة محيّاه، وهو يشهد اندماج بسيم في الحديث معه عن ذلك المفكّر الاقتصادي العبقري، أستاذه ذي الجبهة العريضة البارزة التي تشعّ بالفكر والعينين المثقدتين بالذكاء. كم كان صارماً دقيقاً في نقده وتوجيهه لطَلَبَته! وهو يرمي إلى إعداد جيل من الاقتصاديين الروّاد. جعل تلاميذه يضمّون في اهتماماتهم الفلسفة إلى جانب الاقتصاد والسياسة، من أجل فَهم واستيعاب أكبر لما يحدث. يشعر أنه يدين إليه وإلى اليوم في الكثير الذي تعلّمه، ولكنْ!

هل هو ساذج؟! شيء من الخجل يحاصره، ويشوب تلك الأسئلة، بهذا العمر، وهذه العزلة. لم يتبرّع أحد بتقديم توضيح. كيف ينظر السياسيون الكبار إلى تاريخهم، بارتياح؟ أم بنقمة؟ أم حرج؟ وهو المجهول من بينهم، الوحيد، هل هو الوحيد؟ لا، ليس هو الوحيد، لا يظنّ، ولكنْ كيف يعرف أنه أخطأ هنا، وأصاب هناك، وهو يؤدّي دوره بحرفية وأمانة وحرص وإخلاص شديدين؟

اعترضته السياسة في بلد لا تصحّ السياسة فيه.كان حجمه صغيراً،وعمره لم يتجاوز الإحدى وعشرين سنة، وحين وصل البصرة بعد جهد وعناء، كان الحُكم قد صدَرَ حينها بإعدام الشيوعيين، وقُتِلت الناس خلالها في الشوارع.(ولكنها السياسة، هي أن تعد بأن تبني جسوراً، وإن لم يكن هناك أنهار، يا عزيزي، كما يقول رفاقك). ينفخ، ويتأفّف لحاله، يغيب عن باله أن هناك مَن يجلس قريباً. هي إحدى قهقهات أبي حارث الشيطانية التي يقطعها بنظراته الحادّة. لا يدري أنه كان مختفياً، يعرج بسبب إصابة ساقه، وقد دار لثلاثة أيّام تيهاً بين أزقّة لم يعرفها، والنزف أوشك أن ينهي طاقته.

بينما لم تكن السياسة ما كاد أن يودي بحياة أبي حارث، ويمسحه من على وجه الأرض. كانت ببساطة امرأة نحيفة ضئيلة الحجم ذات بشرة سمراء، هي مَنْ سحبته إليها، وجرّته إلى القاع معها. واستغلّ غريمه في

عالم المقاولات الموقف كي يقتص منه، بسبب فوزه بمناقصة، رست عليه، لا بسبب تلك العشيقة التي تعاركا بشأنها (أقسمَ أنه سيقتل هذا السافل). تعذت التهمة من الاختلاس إلى الخيانة وإهانة الحزب والسلطة، وكادت العقوبة أن تغيّبه في السجون لسنوات، إن لم تكن ستقضي عليه. ولدرجة المقاول الحزبية والنَّسب كإثبات قاطع على إخلاص الغريم لوطنه، لم يتمكّن أبو حارث من الاعتراض على المبلغ الذي اقتُرح كتعويض للخسارة من قِبل كبير العائلة الذي تمكّن بفضل سطوته على المتنفّذين من دفن الموضوع. ولم يكتف المقاول التكريتي بذلك حين تعرّض أبو حارث إلى محاولة دهس إثرها، نجا منها بأعجوبة، وأذت إلى إرغام عائلته على الاختفاء لفترة.

فوجئ بسيم بالزيّ العسكري الذي سُلّم إليه بعد تخرّجه. وقف أمام مرآة صدئة صغيرة يتحرّك يميناً ويساراً ليتبيّن كامل هيأته. لم يستوعب إدراجه من ضمن خرّيجي الوجبة العشرين من الدورة الثانية للضباط الاحتياط، برتبة ضابط. أعاد الخياط ضبط القياسات مرّتين حتّى اقتنع بعرض القميص، وطول البنطلون. وصرّف هو وقتاً في ضبط البيريه على رأسه. علت وجهه بعض ملامح رضا وإعجاب لهيأته الجديدة، بينما سمع صوته ساخراً: ها أنت تمتثل للقانون، وتُظهر طاعتك له!

وربّما لم تلحق رسالته الخطّيّة أن تصل قبل أن يحدث ما حدث. يسخر في داخله من الحال في كل مرّة يأتي على ذِكر ما مرّ به في تلك الفترة. سلسلة من الأحداث، وكأنها استهدفته هو تحديداً. كتب رسالة إلى الأهل في البصرة، يطمئنهم فيها على أحواله، ويذكر فيها تفاصيل الفترة منذ التحاقه بالجيش. سلّمها لصديق له يومين من تبليغه بشأن سحب الرُتبة العسكرية. أفزعه الاستنفار العالي الذي رافق الإجراء، وفهم أن ماضيه السياسي والتقارير التي رُفعت ضدّه خلف ما حدث. وبين مزاح الأهل والأصدقاء للتخفيف من شدّة الحيرة والارتباك إزاء وضعه، اقتضى الأمر أن يذعن، ويكتفي برتبة نائب ضابط.

الغرابة كانت حين تمّ استدعاؤه ثانية للالتحاق في قاطع الشمال لمراقبة الحدود في (كلي علي بيك) في العام ١٩٦٧، وقد صار بإمرته فصيل، تكوّن من دبابة و٤٠ جندياً في تلّ "خرواتان"، رغم عدم التحاقه بدورة تدريب مع الباقين. انتشرت القصّة بين الخرّيجين والأصدقاء، وأثارت تفكّههم ومزحهم. لكنه ومع ابتسامته الدائمة للأقدار الغريبة التي تلاحقه عزم حينها على إتقان دوره، والقيام بمهمّته على الوجه الأحسن. يثق بقدرته على إدارة الموقف. في باله كثيرون، عزّزوا هذا الإحساس لديه، وأشاروا في أكثر من مناسبة إلى الخصلة التي يملكها، ويجيدها، ألا وهي المصالحة. حرص على علاقة طيّبة مع الجيران لتفادي هجوم الأكراد المسلّحين، وحدوث مواجهات. وتحقّق التفاهم فعلاً، وأُعلن السِلْم في هذه البقعة الصغيرة المعزولة. ومرّت الأيّام بذلك رتيبة هادئة، استمتع خلالها

مع فصيله بكرم الجيران، وأطيب مذاق للجبنة واللبن الرائب والخبز واللحمة والبيض الطازج، حتى تسريحه.

أحداث أسماها بالكافكوية، رافقته في السنوات بعد تخرّجه لم تنته عند هذا. لم يملك خلالها غير الاستسلام لما اعترضه. وحتى بعد مرور سنوات، وحين تمّ استدعاؤه إلى بغداد من جديد لأجل الالتحاق بقاطع خانقين في حرب الشمال، ظنّ للوهلة الأولى أن في الأمر ولا شك سوء تفاهم. تحدّث مع زملاء له من ضمن دفعته. والبعض منهم قد حصل على رتبة عقيد حينها. تبادلوا الحديث، وتشاوروا، وارتأى أحدهم ضرورة التقدّم بشكوى، بسبب رتبته التي ظلّت نائب ضابط، فمن الظلم أن يتمّ استدعاؤه كضابط، ولا يُعامل بالمثل، وشاركه الباقون النصيحة. اليوم وهو يتذكّر الموقف واسم الشخص وأوصافه، يضحك من نفسه، ويطلق الشتائم. الحكاية بأكملها بمثابة مقلب عمله ضدّ نفسه. الضبّاط يتسلّمون ثلاثة أضعاف ما يتسلّمه الموظّف حينذاك. ولما كان بمساس الحاجة لأيّ مبلغ إضافي، تقدّم عن قناعة بشكوى مُعنونة إلى المهيب أحمد حسن البكر قائد القوّات المسلّحة كما نصحوه. ويا للغباء! ما إن مرّت بضعة أيّام حتى حدث ما يثير الفزع حين تمّ استدعاؤه، وفُتِح التحقيق معه. استلم أمراً بموجب اجتماعات لجان وإجراء تحقيقات سريعة، يعلوها ما يشبه الإنذار باعتقاله الفوري بعد تسلّمه أمراً، يؤكّد عدم شموله بالاستدعاء. تلقّى خبر تسريحه ثانية بمزيج من الرهبة والفرح. علم أن ما حصل يعود إلى ماضيه السياسي، واتهامه بنشاط سياسي معارض. سهر مع أصدقاء ليلتها، واحتفوا بسلامته. كان دائخاً. لم يعرف إذا كان قد نفد بجلده؟! أم أنه ومنذ ذلك اليوم كُتب له قدر جديد؟! عليه أن يتوخّى الحذر، وهذه فوضى الحياة، وتوزيعها للحظوظ، الضربات الصداقية التي تلقّاها من الأصدقاء على كتفيه والعناقات، عليه أن يضحك حتى الفجر لأنه سيعود إلى البصرة سالماً، بملابس مَدَنية، وإعفاء في جيب قميصه، يضمن عدم تعرّض أحد إليه.

وفي طريق العودة من بغداد إلى البصرة في يوم صيفي قائظ، انحشر في سيّارة أجرة صغيرة قديمة بين ركّاب بِطان في الخلف. كاد يفلت ضحكة حين تذكّر أنه لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره حين خُيّر بين أن يحصل على ثواب، وبين أن يكسب مالاً. كان يُطلب منه لصوته العالي وحنجرته الصافية على الأخص في رمضان التوجّه إلى السطح في المحلّة ليؤذّن مُعلناً الإفطار. تذكّر أنه حصل مرّة على زبون كويتي، انهمك بغسل

سيارته عند نهر الخورة، ومن أجل ضمان مكافأة جيدة، ظلّ يمسح الزجاج، ويجفّف الأبواب، ويلمّعها، ويعود إلى الإطارات حتى نسي موعد الأذان. استقبله كبار المحلّة بالصياح والتوبيخ لجوعهم وانتظارهم الطويل له لأجل أن يفطروا، لكنه صعد السطح مباشرة غير آبه بهم.

على مدى ثماني ساعات في الطريق، دارت أغانٍ ريفية، تصف جمال المحبوب وخيبات الحبيب، وعلى إيقاعها، فكّر بسيم بما يجب فعله في أيّامه القادمة.

جاءها بسيم متأخراً عشرين عاماً، تغيرت عبرها حياتها كثيراً. (اتّخذت شكل قدح ماء نصفه عكر). سلوى تدرك أن بسيم لن يتصل بها قبل انتهاء ما يشغله على الأقل. الخلاف الذي حصل بينهما لم يكن سبباً. ليس خلافاً مباشراً. تعلّلت من جانبها، ودفعته بعيداً عنها، مرة بدخوله وخروجه من بيتها، مرة بابنتها، ومرة بتقدمها في السّن (الغباء فنون، تردد في سرّها)، حتى تباعدت الزيارات القليلة، ومثلها المكالمات، ثمّ انقطعت تماماً، ولم تعرف إليه سبيلاً.

دارت وحيدة، تعيد القصص ذاتها في رأسها. لم تزره يوماً في بيته، حتى بعد وفاة زوجته، ولم تلتق هاني. تخيلته شاباً نحيلاً جداً، ومن شأن ذلك أن أثار عطفها. حصر بسيم علاقته بها داخل شقّتها، وذلك كان ملائماً لها.

كيف ترتّبت الظروف لتجمع كلّ هذه الصّدف؟! ولِمَ التقته من جديد، بسيم تحديداً؟!

مع متابعات تلك الصفقة التي عقدها، بدا لها في امتحان، كان يجيبها على قدر السؤال، ويبتعد. تقديرها بالطبع لقلقه كبير، بشأن هاني العاكف في بيته منذ مدة، وهي تعرف عنه كل شيء(رغم أنها لم تره، كما لم تزر صورةٌ له)، ولكنها لم تفهم بسيم، فهو، والقضة في أوّلها، وكأنْ لا خيانة في علاقته بها، ولكنها ستكون كذلك حال رؤيتها لهاني.

هل قُدر لها أن تكون على مبعدة خطوة، أو أقلّ، من الألم. لا تكاد تُبقي على الرضا حتى يأخذه طارئ جديد بعيداً لتظلّ تتأمل في الصحن، وتدوّر اللقمة. تغسل الصحون، وتحفظ المتبقّي من الأكل في الثلاجة. تجفّف السطوح، وتُخرج القمامة، وتنزل بها إلى الحاوية في الركن من الشارع. تعود لتأخذ حقاماً. ترتدي قميص نوم قطنياً جديداً، وترسم خطّ كحل واضحاً على جفنيها. الكحل دليل انتظار، وخطّه بعناية وحذر دليل يأس، وحبّات الهيل في الصحن، لها أيضاً رمزها. إنها تذكّرها بطعم البيت القديم عديم التهوية، ورائحة فم الوالدة. شيء تُقبل عليه، من أجل الاستزادة من

الألم والتقزز والمرارة.

نظرها يهرب إلى العقربين الكبيرين على الجدار، ويسرح في اللوحة إلى جانب الساعة. اكتفت بلوحة واحدة، وتجنّبت صور الموتى والأحياء على جدرانها. إنها تتضايق من بيوت، وضع أصحابها صور موتاهم في غرف الاستقبال. الفراغ ليس له عيون، خلاف كل قطعة أثاث من حولها، وكل صحن. كادت أن تأتي لها بقطّة كالتي كانت لديها. ستتشوّش عليها بعض الشيء، وتستأثر بوقتها. وُلدت، وكبرت مع القطط، من حولها. تحنّ إليها، وتحتاجها. (القطط تختار أصحابها، وليس العكس). تمنّت واحدة صغيرة، تراقبها، وتقلق بشأنها، وتتعثّر بها في هذه الشقّة الفارغة. ستضعها كما اعتادت على صدرها لتهدأ.

تتمهّل أمام المرآة. تفتح الجارور، فتنبعث رائحة الأدوية مشوبة بعطور المكياج. تضع القليل من أحمر شفاه بلون باهت، وتُطبق شفتيها. تدهن يديها بكريم مرطّب، تظلّ تفرك يديها. فكّرت بجدّيّة، أن تسأل زوجة أخيها عن ذلك. حاولت أن تتذكّر الشهر الذي هي فيه لربّما هناك قطة حامل في الجوار. الآن وحدها مَن يقرّر، مقارنة بالماضي حين كان القرار مرهوناً برضا اثنين. لم يكن ليعارض، بشكل مباشر ولكنه لم يملك الشغف نفسه، حتى آثرت أن تتنازل عن رغباتها، بمجيء وفاء. ووفاء رسمت لها خريطة حياتها هي الأخرى، جالت فيها، ووضعت علامة جمجمة، على كل ما شعرت به تهديداً لهما (والد سلوى الذي توفّى ومصلّح التلفزيون من أوّل زيارة له). نباهةٌ، لم تُرثها إيّاها، ولا أبوها!

رنّ الهاتف، ففزّت في مكانها، والمكالمة التي استلمتها ليست منه، والد وفاء، بل عنه. لم تعرف، إن كانت من بغداد أم من البصرة، مكالمة لم تفِ التعريف بصاحب الصوت الغليظ المتعب الذي اكتفى بنقل خبر وفاة والد وفاء. كيف؟ متى؟ أين؟ لم تركّز على التفاصيل، بسبب المفاجأة! لطمت خدّها من دون وعي. مسكين، طلعت الكلمة بتلقائية. كانت للتوّ في ذكراه. ارتعدت للتخاطر الذي حصل، وجمدت أطرافها، وجَمَد عقلها. ظلّت ساكنة في مكانها. أعادت السمّاعة إلى مكانها. فكّرت في الحال بابنتها. لن تجرؤ على نقل الخبر إليها، ولكنْ أين ستعثر عليها؟ هل وصلته أخبار عن وفاء قبل وفاته؟ هل عرف عنها أكثر ممّا تعرف هي؟ هل رأته وفاء قبل مغادرتها؟ ولكنها لم تحرمه من رؤية ابنته، هو الذي اختار أن يبتعد، ويعتكف.

كل منهما لم يقبل بمبدأ التراضي. المكابرة استيقظت مرّة واحدة بعد خروجها من السجن. لم تنطقها بصوت عالٍ، وهي لا تملك بديلاً، ليست من وحيها، ولا تظنّها من وحيه كذلك، لفظها آخرون، شاركوا في رسم النهاية لهما، بشكل أو بآخر، وجسّدها هو بجسمه، بتراجعه، وبصمته، وغلقه الباب بهدوء من خلفه. كلمة كرامة لم تكن في حسبانهما، جمعتهما من دون علمهما كشيء أساسي، وتشبّث كل منهما بها ما استطاعا من قوّة حين تقابلا ثانية بعد السجن. في الكرامة عناد وعصبية وانفعالات شتى، لا يسهل السيطرة عليها. تجتمع كلها لتشلّ الأبدان والأرواح معاً، ويتعذّر وقتها إيجاد الحلول، وتمشية الأمور، ويستحيل التراضي. (هيا، أوقظيه من موته، حدّثيه عن قلّة التجربة والإدراك آنذاك، والعمر الفتي).

غريب أمر هذه القسمة، مات طليقها، ولا تعرف عنواناً له، ولا أهل، هل تتّصل ببسيم لتخبره؟! وماذا لو أخبرته؟! ما علاقته بذلك؟! وما علاقتها هي بكل ذلك، إن كانت قد أضاعت ابنتها؟! موته يوقظ محاسبتها لنفسها من جديد. النمل مثابر، ينثر ترابه الناعم في الزاوية عند الفرن حيث تقف، وكأنه عجز عن البحث عمّا يسحبه إلى الداخل. كيف انشغلت عن الموت بالحياة؟! الشقّة المعلّقة تضيق مثل قبر، وما تحت يبدو لها مثل بئر عميقة مظلمة.

وفاء مَن تفرض عليها وجوده. نسيته، ليس لتحوّلٍ في شخصها، كما ظنّ البعض، ولا عنادٍ، كما ظنّ هو، الأمور لعلّها أبسط بكثير، والحواجز لجهلها أقلّ بكثير. أو أنه الاستسلام رغم أن اسمها واسمه مدرجان سرّاً مع الأبطال، ضمن القائمة السرّيّة للمعتقلين الباسلات والبواسل، من دون قرار حكم، أو محكمة. لم تتوقّع خبر وفاته. تكتشف كم غفلتْ عنه، وكم غاب عن تفكيرها. لم تتدبّر أمر وجوده قريباً حينها، كما لم تجد طريقة صحيحة لإبقائه في حياتها، بينما هي منفصلة عنه. لم يتصادقا لأجل الطفلة، ولم تُفلح بالعثور على طريقة للتصالح مع قضّتهما القديمة. بدا الموقف إمّا أو، لا وسط بينهما. لم تسع طاقتها غير الرفض، لم تستطع مقاومته في داخلها، من أجل البقاء معاً. لم تتوضل لغير شطب ما يخضهما، شطب التفكير به، ورفض مشاركة وفاء معه. إبعاده تماماً. كيف فاتها ذلك؟! فاتها أن تحلّ المشكلة لوفاء. يا لغبائها! كيف ظنّت أن في الوقت متّسع لفعل ذلك، وأن ما لديها أهمّ بكثير؟!

لكنها اعتادت في النهاية أن تصرف النظر. هل تصرف النظر الآن؟ أن تتعب وتشعر بالارتباك وبصعوبة المهمّة، أو استحالتها. أن يلازمها الصداع،

وتفكّر لا فائدة، ولا نتيجة جرّاء ذلك، فتتناول حبّتي مسكّن، وكوب شاي ثقيلاً. حين تلخ في محاسبة نفسها، تفكر أنها هي مَن جعل وفاء تفعل الشيء ذاته في حياتها. تروح تبحث عن جماهير في وفاء، جماهير ستكون كاملة مثل الصورة التي تخيلتها لها. جماهير ستكون من وحي جيلها، مطيعة حنينة. وها هي في الوقت الذي تندفع فيه لإيجاد حلّ تُهمل المشكلة، وتنصرف إلى أمور أخرى، إنها سريعة العطب، تبدو في النهاية إنسانة آنية، لا تنظر إلى الخلف، ولا الأمام.

وتستدرك أنها الآن في سنّ، يتيح لها أن تستخفّ بالحكمة والرشد والادعاء بالكمال، أن تجيد إلقاء اللوم على سواها، بشكل أفضل ممّا كانت عليه من قبل، لغو يعود بالراحة عليها، وإن وقتياً (يُغفَر للكبار دوماً سذاجتهم وشططهم). وما استجدّ الآن، وأضافته هو خذلانها من كلمة وطن، ما الذي منحها إيّاه هذا الوطن، الوطن الذي يجعل أناسه يموتون خيبة منه؟! إنه نوع من التخفف، مجرّد حشو لفراغ.

يحلّ المساء عبر الشبّاك المطلّ على فناء الجامع الفارغ في البصرة القديمة في مكانها المنعزل المحشور في زقاق أعمى صغير، بناية من شقّة واحدة، بلا جيران، عدا محلّ النجّارين أسفلها. إنه المكان الذي ألِفته وفاء الصغيرة. متشبّثة به، متآلفة مع جدرانه، ومشبعة بعتق رائحته. تخترع من تصدّعاته أشكالاً هندسية، ورموزاً، اتّخذت هيئات، تتآلب عليها ليلاً، وتكاد تُطبق على رقبتها لتُسكتها. المكان الذي أنِست فيه الابنة للأساطير والقصص. تضيق وفاء بسلطة الأمّ التي ترسم حدود المتاح لها. تنهض من فراشها حين تصلها أصوات الطبول ليلاً سابحة من صوب الجسر عبر السطوح صيفاً، تنزل من سريرها، وتمشي حافية صوب الصدى. تنادي عليها الأمّ من دون جدوى عودي إلى فراشك، ونامي. السياج عالٍ، ولا يبين شيء من بين صفّي البلوكات الإسمنتية الأخيرة المخزمة. وكأنها تودّ لو تقبض بنفسها على الأرواح الشرّيرة التي يطردها السود لتلعب بها. تستثيرها الطقوس المغلقة على أهلها، وتضيق بإقصائها عن بيوتهم. تقرّر أن تفكّ مغاليقها نهاراً، فاستحالة ذلك تعذّبها. ولم تتردّد يوماً في مصادقة ابنة لهم، بقصد التقرّب إليهم. تلك البنت فطنت مبكّراً إلى ما يحدث من حولها. أجفلت الأمّ يوماً عندما أخبرتها أن الجنود في أوّل حرب الثمانينيات يدخلون تباعاً إلى بيت الخبّازة، ليس من أجل الخبز. الوحيدة بين الأطفال التي لم تخشَ طبّال السُحور، إنما تتحرّش به، وتُقلّده بمروره فجراً بالبيوت.

تضع الماء على النار. صورتها منعكسة في الزجاج. باحات الجامع عبر الزجاج خالية، تضيئها مصابيح الفلورسنت. يعطيها الماء الفرصة لتتماسك قبل أن يفور. تحاول أن تُكوّن جملة لتنقلها إلى وفاء حول خبر وفاة أبيها، فيما لو رنّ الهاتف الآن. كيف لا تحنّ وفاء إلى تلك السير؟! كيف فكّت وثاقها من ذلك كله؟ لكنّ كيف ستنقل لها خبر وفاة أبيها؟!

تتّصل سلوى بشقيقها. هو الوحيد الأحقّ بسماع الخبر الآن قبل وفاء. وهي غير قادرة على فعل شيء غير ذلك. الإدمان هو الذي قضى على صديقه، والنتيجة متوقّعة، وهو يعرفه. هو مَن جمع بينهما. صديقه وشبيهه في المرحلة النضالية قبل أن تختبرهما الحياة، كلّ منهما بطريقة. ولا غرابة أن تتداخل العلاقات بين هذه المجموعة، التي صارت أقلّية بمرور الوقت حتّى ضُربَ الحصار عليها تماماً، وكل ما تصرفه من طاقة هو في سبيل حفاظها على جنسها المتبقّي، وممارسة بعضٍ من عادات سرّيّة، قديمة محظورة مثل تبادل قصائد مظفّر، وسماع أغانٍ شعبية لفِرَق فنية شيوعية، في كاسيتات مستهلكة. تشعر بشفقة جارفة، وهي تسمع صوته المهتزّ. أحياناً تستدير، وتُبعد وجهها إلى زاوية أخرى عندما يستحوذ عليها القلق بشأنه. استهلكته فكرة ما، وجمّدته. أطفأت كلّ حواسه، فشابَ شخصيّتَه بعضٌ من العته.

خرخشة سمّاعات الجامع تعلو إيذاناً لاستعداد المؤذّن لأداء صلاة العشاء. وبسبب البارانويا التي أصابت جزءاً كبيراً من الناس، كان يخيّل إليها أنهم يتجسّسون عليها، وهي في مكانها، من قمّة المئذنة أمامها عبر الشبّاك. هناك مَن يتجسّس، ويكتب تقاريره على خطيب الجامع، وخطيب الجامع على مُصلّيه. تسحب الستارة الصغيرة على النافذة، تشرب كأساً ثانية من الماء البارد، وتحوّل السمّاعة إلى الأذن اليسرى.

شقيقها مَن بارك اقترانها به، وتجرّع عسف والدها. هو مَن ترك لهما فرصة الاقتراب، ما إن شعر بما يربطهما آنذاك. لكنّ ما الذي ربطهما صدقاً؟! تعقّب على أخيها سرّاً. كانت شابّة ما تزال مُبتلية بحُبّ الشباب، وهو ما يزال يتلعثم أمام البنات. لم يعرفا عن بعضهما الكثير، غير الإعجاب. أحبّت النظرة التي سدّدها إليها أوّل مرّة، بأنّ هدوؤه فيها، خلاف ما ظهر في دواخله لاحقاً. المسؤوليات فضحته وفضحتها، في آن. هدوؤه أشعل نارها شيئاً فشيئاً. تطايرت الكلمات بعد السجن غير مترابطة، حادّة ومجرّحة، وانقطع الحوار. مفتتح التجربة وتوالي الإخفاقات، وجبهات فتحها الأهل عليهما قبل الآخر. الخيبات الصغيرة التي لم تمهّد للصدمة الكبرى،

والتجربة أكبر بكثير من أن يستوعبها اثنان، بعمريهما. لم يُمنحا الفرصة لمعالجة شيء قبل أن يغرقا في الأحكام التي سقطت بحقّهما.

تقزبُ ببطء صينية الشاي أمامها على الطاولة الصغيرة عند التخت المدعوس. تستذوق مرارة الشاي الحارّ، وهي ترشف القليل منه. شقيقها على الهاتف ما يزال يحاول أن يتذكّر أحداً ما ليتصل به بشأن تقديم تعزية للعائلة. لم تكن بحماسته، وما يقلقها هو وفاء هذه اللحظة. يقترح عليها أسماء، لا تتذكّرها. غادر أغلب ما تبقّى من أصدقائه بعد انتفاضة العام ١٩٩١، وهو يحاول كعهده أن يبدو غير مكترث. ابتعد عنه الأصدقاء. خافوا لئلا يتجسس عليهم. تعاملوا بريبة وحذر معه. تعرفُ طيبته ورقّة قلبه. حمل صوته حزناً. تعرفُ اختلاجاته، شفراته وتعبيراته المقتضبة، وإجراءاته الاحترازية التي تتفكّه معه بشأنها. غالباً ما يقطع أو ينهي المكالمة ليحضر بنفسه خوفاً من التنصّت عليهما. أطلقت زوجته إنذارها في أوّل هزّة للبيت. أمرٌ لا جدال حوله. أرادت حياة، لا منغّصات فيها، وأذعن، يقوم بما تراه مناسباً ليُرضيها. احتفظ بولائه في قلبه، وصار بعثياً تحت التهديد، وعندما خطّ الشيبُ شعرَه، لم يسأل عنه أحد. لم يُرضِ أحداً. أخذ يحيي مع زوجته رمضان، ويرافق جيراناً له في توجّههم إلى المسجد للصلاة يوم الجمعة. لكنّ ملفّه بقي مفتوحاً، يجتهد كل مَن احتلّ مكان الذي قبله بالتفنّن في النبش فيه، واستدعائه لأجل التحقّق من صحّة ابتعاده عن السياسة.

ترفع ساقيها إلى التخت. شقيقها وكأنه يستبقيها هذه المرّة على الخطّ ليعزّي نفسه بوفاة صديقه مستذكّرا قصص ماضيه، راجياً إيّاها مراجعة الأسماء ببالها من الذين تربطه وتربطها علاقة بهم، تحاول أن تقاطعه جزعة، لا جدوى في ذلك، تكاد تقول، ولكنها تعرف أن الجمرة باقية في قلبه، ولا يقتضي إلا نفخاً خفيفاً فيها لتشتعل وسط ظلمة روحه. أغلب مَن أطلق سراحهم بعد الانقلاب، واجهوا الصعوبة ذاتها في مواصلتهم الحياة، ومَنْ لم يكن ضمن قطار الموت، فهو ميت مجازاً، صدّقيني. ليس الكل، صدّقني، تقولها في سرّها، وهي تفكّر ببسيم.

أوّل تعارف لسلوى ببسيم حصل عبر نزهة في شط العرب على يخت "عالية" بعد أن تمّ توظيفه لأغراض سياحية. وهو مَن وقف خلف تنظيم الرحلة من ضمن نشاطات الجمعية. أطلق على يخت الملك فيصل يخت الثورة بعد إعلان الجمهورية العراقية، وانتهاء الحكم الملكي، ويحكي للمجموعة عن تاريخه، وقصة عودة هذا اليخت إلى البصرة قادماً من اسطنبول مروراً بمصر. كانت تُنصت بانتباه إليه، لقصة الطاقم الذي تسلّل باليخت الممنوع من المغادرة بعد سماعهم لقيام الثورة، وسقوط الملك. من مياه السلطات في اسطنبول عابراً إلى شواطئ ميناء بور سعيد، ومواصلاً من ثمّ رحلته إلى البصرة. كان من المقرر أن يقضي الملك فصل الصيف فيه مع عائلته هناك، لذا أبحر اليخت قبل صاحبه. لم يبقَ في نهاية الحديث غيرهما، دارا معاً، يكتشفان جوانبه. قصة الملك وخطيبته الحسناء الأنيقة التي كادت أن تكون ملكة العراق، بدت لها قصة نهاية الفترة الملكية مُحزنة، سببت بعض اضطراب في المشاعر لديها، مثل صبيحة قيام الثورة، والمأتم الذي أقامته والدتها في البيت حال سماعها الخبر. كان هناك دوماً تعارض بداخلها بين إحساسها والتوجيهات والإشارات التي يبعثها الوطنيون من حولها. لمس بسيم ما دار برأسها معبراً عن ذلك بنظرة تفهّم تامّ لها (وكأن ذلك جعلها تغفر لنفسها تناقضها، في ذلك الوقت)، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك، من شأن نظرته تلك أن أعادت إليها حقاً القليل من ثقة في نفسها. ما أخافها حينها كان في تزايد، كونها أصرّت على أن تُكمل طريقها وحدها بعناد. حدث تلكّؤ خلاف ما ظنّت، في أن الأمور ستكون أسهل. العُزلة التي فُرضت عليها بعد السجن، وطلاقها، ساهما معاً بالتشويش على هويتها. مَن هي؟ وما كانت عليه؟

نظرته أوحت بحديث سرعان ما سيلتقيان من أجل أن يتفماه. وكأنها استهلال لموضوع تبلور وبرز في عيونهما. شيء ما جعلها تشعر أنها مَرئية. رغبة مفاجئة في أن تتأكد من وجهها في المرآة، ومن شكل الثوب على جسدها. تابعها طيلة الرحلة رغم انشغاله، وحتّى انصرافها مع صديقات لها، بانتهاء اليوم. لحقتها تلك السُفرة التي نظّمتها الجمعية إلى بغداد لبضعة

أيام، وبين المقبرة الملكية وبساتين بعقوبة وملوية سامراء، أدركت أن بسيم يغتنم مناسبات عدة للانفراد بها، للتحدث إليها، أو سؤالها، لمس يدها، وهصر أجزاء من جسدها. لقاءاتهما المتفرقة عقب تلك السفرة أواخر الستينيات آخر محاولاتها لتصحيح الخط الأعوج الذي رسمته لنفسها. عاشت فترة مائجة سزاً، برأث جروح النفس والفرصة مواتية للارتباط برجل، وهي على يقين من خطوتها وشبه يقين من اهتمامه بها، ولكنه ابتعد حينها، من دون أن تفهم الأسباب! وغاب.

حين فحصتها عفاف صديقة الطفولة وأيام مراهقتهما، والتي أصبحت طبيبة متخصصة في الأمراض النسائية، قالت لها شيئاً من قبيل جرح الولادة، هذا سيأخذ شهوراً، وربما سنوات، لكنه سيشفى. لا عليها إلا أن تستمرّ بمراجعتها لفترة. جروحها الأخرى هي الأهمّ، ندوب نفسية لن تُشفى، إن لم تبذل جهداً في علاجها بنفسها، وأطلقت ضحكة، وهي تميل عليها. هذه أوّل زيارة لها لطبيب بعد مغادرتها السجن، وأوّل لقاء لها بعفاف بعد فترة طويلة. لم تكن لتقصد طبيباً، لولا اتّصال عفاف بها للسؤال عنها بعد أن أفرج عنها، تفهم عفاف ميلَها اليساري وتشاركها في ذلك ضمناً. لا حَرَجَ في الحديث حول موضوع السجن، رغم التقارب الذي تشعر به تجاه صديقتها. لا أحد كان يجاهر بما يفكر فيه في مجتمعها،(نعلم جيداً أن هناك نساء، مَقْتَهَا مَقْتاً شديداً لكرههن لكلمة شيوعية، للشيوعيين، وما يمتّ إلى السوفييت بصلة).

خفّ الألم بمرور السنين، أو أنها تجاهلته ببرودها الذي تطبخه على نار هادئة. والناس تنسى، كما أكّدت لها عفاف، وهناك من يذكر ليؤكّد لها فرادتها، من دون أن تشعر أن الأمر يخصّها. ومحاولات مستمرّة في مناسبات مختلفة أتت على شكل دعوات سرّية لمخضرمين ومخضرمات، وزيارات شكر وتثمين. والأجيال تعاقبت حتى اختفت سلوى، ونُسيت، وكما أرادت.

عفاف التي أخذت مكانها في أكثر من محيط، ظلّت وفية لصداقة، تعود إلى أيام الابتدائية. اختلف بيت عائلتها تماماً عن معظم البيوت في المحلّة، وعائلتها المقتدرة مكّنتها من إكمال دراستها، واقترانها بطبيب من عائلة معروفة في البصرة أيضاً. تتّصل بها، وتزورها. تحثها على التخفّف من أحمالها، وتحاول جرّها إلى أمسيات وحفلات في نوادي وجمعيات. عفاف هي الصديقة الوحيدة التي أثارت فضول ابنتها. تسأل عن تاريخها، وتنصّت إلى مكالمات الأمّ معها. تُعجب بعطرها الفوّاح الذي ينخلّف في

مكان وجودها، وتحلم بامتلاك حذائها الأحمر ذي الكعب العالي الرفيع. تصفحت ديوان شعرها الأول المهدى إلى الأم، وسألت عن الأدباء الذين جالستهم عفاف في الصور واحداً واحداً. كانت تدفع إلى لقائها، أو دعوتها لغداء في البيت. كانت تغادر غرفتها ما إن تصل عفاف، تتطوّع مصرّة على غسل الصحون، وتعزيل المطبخ بعد الانتهاء من تناول الطعام، وعمل الشاي لهما خلالها. وليس بعيداً عن فكر الأم ما يُعجب وفاء في هذه المرأة، عدا عن ذكائها وحيويّتها، فلطالما شعرت سلوى أنها النقيض لعفاف.

عفاف أكّدت لوفاء أنها فعلت ما تحبه، وما لم تجرؤ أن تفعله الأخريات. السرّ الحقيقي لا شأن له بما يشعر به قلبها الأخضر. استخرجت لوفاء بطاقة اشتراك في مسبح الميناء، وكانت تمرّ أسبوعياً لتصحبها معها إلى النادي. ألحّت وفاء ذات يوم في أن تصبغ شعرها باللون الأحمر الصارخ، كما فعلت عفاف. تفصيلة صغيرة سبّبت الصداع للأمّ، ومقاطعة من قِبَل البنت، بسبب الرفض الحاسم الذي جُوبهت به. جُنّت، وهي تسمعها.(صيري طبيبة، على الأقلّ وعندها تصرّفي، كما يحلو لك). البنت تتحدّاها، تشيعها بنظرة استخفاف، وتعمد إلى إثارة حفيظتها، تهزأ بها، وتتنمّر عليها. وكأن الناس متفرّغة لمراقبتنا، تدوّن في دفاترها الصحّ والخطأ الذي يتأتّى منك ومني، (وثمّ ماذا؟).

لم تسأل سلوى عن طليقها وكل ما وصلها عن حياته، وعن زواجه، جاءها عبر صديق لأخيها. خطرت زوجته ببالها بعد سماع خبر وفاته، وأخوها هو الذي شدّد على ضرورة الاتّصال بها، لتعزيتها. راحت تدور في أركان الشقة ممتحنة في المقترح الذي حاصرها أخوها بشأنه. لم تستطع أن تغفر له الحياة التي عاشتها. تنازل عن وفاء لها، عن طيب خاطر. ترك طفلته، وهي في سنواتها الأولى بعد. استسلم، ولم يحارب، لم يكافح، من أجل الفوز بها مع طفلتها. لم يفعل شيئاً غير استسلامه للقرار، وتنازله عنهما. صار طليقها، ولم يصلها إلا النزر القليل عنه في فترات متباعدة. لم يحاول الاتصال بها من أجل الاطمئنان على وفاء. وهو لم يثق بها أيضاً. سرعان ما أعلن يأسه منها. حدّثها مرّة عن ضرورة إكمالها لدراستها بعد خروجهما من السجن. وهو ذاته من اتّهمها بالاستسلام. باتّخاذها الطفلة كحجّة، عرض حلولاً سخيفة، وتلبستها نوبات عصبية، جعلته يلزم الصمت إثرها. عندما تعود بالذاكرة إلى مواقف وحوارات وخلافات دارت بينهما، لا تجده قريباً، يقف هناك، بعيداً، يتحدّث بصوت خفيض، يعاتب، ويعتذر من مكان قصيّ، ولا يحفل لما يحدث من حوله. هل يعرف ما كان يدور في

رأسها؟! لطالما حثّتها عفاف على مكاشفته، بما تشعر به. الرجل يا سلوى لا يفهم ما نشعر به، من دون مساعدة، وتضحك، بصوت عالٍ.

اكتفى بحقيبة، حمل فيها ملابس قليلة، وبضعة كُتب. تلكأ، وطلب من ثمّ صورة لوفاء ليحملها في جيب سترته. بعد فصله من عمله، اتّخذ قراراً مفاجئاً بترك البصرة إلى الأبد. لم يتصل منذ ذلك الحين، ولم تحاول السؤال عنه.

تهديدات وفاء بتركها تكرّرت. استيقظت سلوى صباح أحد الأيام، ولم تجدها، أخذت تطرق أبواب الأهل، وتتصل بالصديقات للسؤال عنها. يومان بأكملهما مرّا قبل أن يصلها فجأة صوته، يطمئنها عبره على ابنتهما. رافقت عائلة صديقتها سفرها إلى بغداد من دون أن تخبرها، وأفلحت بالعثور على عنوانه، وهي لم تكمل سنّ الخامسة عشرة من عمرها. أكّدت الابنة لها وإثر الخلاف الذي حصل بينهما أنها لا تتوانى عن تنفيذ تهديداتها.

هي المرّة الأولى التي سمعت فيها صوته بعد مغادرته البيت. دار حديث مقتضب بسؤاله عن وضعها وصحتها، ولم تكن قادرة على الأخذ والردّ تماماً معه. سخطها عليه لم يَخفَ عليه. انسحب بعد أن وعدها بالحرص على وصول وفاء سالمة إليها. كانت المرّة الأخيرة قبل أن يغادر الحياة. لم يترك لها الكثير للتفكير به عدا تدبّر حياتها وحيدة. اتّخذت القرار، لا عن ثقة، ولكن من دون خيار. عقبة الأهل وتدخلاتهم، حاجتها إلى المال، وصعوبة العثور على عمل. بدأت مشوارها طبّاعة في شركة أهلية، بمساعدة صديقة مسيحية لها، عملت في البنك العثماني آنذاك. تشجّعت سلوى، إن لم تكن مضطرة. ورغم اعتراض الأهل تلقّت سلوى الدورة التي تطلّب من الطبّاعات إتمامها للتدرّب على الآلة الطابعة. المجالات محدودة، ثمّة البنك المركزي والعثماني وشركة النفط وبضع شركات أهلية، ولم يعرف الناس غير ديزي وجانيت ومارلين وجورجيت وجوليت وماري ممن عمل فيها فترة الستينيات. ولكن الوضع اختلف بعدها، وهي ما لبثت بعد بضع سنوات أن انتقلت للعمل في دائرة الكهرباء والماء. راضية بمشوارها اليومي، وروتين عملها، والطريق الذي تقطعه سيراً على الأقدام، والضرب على الآلة الذي أدّى بمرور السنوات إلى اعوجاج أصابع يديها، بسبب الروماتيزم. لم ترغب في أن تصير طبيبة، ولم تقل ما قالته لابنتها بدافع الوجاهة، وما اعتاد الأهل ترديده. عجزت عن التعبير عن خوفها من القادم حسب، ومن محاسبة مجهول لقصورها يوماً. حتى الكُتب. وهو الشيء الوحيد الذي ظلّ صفة ملازمة لماضيها، أشاحت بوجهها عنها، استثنت

بضع روايات، وشككت في أمر ما تبقى، وباعث. صففت ما اضطف على رفوف مكتبة الأمريكان جانب المصطبة في الصالة، ومنظرها كان هو المطلوب، مبعث راحة عميقة لها.

يرى بسيم أن سلوى نجحت في عزل نفسها، والانغماس في متطلّبات الحياة منذ غادرت السجن، ابتعدت، وأظهرت صلابة في إبعاد الناس عما مرّ بها، بينما لم يستطع هو إخفاء أمر ماضيه. يفكّر أنها آلية تخص المرأة، ولا شك، ومن الصعب عليه إتقانها، (لجأت زوجته إلى الطريقة ذاتها).ولكنه انسحب من السياسة حتى في أثناء الفترة التي أعلن فيها عن قيام الجبهة الوطنية، وإعلان بيان حسن النيّة، والمصالحة بين حزبي البعث والحزب الشيوعي في العام ١٩٧٣. حصل على منصب مهم، يصبّ في حقل تخصصه في معمل الورق بعد أن تولّى مسؤولية قسم المشتريات الخارجية للمعمل، يخاطب الصين، السويد، ألمانيا، وبريطانيا ويقصد تلك الدول في سفرات للتفاوض معها. وكاد أن يحصل على ترقية مؤمّلة، لولا زملاء له في العمل، بذلوا جهدهم، من أجل إزاحته بعيداً.

اكتفى بالبيئة التي هيّأت له استقراراً وفضاءً اجتماعياً هادئاً مترفاً شمال البصرة، ولم يعد له ارتباط بمركز المدينة، عدا زيارات متباعدة للأهل، يستقل الباص الخاص بالمعمل ليقوم بها.لا حياة صاخبة، ولا التزامات زوجية ثقيلة. انقطع تواصله مع الكثيرين في الغالب، وما توفّر من جهد وطاقة، كرّس لعمله، والتكيّف مع شكل حياته الجديدة. اختلفت طريقة حياته، وترسّخ إيقاعٌ مريح ليومه، يتوجّه خلاله إلى عمله (بعد أن يدقّق النظر طويلاً في مظهره أمام المرآة). يتبادل مع سائقه حديثاً يومياً قصيراً قصر المشوار بين البيت ومكتبه. وقد سمح له تصميم البيت الحديث التابع لدور الموظّفين بالانفراد بمكتب صغير، جمع فيه ما اقتناه من كُتُب، وما ائتمنه الآخرون عليه.

الرفوف عادت لتمتلئ شيئاً فشيئاً، والحياة بدت واعدة مريحة، وما يطمح إليه آخذ بالتحقّق. تناسى أمر الأطفال، ومراجعات العيادات الطبيّة، وصمّ آذانه عن لغو النسوة، وثرثراتهنّ. الجديد هو وَلَعُه الذي استجدّ لأصناف الطعام، الصحّي منه، وطريقة تحضيره. هو أوّل من أمر وألزم العائلة بالابتعاد عن استخدام التنفن والزبدة، والاكتفاء بالزيت تفادياً للأمراض. اقتنى الكُتُب الخاصة بالصحة، وصار لديه أكثر من اشتراك

بمجلات علمية، تصله فصلياً وشهرياً، من بعض الدول الغربية. كما كبر شغفه بالتبضّع، فصار ينتقي أجود الخضار والفواكه، ولا يأكل غير الطازج المذبوح من اللحم والسمك والدجاج.

السيارة التي تقوده إلى عمله متأنقاً ببدلته ورباط عنقه وحقيبته الجلدية السمسونايت كل صباح، اقتادته مباشرة ذات يوم، ومن دون توضيح إلى دائرة أمن النجيبية، هذا كل ما سمعه خلال الطريق بعد أن عصب عينيه اثنان بزيّ مدني، جلسا في الخلف بانتظاره. شدّا يديه إلى الوراء بحبل، والتصقا بجسمه لينحشر تماماً بين جسديهما.

لا يذكر ما تبادلاه من حديث في الطريق. ولم يسمع كلمة مثل خذوه أو حتى سؤال عن اسمه. ما إن أنزلاه من السيارة، وقاداه بضعة أمتار حتى انهالا عليه بالضرب والركل والسباط. لربما انضمّ اليهما أكثر من واحد، لدقائق، لم يشعر أنه لامس أرضاً، كانوا وكأنهم يتقاذفونه مثل كرة بأقدامهم. استمرّت حفلة التعذيب خمسين يوماً، يُعلّق خلالها بسيم طوال النهار، وقد يبدأ الحفل الهيستيري أحياناً بعد منتصف الليل. نام في حجرة صغيرة مظلمة، ولم يعلم آن يفيق ما إذا سيعيش الليلة، أو يطلع عليه النهار الذي يلي، ما إذا سينقل إلى مكان أبعد، أو يُعدم، أو يُرمى في سجن صحراوي. يرى فانيلة الجلاد، وهي تتشقّق، تتفتق، كما لو أن الحيوان في داخله لا يكتفي، يريد أن ينبثق من صدره لينهشه.

الجلادون يتعاقبون عليه، منهمكين في وظيفتهم بالوحشية المطلقة قبل أن يعيدوه إلى مكانه تحت الأرض. تركوه يوماً ليستريح، دقّوا جداره حين فُشّت إشاعة بين المعتقلين بقدوم جلادين جُدُد مع كلاب، سيتمّ إطلاقها عليهم في الزنزانات. ولم يأتوا، لكن ساعات الرعب تحت الانتظار أنهكتهم تماماً. ولمّا جاء دوره مجدداً، قيل له لم يبقَ لك ما تعترف به عرضوا عليه ألبوم صور كاملاً، وهم يتبادلون التعليق بأقذع الشتائم. هل تعرف هذا القوّاد؟! وأختك هل تنام مع هذا الـ؟.. صور حفلتين خاصّتين في بيت أخته، كانت ترقص مع زوجها وأصدقاء آخرين، وأخرى في بيت صديق قديم لهم، ولقاءات عامة في نادي المعمل، حاول عبثاً أن يستجمع قواه، ليتذكّر من وقف خلف تسليمها.

استلمته زوجته جسداً هامداً وارماً منفوخاً مُدمّى، مع تعهّد بعدم مزاولة نشاط معارض. لعلّه لم يفق حتى اليوم من صدمته، فهو لا يدري كيف تمكّن رفاق قدماء من إقناعه في أهمّية دوره، وفي أهمّية العودة إلى

صفوف التنظيم، وممارسة النشاط من جديد، وهو يدرك تماماً مآل الأحداث، وموجة البطش المُعلَن التي اندفعت ضدّ كل حركة معارضة. بضعة اجتماعات سرّيّة، حضرها حتى استعاد من خلالها حيويته وحماسه. سرعان ما نسي، انتعشت آماله بتحقُّق ما هدف إليه مذ كان فتياً، وما يهدفون إليه الآن، عدالة وحُرّيّة وسلطة نقابات، حقوق عمّال وفلاحين، بإمكانه ذِكْر قائمة طويلة لقضايا بسيطة، تمسّ حياة الناس اليومية، لا علاقة لها بالكراريس السوفيتية، كما ذُكر، ولا الأممية والحلم بالحجّ لزيارة قبر لينين في موسكو. اختلفت الآراء ودرجات الولاء، وما كانوا يتفقون بشأنه، وما هو بحاجة إلى مراجعة وتجديد. ولكنْ لم يمض على مزاولته النشاط السياسي إلا فترة وجيزة قبل أن يشي أحدهم به.

أسدلت زوجته الستائر في غرف البيت كله، وأحكمت غلق الأبواب. أجازت نفسها، وانصرفت لتطبيبه. كان الولد الصغير المرعوب يرصد ما يحدث من بعيد. يتبعها، أو يتسلّل إلى الغرفة ليفهم ما يدور. تُناديه، هاني، فتشتعل الجروح لسماع صوته من بعيد، وهو يعاندها، أو يلحّ في طلب ما.

لم يزَ بسيم الضوء، ولم يطقْ فكرة رؤيته، تركت الكاسيت يدور في جهاز التسجيل ليل نهار، وبصوت عالٍ.("وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون")، يخيّل إليه أنه فقد بصره. كما لو أنها أمّه هي التي تُبسبس في أذنه. يشعر بيد زوجته تبدّل الكمادات الدافئة، الواحدة تلو الأخرى، بأمل أن يخفّ ورم عينيه ليتبين أمر نظره. يُرهف السمع إلى كل حركة من حوله. متوجّع الجسد والنّفس، مُدمى الروح. الكاسيت يدور، ويدور، صوت التلاوة يرتفع عالياً عبر باب غرفته الموارب، حالة عاشها من قبل، بعد عودته من إيران منتصف الستينيات. كرّرت عليه أمّه الآية ليحفظها، وهو طفل، تلجأ إليها عند الشدّة، سمعها، وهي تتلوها في الطريق إلى إيران، وكلّما اجتازا تجمّعاً للشرطة. يذكر يد أمّه التي ضغطت على صدغيه حين عاد من إيران مريضاً، تلك الحرارة المرتفعة حدّ الهذيان، والحقن التي وصفها له الطبيب بعد أن اكتشف التهاب كبده الذي لم يُفلح في علاجه.

في الأقوال المأثورة إن الكوارث تحصل دفعة واحدة، وهذا ما حصل لهم في هذا العام (وَصَفَ الناس صيف ١٩٧٩ في العراق بالجحيم). الخبر الكارثي الذي قصم ظهورهم جميعاً، وأخرسهم، لم يكن في اعتقاله وتعذيبه، بل اختفاء أخته وعائلتها، الزوج مع ابنتهما، بتهمة الشيوعية. ولولا الصدفة لقُضي على ابنها الصغير عامر. من منهما جنى على الآخر؟

جاءه تبليغ عاجل بضرورة اختفائه، ولكنه تأخّر. وحين وصلهم خبر اعتقال أخته، انطلقت زوجته لتستكشف الخبر، وهي التي عادت بالطفل معها بعد ساعتين، لاهثة مقطوعة النَّفس، لرعبها من المراقبة، ولخزّ المشوار الذي لفحهما في تلك الظهيرة. أغلقتْ باب الغرفة، وأبلغته بصوت، كاد يختفي عن قرار العائلة المنكوبة (إنه ابن أخته، وعليه أن يتكفّل به). لم يستطع أن يفتح فمه ليعترض. ملامح وجهه غير قادرة على التعبير، لا على الموافقة، ولا الرفض.

وكأن أمه أدركت في الحال أن لا جدوى من الانتظار، حين أمرته بتبنّي الطفل اليتيم. كأنها انتظرت السنوات التي انتظرها لاحقاً قبل سماع خبر إعدامهم. ظلّ يأمل في داخله في ظهور أخته ليدفع لها بابنها في الحال. ظلّ لسنوات لاحقة عديدة يعدّ نفسه للاعتذار، ولطلب المغفرة منها.

هذا كله بدفعة واحدة، في بيت واحد، فما لبث أن تمّ القبض عليه. ليخرس الجميع. أعادوه من الاعتقال معصوب العينين، كما أخذوه. ظهره إلى العالم، ووجهه في بياض الجدار. لا قدرة له لتحريك أصابع يديه المضمومة بين ساقيه، وهو متكوّر على الفراش أرضاً.

انطفأ نور البيت الكبير، وتاهوا. هل يمكن لأعمى أن يخاف الضوء؟! يرتجف مخافة أن يغشي الضوء بشدته عينيه. أن يهمي الضوء فجأة، ويُعميه. لم يستعد لسانه، أو أن الرغبة عافته في التحدّث مع بشر. لا يكاد يعرف ابن أخته، إلا عبر أخته حسب، وفي المناسبات. وهل عرف يوماً أخته، أحلامها، خطط العائلة، وما كانت تريده وتحلم أن يكونه هذا الصبي؟!

لم يكن يشعر إلا والجزع ينزل قطرات دم متلاحقة على صدر قميص بيجامته. ظلّ يعضّ جانب لسانه المشلول، من دون وعي حتى يدميه. يسيل اللعاب ممزوجاً بالدم، وهو منكفئ على المذياع، يتابع من خلاله أخبار العالم، وكلّما خفض رأسه أكثر ظنّ أن السماء اختفت، وأنه نزل إلى أسفل تحت الأرض، ولون جلده صار بلون أزرق مخضرّ، وأن النور يشحّ، ويشحّ، وسينطفئ.

كان كلُّ ما مرّ مدبّراً، من أجل أن ينقضّا على الولد اليتيم، ويتبنّياه. دفع بالحزن جانباً، ونهض. دخل حالة من الجمود. شيء أكثر حرقة من الثلج أعطب روحه. تأمّل زوجته من على مبعدة، وهي تتحرّك، وتخطّط، وتقرّر. لم يمنحها طفلاً، فكان كل منهما بإمرتها، تحت رحمة يديها، وببركة الصلاة

التي بدأت بممارستها مذ ذلك التاريخ، حين قزرث على الفور ترك عملها في الوظيفة، ورهن حياتها للطفل.

اندلاع الحرب أكذوبة. ظن الجميع أنها أيام سرعان ما ستنقضي. لم تفقه الناس معنى الحرب بعد. التحرّشات أودتْ بإعلان حرب، وإيران بحاجة إلى تلقين درس، ليس إلا. ولكن المدينة ما لبثت أن تلبست بوجه عسكري، أحد أقنعتها الرئيسة. صدر أمر نقل بسيم بعد التعذيب موظّفاً في قسم المشتريات لمعمل الأسمدة في خور الزبير. تعددت الجبهات، وتصادم الناس ببعضهم. ولم يصمد البيت ذا القوالب الجاهزة الشبيهة بالكرفانات أمام وقع أول قذيفة مدفعية من الجهة الأخرى من الشطّ. كادت زوجته تجنّ، وهي تنتشل هاني عندما انهار لوح السقف مع التراب والزجاج في غرفته. وليس هناك من مفرٍّ لهم سوى الالتحاق بمعمل الخشب المضغوط في النجف، والذي تمّ نقله إليه من جديد، للتخلّص منه نهائياً، وإتماماً للعقوبة.

عاش بسيم مثل سجين محكوم بالمكان الضيّق الذي يُنقل كل مرّة إليه. تمنّى في لحظة لو أنه كائن غير مَرئي، لو بإمكانه الاختفاء. انكسرتْ فيه الرغبة بالمقاومة، وتناهبته مشاعر، أخجلته من نفسه. معمل الورق هو بيته الذي خلّفه وراءه في البصرة، في أوّل سنين إنتاجه، وهو من ضمن بُناته. المشروع مشروعه هو، وخُطط تطويره تخص مستقبله هو. تراكم شعور من الحرقة والغضب لإزاحته من مكانه. أضاع هويّته، لم يشعر أنه جاهز للظهور في حالته تلك. خلع بدلته ورباط عنقه، وارتدى الزيّ الخاص بمشروع معمل الأسمدة من قماش الكتّان، ولوّنه بشعاره الذي حمل ورقة نباتية مطرّزة على جيب القميصة. يدرك أمام المرآة أنه فقَدَ بضعة كيلوات من وزنه، بدا القياس أوسع برَقْمين، ما جعله يشعر بثقل وبلاهة هذا الواقف أمامه، فيولي المرآة ظهره.

لم يكن بوسعه الالتفات إلى الولد الذي يرمقه بنظرات حزينة متوجّسة من بعيد. لا يني يثير فيه مشاعر، تسبب احتدامه. اختنق تلك الشتوية، وتلبّسته فكرة الهروب منهما، ومن البلد. كاد أن ينفّذ الفكرة، ويهرب. قرّر أن يركب مع الآخرين موجة الهروب والنزوح التي تقف وراءها حملة لحصد المعارضين، واندلاع حرب، جُنّد فيها الشباب من دون تمهيد، أو

استيعاب لفكرة الحرب، ومسبّباتها. لكن باب السفر أُغلق، وطريق الهروب مروراً بكردستان كما وصله، ليس له.لا يتخيّل مصيره مربوطاً بمهرّب وبغل وثلج وكمائن (ومَن ذا الذي سيتولّى أمر العائلة؟! وماذا عن مسؤوليّته تجاه هذا الطفل؟!).

ولم يدم الأمر طويلاً، وحُزيّة الخيال ميزة، سيفقدها إلى الأبد حين تمّ استدعاؤه من قِبَل الأمن في النجف ثانية. (ماذا بعد، يا أولاد الكلب؟!). دخل عليه موظّف مسنّ من قسم آخر، وتحقّق من اسمه الكامل عندما كان في طريقه لمغادرة مكتبه بانتهاء الدوام. كان نحيف الوجه منخور الأسنان، وقد ضاعف الحزام الجلدي العريض بقبضته من مظهر نحوله. أبلغه إثرها بالاستدعاء من بين دخان سيجارته، من دون انفعال يُذكَر على ملامح وجهه. لاح وجه زوجته بالحال أمامه. أمضى على ورقة الاستدعاء، وطلع. عليه المثول في الغد صباحاً، في الشعبة التابعة لأمن المعمل في المبنى الملحق قبل مباشرته بعمله.

الحرب التي أشعلتها وفاء سبقت حرب العراق مع إيران بكثير، ما ضاعف من حيرة سلوى، وزاد من عصبيتها. ذلك حين صغدت وفاء في مراحل مراهقتها من احتجاجاتها، مُلقية باللوم على الأمّ، في كل جانب من جوانب حياتها. أشياء كثيرة في عينيها وعقلها غير كاملة، أو خطأ. تريد أن تعيش حياتها بحُرّية كاملة، أن تتأخّر بعد محاضرات دورات التقوية في العشار، من دون محاسبة، أن تبيت ليلتها في القسم الداخلي للجامعة مع صديقة لبنانية، تكبرها سناً، من دون استفسار. أن تُرافق أخريات للتجوّل في سوق حنّا الشيخ، وشارع الوطني، وتقضي ساعات طويلة معهم في مقرّ اتّحاد الطّلبة العرب. تريد أن تمارس هواياتها في المكان الذي تحب. أصرّت يوماً على العمل مذيعة، وجئت عندما رفضت الأمّ تقديمها إلى برنامج، يبثّه تلفزيون البصرة. صوتهما يعلو بشكل غير مقبول، وهما يتجادلان. وفاء تعلم أن أمّها ترفض بشكل قاطع انخراطها في أيّ نشاط، له علاقة من بعيد أو قريب بالشيوعيين، وأيّ نشاط يستوجب عليها الانتماء فيه إلى حزب البعث. وليس خافياً على سلوى استحالة العثور على مكان، تمارس وفاء فيه هواياتها بهذه الشروط: لا مسرح، ولا كلّية أو فرقة في نشاط مدرسي سيفسح لها الفرصة. وما همّها من هذا كله، لتنظر إلى صديقاتها، وتدقّق في تاريخ أهاليهم، هي لا شأن لها بكل هذه السياسة التي سمّمت حياتها، تضرب بقدمها الأرض انفعالاً، لن ينفعها الحديث عن القيل والقال الذي تخشاه الأمّ، لا سمعة الشيوعيين، ولا سمعة البعثيين أفادتهم، وأفادتها، تضرب بقدمها بقوّة. ما همّني بكل هذا الخرااا...

تنفجر بالصياح، وتُغلق باب الغرفة من خلفها. وتُعاقب كلّ منهما الأخرى بالصمت والتجاهل لأيّام.

ترصد سلوى الشاب عازف الجيتار الذي عرض على ابنتها وفاء دروساً في العزف. ردّت على اتصالاته أكثر من مرّة. والاخر الراقص في الفرقة التابعة لمديرية النشاط المدرسي، على يقين من ميل وفاء إليه، حرصها مثلاً على حضور بروفات الأوبريتات التي يشارك فيها على مسرح التربية في العشار. كشفت لوفاء عن كذبها عندما ادّعت أنها تزور صديقة،

وستتأخر. غاب عن بالها أن الأم تحتفظ بكل أرقام الهواتف التي تخص البنت. أطلقت عليها صفة مخبر سرّيّ، تثوران، وتُعنف إحداهما الأخرى، وتلعن حظّها. تبادر وفاء من ثمّ لمصالحتها، وتختلق أشياء لتُعيد الصفاء بينهما. تُنصتُ لغنائها في البيت لأيّام، أغان قديمة شعبية، لم تعرفها من قبل، تتعمّد أن تستميلها عبرها. تضحك، وتُبعدها حين تلحّ في تقبيلها، أو حضنها. ماما حياتي، تعمل لها ما تشتهي، تتفخص شعرها، وتهمّ من مكانها لتتّصل بزوجة الخال كي تأتي لهما بالحنّاء لتصبغ شعرها في الغد. يمرّ الوقت مُنساباً، من دون عثرة. تظنّ أنهما تفاهمتا حول الموضوع قبل أن تُفاجأ بها مُختلية بثالث في الشقّة، لم تعرفه قطّ، أو تسمع عنه يوماً. عادت ذلك اليوم إلى البيت في غير موعدها. حاولت لحظتها أن تفكّر في طريقة تُداري بها الموقف من دون أن تتصرّف بغباء. مشاعر جمّة قبل الأفكار تصادمت في رأسها، وهي تقابل الشاب النحيف الطويل أمامها، ولم تتوصّل إلى غير خلع حذائها، وقذفه بوجهه.

إنها عصبيّتها التي تُفسد عليها حياتها. (ما الذي جعل والد وفاء ينفذ بجلده). لو أنها أنزلت عن يدها حقيبتها، وشربت كأساً من الماء أوّلاً. لو أنها دخلت، وتوجّهت مباشرة إلى الحمّام. بدا الشابّ، وكأن قلبه توقّف هلعاً. انهالت عليه بسيل من الشتائم، وهي تهتزّ انفعالاً قبل طرده، وكادت أن تقذف به من السّلّم. وفاء التي لا تراها سوى طفلة غرّة، وعوضاً عن اعتذارها لطيشها وتصرّفها الأخرق، وقفت بطولها أمامها مثل نمرة، تودّ لو تنقضّ عليها.

خطّان متوازيان للحياة، واحد ملوّن، والآخر أسود. وما الذي تختاره وفاء؟ مهرجانات واحتفالات ضمن حرب ومراقبة ومداهمة بيوت. خطّان متجاوران للتمويه والإيهام في الواقع، ربّما لا يعرف الأوّل عن الثاني شيئاً، وربّما يعرفان بعضهما البعض جيّداً، ويسيران بقبول متوازيين. كأن تتوجّه سلوى إلى عملها يومياً مغادرة البيت الساعة السابعة والنصف مثل كائن صناعي. لا وظيفة لها أو مهمّة غير آلية. فوضى التضادّ هذا في كل شيء لخبّط دورها كأمّ. وكأن وفاء تعيش حياة عادية مستقرّة، تقصد فيها حفلات، تقيمها النوادي المختلفة، لها روّادها وصالاتها وفِرقها الفنّية ومعارضها الفنّية ومسابحها. وكأنّ لا شيء رهيب في الأجواء، وإن وفاء تدخل مرحلة جديدة حسب، وتحتفل بتجربة أولى كي تتحضّن لباقي حياتها، بطبيعية، كما يفعل أقرانها في العالم كله، وكأن قلقها ليس لغير وقوع ابنتها في الحبّ لأوّل مرّة.

بدا كل شيء آلياً، أو مقدوراً عليه على السطح، تنسى الناس، فتفرح قليلاً، تأمل، وتخطط، تتابع أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وتتفزج على برامج، لا علاقة لها ببيوت، تفض بمحن شديدة الشبه بمحنتها، تُنقل مؤتمرات عبر الشاشة، قدوم فنانين في زيارات وحضور مناسبات، معارض فنية ومهرجانات، حفلات ووفود فنية تكذّب، شأن وفاء، ما هي عليه، حتى تعود لا تعرف حقيقة خوفها إزاء وفاء، مُتأتٍ من ماذا؟ من المجتمع حولها؟ من الناس الذين باتوا انهزاميين؟ أم من السلطة ورجال أمنها؟ أم من وسواسها؟ هل هي مريضة؟ أين الخطأ؟ منها هي ذاتها؟ هل هي واهمة؟ همّت أن تشكي لأخيها حيرتها. حارث في أمرها، وناقضت نفسها بالقوانين التي فرضتها عليها، ولا سبيل من أجل تهدئة البنت.

محلّ النجارة أسفل شقّتها مصدر خوف جديد، بوجوه النجّارين المتفحصة، والنظرات المتجسسة، ووجبات العمال المتغيّرة. تغيّرت وجوه الرجال الذين ينزلون "الكبنك" آخر المساء لينصبون مائدتهم، ويسهرون في داخل المحلّ حتى ساعة متأخّرة. رغم أن العلاقة التي تربطها بصاحب المحلّ قديمة، تعود إلى اليوم الأوّل الذي انتقلت فيه إلى الشقّة العالية، واكتشفت أن الماء لا يكاد يدور في أنابيبها، شحيحاً بخيوط ضعيفة، أو متقطعة حين تدير الحنفية. اتّفقا على أن تشتري لها مضخّة صغيرة، يقوم بربطها إلى الحنفية أسفل زاوية المحلّ. ذلك سيملأ لها خزّان الماء في سطح الشقّة يومياً. تبادلا عبر السنوات مِخناً حياتية، مزا بها، وأطباق طعام شتى في مناسبات، ومن دون مناسبات. هو الذي بذل جهداً في تجديد قطع الأثاث التي حصلت عليها من مكاتب الأمريكان حين أنهوا خدماتهم في شركة النفط حينها بعد حرب أكتوبر. دفعت سعراً زهيدا لمكتبتين، وقعت في هواهما، مضافاً إليهما كرسي كهدية من السيدة المهذبة التي استقبلتهما هي وعفاف. توجّب على العوائل الأمريكية أن تُفرغ بيوتها، وتغادر بعد أن تمّ تأميم حصّتهم من النفط نتيجة للموقف الأمريكي الداعم لإسرائيل. باع الأمريكان ما يملكون على وجه السرعة، وغادروا البصرة. صرَفَ النجّار وقتاً وجهداً مضاعفاً من دون مقابل. نزلت وصعدت يومياً لترصد مراحل عمله، وكم أفلح في أن يعيد للقطع رونقها، كما لو انها رُكنت في مكانها الأبدي منذ عقود. حظيا منذ ذلك اليوم بموقع أثير في الصالون، وأضافا طابع استقرار رغم تقشّف المكان من حولهما.

صارت تحرص على غلق الشبابيك والتأكد من الأقفال. ترتعب لطرقات الباب ودقات جرسه. تشك في أدنى سؤال من النجار أو غيره. الأجواء

منذرة وأسماء اليساريين الذين أعلنوا عن نشاطهم منذ إعلان الجبهة الوطنية حان حصادها. سَرى خبر حملة الاعتقالات وداوم شقيقها على الاتصال بها ليل نهار ليطمئن عليها، خشية أن يتعرّض الأمن لها، وهما وحيدتان.

لا هدوء في داخلها. احتدام مستمرّ، وانفعال لأقلّ الأسباب. لجأت لعفاف في عيادتها لتعينها. تناولت الحبوب المهدّئة مجبرة. شجّعتها عفاف على كسر إيقاع حياتها، وإيجاد بديل ما دامت في مقتبل عمرها. كيف؟

كانت تنظر إلى شعر عفاف المصفّف بصبغته الشقراء، إلى مكياجها الكامل، طلاء أظفارها اللفاع، إلى إكسسواراتها من الأحجار الكبيرة والماس، وحلق أذنيها وكعبها الرفيع العالي. تسائل نفسها، وهي تعيش رفضاً في داخلها للمساعدة، بينما هي عاجزة. (لمَ لا تجد في نفسها الرغبة في تغيير شيء؟). الراتب بقي ذاته، لم يختلف تقسيمه إلا قليلاً تحت ضغط تزايد طلبات وفاء. وجدث ابنتها ذريعة أخرى لاحتجاجاتها، ولم تكف عن إلحاحها بشأن شراء أثاث جديد للصالون بعد زيارة لبيت صديقة لها. أصرّت على تغيير الأريكة التي اهترأت قماشتها، ونثّ أسفلها تِبناً، وبعد أن برزث لوالبها المعدنية، واستحال إيجاد وضع مريح في الجلوس عليها. ولكنّ الإيجار يُدفَع بموعده، والثلاجة والمجمّدة لم يفرغا ممّا تحتاجانه ليومهما، وما الذي ينقصنا؟!

تنظر عفاف إليها بتفرّس يُحرجها، تستهجن جبنها، كما أسمته، وتختلف معها بشأن وفاء. وما قيمة ما يعنيه أن ترتدي معطفاً وحذاءً أحمر مثلاً! بالله، تجيبيني. لا تظنّها منصتة جيّدة، وسلوى بالمقابل لا تحبّ أن تُسهب في الحديث. لا تشبه النساء في تجاذبه معهنّ. تختصر، وتنهض متعجّلة مغادرة عيادتها.عليها الذهاب إلى البيت، وكأنه يناديها. وعليها أيضاً أن تمرّ بالصيدلي من أجل وصفة الدواء. لم تتّفق مع عفاف، ولم تُعجب بتضحيتها الكبرى، من أجل حُرّيّتها. وهي كمَنْ خبرت القسوة التي يمكن أن يكون عليها الإنسان من دون أن يشعر، تحاشث قول كلمة.

اختفث عفاف في بداية الحرب، وصلها لاحقاً خبر انتقالها إلى بغداد شأن الكثير من الأطباء الذين اختاروا الانتقال إلى بغداد الأكثر أماناً، والتي بدث حينها وللمفارقة أرحب من البصرة. وبينما قلّ نوم الناس، صار نوم سلوى متواصلاً ثقيلاً، يبعث على الغثيان.

مزارع الطماطة في قضاء الزبير غربي البصرة، والتي أفرزت الحربُ الحاجةَ إليها، وانتشر المئات منها، قامت بدورها على أتم وجه، في إخفائهم لسنتين متتاليتين، وحمايتهم من القصف المحموم. مسافة تقارب العشرين كيلومتر عن البصرة، لها فعلها في خصوصية تاريخ المنطقة. بيئة مستقلّة خاصة لحالها. ارتدى بسيم مثل سكّان الزبير الدشداشة البيج واليشماغ الأحمر والنعال، وتخفّى خلف البيوت المَحمية والمكائن الزراعية وأغطية النايلون وأقفاص الجني. سكّان الزبير أنفسهم، أخذوا يغادرون مناطقهم تباعاً متوجّهين غالباً إلى السعودية. قصد بيت صديق قديم له، ولم يجده. قابله عند الباب قريب له، يقوم بحراسة البيت. أخبره بلهجة أهل الزبير التي يحبّها عن هجرة الأولاد في تلك الأسرة الموسرة، الواحد تلو الآخر. وبانت الحسرة من خلال كلامه، وهو يشير بيده إلى صفّ طويل من البيوت التي فرغت من أهلها. الجميع حصل على الجنسية، واستقرّ هناك. دعاه بإلحاح إلى الدخول، ولكن بسيم قاوم رغبته بتلبية الدعوة تحسّباً للعواقب. اكتفى بما حصل عليه من معلومات. شكره، وعاد أدراجه إلى مزرعته. ملبس هذا القريب ولهجته والعطر النافذ إليه من الداخل عبر الباب من شأنه أن ذكّره بصديقه القديم وحفاوته البالغة به كلّما زاره. الناس تفزقت حقّاً. أجداد صديقه نزحوا من أواسط الجزيرة، ولجؤوا إلى هذا الجزء من البصرة ليستقرّوا فيه، وها هو يسمع بخبر مغادرته مع عائلته ليعود من حيث أتى في هجرة معاكسة، لم تُبق من الأصلاء إلا قلّة.

ترك بسيم وعائلته البيت ليلاً في النجف مُتسلّلين مثل لصوص هاربين. ترك ما يملكه في المكتب الذي شغله مع زميل، شك في وشايته، وغادر الثلاثة سرّاً إلى البصرة. شعر بسيم بعد مضي وقت ببعض من الأمان. تابع المزارعين واحداً واحداً، منهم مَن هو من سكّنة الزبير في الأصل، ومنهم مَن هو من البصرة، وكثر كانوا يصلون تباعاً من محافظات أخرى، الناصرية والعمارة لضيق العيش، وحتى من مصر. كان يتوجّس حين التقرّب إليه، وتوجيه سؤال أو معونة. لجأ إلى الدرّاجة في تنقّلاته. ربط عربة خشبية صغيرة بعجلتين في الخلف لينقل بها ما يشتريه من مستلزمات زراعية.

أضاع عنوانه، وأطلق لحيته، وجلس ليلاً يرصد أضواء قصف المدفعية المتبادل بين جهتي البصرة وعبادان من بعيد.

توجّب عليه إعلان موت عائلة، إثبات وفاة، واستحصال بيان ولادةٍ جديد للثلاثة عاملُ زراعي ورثة بيت مع الابن عامر الذي غيّر اسمه إلى هاني، ومنحه أبوّته. لن يعثر عليهم أحد، وقد عالجت الأرضُ ضلوعه المكسرة، وجروح كيبلات التعذيب ولسع عيدان الرمان على ظهره (كان الشلل قد أصاب أيضاً جانب وجهه، وذراعه الأيسر عندما استيقظ صباح يوم استدعائه من جديد من قِبَل أمن معمل الخشب المضغوط في النجف). بمرور الأيّام، خفّ لديه انحباس البول، والدقّ المتواصل في رأسه، وداوم على جلسات علاج طبيعي، على يد صديق موثوق منه.

بين الحين والحين، يفتقدان هو وزوجته شيئاً ما قد سُرق من بيتهما، مثل جميع بدلاته الرجالية، وأربطة العنق التي اعتنى باقتنائها. ضيّعته الغِترة التي لفّها حول رأسه، وعقد طرفَيها إلى الخلف. تماهى مع الزراعيين في المنطقة. وضاعت العائلة بين العوائل النازحة التي لجأت إلى الزبير، وبمرور الوقت والممارسة، توصّل إلى التنكّر في زيّ عامل صناعي، ما أكسبه الحُرّيّة في حركته وقيادته للدرّاجة. ولحُسن الحظّ، احتفظ بلباس من معمل البتروكيمياوات الذي لم يلتحق به سوى أيام خلال ذلك الهوس بنقله من مكان إلى آخر. وشيئاً فشيئاً، شعر بنفسه يسير مجهولاً في المكان البعيد والغريب.

ولأنه كان حذراً هذه المرّة، ازداد توحّشاً وريبة، ولأنه رأى أن السلطة – ولا شكّ تعاني من عصاب موقناً أنها لن تكفّ عن متابعتها له، لم يوقِف نموّ لحيته، ويوماً بعد يوم تحذدت معاني وجهِه المظلم، وقيّدته اللحية بجوّ نفسي، لم يتخلّص منه. توقّف عن التواصل مع أقرب الناس إليه، شكّ في دوافعها، وأمَرَ زوجته بملازمة البيت. قد يظنّ البعض أنها الحرب الأولى، ولابد وأن يوظّف الجهاز الأمني جلّ طاقاته في جبهة واحدة، ولكن اتعاظه من الدرس جعله يقوم بمشاويره بسرّيّة وحذر ليتفقّد بين حين وحين ما بقي من عائلته، ضمن علاقة، لا تتعدّى تلبية الحاجات الأساسية لهم. لم يستطع استرجاع طبيعته، وما له، والحنين والارتباط العاطفي والافتقاد أخذ يشحب بالتدريج. تصلّب وجهه وجلده وخشي أن ينهض ذات صباح، فيجد صعوبة في تحريك مفاصل جسمه.

ولأنه لم يعد قادراً على امتصاص صدمات المفاجآت، راعه أن يلتقي

في إحدى زياراته خفية لبيت أهله شاباً قصيراً، يرتدي البدلة الزيتوني، يبرز منه أخمص مسدسه، يجلس إلى جانب أخيه الصغير، يشربان الشاي. هبّ من مكانه على الكرسي ليصافحه مقبلاً عليه بوجه بشوش، وشارب كث، لم يتناسب مع وجهه الصغير. جفل بسيم، كاد يجمد في مكانه. تسارعت الأفكار، وتضاربت مشاعره، في محاولة منه لتلافي الموقف. هل هم بانتظاره؟! كيف علموا بزيارته هذه بعد أن غابت الشمس، وحلّ المساء؟! هل عرفوا هويته الحالية؟! وعائلته في الزبير، مَن سيخبرها؟! لم يشأ أن يُقلق زوجته بشأن النزول إلى البصرة، هي لا تعلم بزيارته، هل سيخطر ببال أبي حارث... صاح أخوه من مكانه؛

- لن تحزر من هذا الذي يقف أمامك؟!

تعالى الضحك، وهما يضربان كتفي بعضهما مزاحاً. ومرّ دهر قبل أن يُعلن الشاب عن اسمه. واحتاج بسيم لدهر اخر لكي يعيد أعضاء جسمه إلى مكانها، بسبب هلعه.

لا يذكر بعد مرور ما قارب الثلاثين عاماً هذا الطفل الذي لم يتجاوز بضع سنوات من عمره مذ عودته من المحمرة. صار شاباً ممتلئاً موفور الصحّة مستعرضاً لمظهره أمامه باختيال صادم. قال بثقة وبلهجة عربستانية، تقلب القاف غيناً بشكل مميّز؛

- أعمل في وحدة استخبارية عسكرية، لدينا مهمّات بين فترة وأخرى في عمق الأراضي الإيرانية.

لم يبدُ عليه وهو يذكر ذلك أيّ تردّد.

- عرضُ عملٍ محترم لمهمّات، لا أتفه منها، يُكسبني الذهب، أقضي وقتي متسكّعاً، والحرب تعود على كلينا بالفائدة.

تبرز أسنانه، وتغيّر من شكل وجهه، وهو يقهقه. لم يفهم بسيم ما يعنيه، وهو يشير إليه بتلك الجملة الأخيرة. بدا نزقاً ثرثاراً، وأردف بذات الوتيرة؛

- وقريباً عقد قراني على فتاة، سرقتها من عائلتكم.

رفع كفّه اليمنى أمامه، وقد ضمّد الخنصر فيها بأكمله. هو مَن سدّد مسدّسه بنفسه إلى الإصبع، وأصابه ليحصل على إجازة طويلة.

- شهر عسل طويل.

قالها، وهو يضحك عالياً، ولما بدا الاستهجان واضحاً على وجه بسيم العبوس؛

- اطمئن، ابن عمي، راتب وسيّارة مخابرات تحت تصرّفي، وموعود بقطعة أرض قريباً.

الأيّام تعاقبت بشكل جامد، يوحي بغطاء من حماية ما. عاش بسيم في السنتين اللتين قضاها في مزرعة الزبير بعضاً من هدوء نسبي، متابعاً مع شريكه أخبار السوق والتسويق والحرب مع إيران التي ينتظر الناس توقّفها في كل لحظة. يجوبان عوالم شتّى، ويوشوشان لبعضهما ليلاً تحت سماء مكشوفة، وكائنات نيام، وصمت آمن. عندما ينظر بسيم في المرآة لا يظهر أمامه غير عينيه، وقد نفخهما السهر، وقصور في وظائف الكبد. أخفت اللحية الكثة ورمةً، تنبه إليها بعد الاستدعاء الأخير في النجف، (ولعلّ رهبة منظره ساهمت في رفع الجلسة ذلك الصباح قبل انتزاع الرحمة من المحقّق وضابط الأمن الذي أجّل أمر التحاقه بالجيش الشعبي بعد أن جهزت السيارة في انتظاره خلف المعمل لسوقه إلى الجبهة).

أخذت الورمة أسفل الأذن بالتكوّر والبروز منذ ذلك اليوم، والطبيب الذي فحصها رأى أنها منطقة، تجتمع فيها جملة أعصاب، لا يحبّذ التقرّب منها. لن يستطيع الطبيب فعل شيء بشأنها غير الانتظار، وضرورة فحصها بين فترة وأخرى(وما حيلته مع الجسد الذي يأبى إلا أن يحمل آثارهم؟!!).

أيّام مرهقة تجزحت فيها أياديهم، وفاحت خلالها رائحتهما بمواد مكافحة الأمراض، بمبيدات الحشرات والبنزين ودهن المكائن. سارت مشاويرهما اليومية بآلية مخطّط لها، باتساق مع دورة عجلتي دزاجة وسيّارة بيك أب، تمز بانتهاء موسم صيفي، ومحصول جني، وحلول شتاء، وانهماك مطلق بالعزق وبالغرس.

رفَض بسيم أن يسقي ما حلّ به عقاباً، بيد أن سلوى آمنث بعقاب شديد، أنزلته وفاء عليها. صعب عليها أن تعقل ما أتت ابنتها على فعله. ويحها! ما تزال تشعر بجرح ولادتها لأدنى حركة تقوم بها. ولكنها اختفت فجأة! غابث وفاء الصغيرة عن المكان إلى جانبها في الفراش. الليل الذي يحلّ، ليس ليلاً، ولا الذي يطلع عليها صباحاً. سألث في المستشفيات ومراكز الشرطة. اتّصلث بأبيها من دون جواب، وحار الخال بالعثور على أثر لها. نبشث في زوايا الشقّة، واتّصلث مثل مجنونة بالصديقات والأصدقاء بين الساعة والساعة. لم تأبه لانتشار الخبر بين أهلها ومعارفها رغم تحذير زوجة أخيها. لا شيء غير العثور عليها. وأحبطث فجأة عندما تساءلا، الأخ وهي عن احتمالية ضلوع الأمن في اختطافها. هذا ما لم يكن في حسبان أحد. وفاء لا تعي خطورة ما تقوله، ويمكن لكلمة واحدة أن تمسح أثرها تماماً. ربما اقتصاصاً من الأمّ، أو انتقاما من أبيها (ماذا لو وشى بها حقاً أحدهم من المرضى من حولها).

بقعة ضوء آخذة بالتقلّص سريعاً بداخلها. يجعلها القلق تظنّ أنها تصرخ من دون صوت. لم تعد قادرة على التفكير. الندم لا غيره. (ذلك الشاب ملعون الوالدين)، لو تعود إلى ذلك اليوم، لما طردتها من البيت بعد مشادّتهما. لما أقسمث أن ابنتها ماتث، وستمحو كل أثر يعود لها. لما قامت القيامة، ولم تقعد لدى الأهل، فحرقث طريق العودة إليهم. لما أمطرت الأب بلعناتها غضباً لفعلته في إهمالهما، واختفائه عن حياتهما. لما فقدت السيطرة على أعصابها، وأهانث عفاف عبر الهاتف، ولم تتقبّل النصح منها.

تجد نفسها، وقد وضعث صحنين على المائدة مثل مجنونة، وقدحين يفصل بينهما قِدرا المرقة والرز وبعض من الخضار الطازجة. تتناول الصحن الذي أمامها، وتُدير فيه بعضاً من الرز والمرق، وتعيده مكانه مقابلها، وكأن وفاء كعادتها تتأخر رغم كل نداءاتها وشكواها من أن الطعام سيبرد. تتناول صحنها، وتدير فيه حصّتها من الطعام، وتشرع في الأكل. لا تكمل صحنها. تشرب القليل من الماء، وتنهض لتغطي الصحن المقابل بغطاء، وتنصرف من المطبخ.

الفراش بارد، برائحة ملابس قديمة، تم ارتداؤها لفترة طويلة، رائحة أنفاس محصورة متداخلة، ممزوجة برائحة خفيفة من غبار. تنظر إلى خزانة الملابس في غرفتهما، وبابها الذي لم يعد ينطبق تماماً. ضاع المفتاح منذ زمن بعيد، وفعلت الرطوبة فعلها به، فتورّمت حافاته. لم تترك لها وفاء متعة الحزن التي تتصاعد ببطء مع كل قطعة، تضعها لها، وهي توضّب لها الحقيبة مثل عروس، مثل مسافرة في أوّل رحلة طويلة لها بعيداً عن بيتها. لم تتركها تجلس تتأمل حيرتها. لم توفّر لها متعة التحديق بالأثر، ولتتشرّب بفكرة الفراغ الذي يخض خلو السرير وأرفف الخزانة والملابس المكوّمة المعلّقة خلف الباب. اكتسحتها موجة غضب عليها. لم تهنأ في حياتها يوماً بسببها. تُقسم وهي ترفع رأسها عالياً إلى السقف أنها لم تشعر يوماً براحة. إن عقابا ينزل عليها لأخطاء، لم تقترفها. شعرت أنها لن تستطيع المواصلة هكذا. كان شيئاً فظيعاً أن تتخيّل ابنتها داخل سجن، في دائرة للأمن، أن تأكل من صحن السجن، تمسها الأيدي القذرة، تركلها الأقدام، تغتصبها.

فتحت الخزانات في المطبخ، وشرعت بتنظيفها. غيّرت الجرائد الصفر المفروشة بأخرى، وانقضّت على زجاجات المربى الفارغة، العلب البلاستيكية المعدّة للخزن، الصغيرة والكبيرة منها التي فرغت من اللبن الرائب، قناني الخلّ المغسولة والجاهزة، والصحون المثلّمة التي تدسّها تحت أصص الزرع. جمعت كل خزينها الثمين، وألقت به بحقد فوق بعضه، بكيس كبير، سحبته إلى السلّم. تعود لتلقي نظرة على صحن الطعام المغطّى، وتدير ظهرها إليه.

وصلها الخبر أخيراً، وقضة زواج وفاء في بغداد مزحةً منها، ولا شكّ. بالكاد، أتمّت الثامنة عشرة. كيف اختارت شريك حياتها؟ ماذا عن خطة تقديمها للالتحاق بجامعة؟ أ لم يتفقا بالتفصيل حول اختياراتها؟ وماذا عن فارق العمر الكبير بينها وبين مَن اختارته؟ يكاد يكون من عمر خالها! ويلكِ، يا وفاء! وصلها الخبر من قِبَل رفاق قدماء، كما ذكر أخوها، فأمسكت نفسها عن التعليق. ويل أمّك، يا وفاء! لم يشغلها ما يحمله من فكر صادف أن يكون يسارياً معارضاً، ومطلوباً ملاحقاً فاراً من الالتحاق، بالجيش! لتقرّ عينكِ، وتطيب نفسكِ، يا سلوى! وفاء نسفت كل خطط الأمّ والابنة المشتركة، وحرقت الطريق من خلفها. ستعيد مأساة أمّها. يا لتعاستكِ، أيّتها البنت! دارت الأمّ لا تعي ما تفعل، ولا تدري ما عليها فعله. لكنها توقّفت، اتّكأت على باب الثلاجة، وجرّت نَفَساً عميقاً، ها هي قد سمعت

خبراً عنها أخيراً، إنها سالمة، وها هي كلّ منهما قد عرفت حدودها مع الأخرى. تناولت بيد متشنّجة كأس الماء، شربت ما فيها، وهوت بها بكلّ ما أوتيت من قوّة على الأرض، وضاعفت ليلتها جرعتها من الدواء، ونامت.

أقسمت في اليوم التالي أنها لن تقلق بعد اليوم، ولن تعير الموضوع أدنى اهتمام. صارت تنام جلّ الوقت بعد العمل. تملكّها عِناد ورفض. لم تشأ أن ينقل لها شقيقها المزيد من الأخبار عنها. احتدمت، وعلا صوتها حتى في ردّها على مكالماته.

والمكالمة الأولى التي تلقّتها منها، جاءت بعد مضي أشهر على مغادرتهما بغداد إلى كردستان. ألجمها ذلك الخبر، لم تستطع مواصلة الحديث معها، اختنقت، وأغلقت الهاتف. لماذا كردستان؟ ولماذا هذا الاسم البديل، مريم؟ لماذا، يا وفاء؟ لا تدري إن اتخذت وفاء من ذلك ذريعة للإمعان في الابتعاد عن المكان الذي كرهته، أم في إيلامها، لا تدري إن تعمّدت ترك دراستها، وهو أشدّ ما يؤذي أمّها، لماذا، يا وفاء؟ هل تعذّر الاتّصال بي قبل ذلك؟ لماذا كردستان، يا وفاء، ولماذا بدا لها أنها مضطرّة إلى تبنّي اسم حركي في مكان آخر؟ تعلم أنها لا تحبّ السياسة، هل أعرضت تماماً عنها، وأنكرت صلة رحمها؟ لِمَ مريم، يا وفاء؟ كادت تصرخ. انفعالها نسف فترة انتظارها. قطعت المكالمة، وفوّتت عليها فرصة إقناعها بالعودة.

تنظر إلى الهاتف بعد عودتها من عملها (لن ترفع السمّاعة، وإن رنّ الجرس). شعور شديد بالندم في البيت، يجعلها تبدو باردة ذابلة أمام المرآة. تدريب قاسٍ على التواطن مع فراغات هنا وهناك، في أرجاء الشقّة، في زوايا كثيرة من روحها، والجزء الأكبر من عقلها. تسير، وكأنها لا تنوي تحريك عضو فيها لتشعر بالموت تماماً. لتتأكّد من موت كل شيء فيها. موت على الجبهات، ميتات طبيعية للأمّ والأب والخال والعمّة، موت على شاشة التلفزيون، موت الحياة في النهر لصق البيت، موت كلاب جرّاء قصف المدفعية والقذائف المتساقطة بالقرب من الجامع، نوم أموات بفعل المسكّنات. فرغت الشوارع، ومات الزقاق الذي خلا من رائحة الاسبرتو والغراء والنشارة الطازجة التي تتجمّع عند مدخل بابها. فزّت ذات ليلة بعد منتصف الليل إثر حركة مريبة، ظنّتها داخل الشقّة. تبيّن لها بعدها أنه محلّ النجارة من تحتها، داهموا أصحابه، وألبسوهم بدلات الجيش الشعبي منتصف الليل. سلّموهم بنادق، ثمّ ساقوهم في حافلات مع العتاد مباشرة إلى الجبهات.

تآلفت مع حكايتها الجديدة التي تستطيل، وتعرض مثل جسدها، وفق ساعات النوم وساعات اليقظة. الوقت يمرّ يابساً. بلغها أن وفاء غادرت العراق مع زوجها. تأبى بعناد أن تسأل. من هي التي تركتها، جماهير؟ أم وفاء؟ أم مريم؟ تمتنع عن السماع. ينطبق الكتاب، وينام جانباً، أو يسقط على وجهها ليوقظها. (بالأحرى من هي التي تربّت في حضنها، إذاً؟). من جديد، تحسب نفسها أمام محاكمة، بينما ليس بمقدورها إدراك حجم الإثم الذي ارتكبته. إنها ذاتها "الأغنية اليائسة" المترجمة التي اعترضتها يوماً، ذاتها التي تغرق في بحر، لا قرار له، وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. إنها هي التي تنتظر ساعة الرحيل قافزة من ألم إلى ألم، من دون بوصلة إبحار. إنها هي التي صارت أبعد من كل شيء، طوقها الألم، وهوى بها الحزن، كما كتب نيرودا. تقرض فصول الحكاية، وتعود لتبدأ من جديد. الحوارات حزام البحر، شريط ساحلي طويل أمامها في اللوحة الباهتة.

حين دقّ هاتفها في ساعة متأخرة ذات ليلة، هبت من الفراش لتلحق قبل أن ينقطع الرنين. جاءها صوت وفاء مثلما حدث. يقترب، ويبتعد. وقفت سلوى باستقامة ليسهل تنفّسها خلال المكالمة. حاولت أن تتماسك بينما ترتجف، حاولت أن تبقي حالة السّلم وقتاً أطول بينهما. ضاع السيناريو الذي كتبته في رأسها، واحتارت كيف ترتّب أسئلتها، وكيف تطرحها. استسلمت من ثمّ لخيار الاستماع، من دون مقاطعة، والإجابة عن الأسئلة. تسمع أنفاسها، والصمت من خلفها، وهي تتحدث، وتسأل. من دون سؤال، أو تمهيد، عبّرت لها وفاء عبر جملة أو جملتين عن احتقارها لمَن ارتبطت به حال مغادرتهما العراق. أخبرتها بانفصالها عنه، والتحاقها بدراسة جامعية في مدينة أخرى. بدت عبر صوتها مرتاحة لأوّل مرّة، ولم تعرف الأمّ ما إذا توهّمت ذلك، أم أن صوتها حمل ضعفاً واستسلاماً لشوقٍ بين ثناياه.

تجيب عن أسئلة البنت منصاعة، تماماً كما تحبّ البنت أن تسمع أجل، هي لا تزال على حالها، تتناول لا تزال حبوبها، أجل، تعينها لتصير أكثر بلادة، نعم، في شقتهما العالية القديمة المتهالكة، جنينتها المعلّقة الخربة طوال القصف الإيراني المجنون في السنتين الأخيرتين. لا، لم تغيّر تختها "الثّبني" في الصالة. وراحت وفاء تصف لها بطلاقة الطبيعة الساحرة الاستثنائية للمدينة رغم تشابه المُدُن للدول الاشتراكية في غالبها، اللغة ومدينة الجامعة، القسم الداخلي الذي التحقت به، وسكن الطلاب والطالبات المختلط و(المزيد من الصبر، يا سلوى، لا تفتحي فمك،

إيّاكِ).وفجأة قاطعتها من دون قدرة على المقاومة. خفضت صوتها، وجلست على التخت إلى جانب الهاتف، تمسك السمّاعة بكلتا كفّيها، لملمت صوتها كله، وأفرغته بتوسّل في فم السمّاعة. وفاء، عودي. الوحدة صعبة في بلاد غريبة. انحشري معنا، حبيبتي، وماذا عن عوزكِ للمال؟ كيف ستكملين دراستك؟ أيّة منحة. من أين؟ هناك دوماً مَن سيحاول خداعكِ. أنذال، كما قلتِ. ولأن الحرب انتهت مع إيران، والحياة ستعود طبيعية، كما كانت في البصرة. العراق ما يزال بخير، يا بنتي...

واختنقت، ولم تقل لها إنها ترى حياتها في هذه اللحظة مستحيلة، من دون أنفاسها في البيت. عودي، كلمة لم تقلها من قبل، البخار ضبّب السماعة ويدها. تركت لوفاء أن تُنهي المكالمة بعد أن وعدتها بالاتصال. خشيت أن تنهار بالبكاء، إن استوقفتها. كبتت صوتها، وهي ترد السلام. بحذر، أعادت السمّاعة التي تبلّلت بعَرَق يديها إلى مكانها.

دخلت الحمّام، أقفلت الباب، وبكت بانفعال هذه المرّة، بهياج وألم. غسلت وجهها بالماء مرّتين ثلاث. جفّفته ببطء وسرحان أمام المرآة. (أين برودكِ؟! أ لم تكوني ميتة؟!). أطفأت الضوء، وعاد نصفها إلى الفراش.

عندما اصطدمت سلوى ببسيم في هذا المكان كادت تتابع لأوّل وهلة سيرها من دون أن تظهر سابق معرفة به. ارتبكت. حدث ذلك، وهي في طريقها لزيارة الطبيب في العشار. برفقة زوجة شقيقها التي انعطفت بها عنوة إلى السوق. تغيرت خارطة السوق تماماً، فاضطرت إلى ملازمة ذراع مرافقتها. اجتاحتها مشاعر غريبة، لطالما أجبرتها وفاء على التوقّف طويلاً عند كل محلّ، ثياب ومكياج وصاغة، مروراً بسوق القشلة وسوق العطارين، والعودة مجدداً إلى محل "زيارة" للفوز ربما بحذاء بسعر مخفّض. ولم يمضِ الوقت حتى ضاقت بالسوق، وأسرعت بخطواتها، تلحقها زوجة شقيقها. نبضها تسارع، وأحوالها انقلبت. رأت زوجة شقيقها الاصفرار يعلو سحنتها. خافت، وسلوى نفث حدوث شيء أيضاً، وهي تشيح بوجهها بعيداً عنها. لا، لا شيء، طمأنتها. ألمّ في الروح، حارت كيف تداريه، مثل شجّ في الصدر. احتاجت جدران بيتها لتلوذ بها، هاجمها اشتياق جارف إلى ابنتها، لم تفهم توقيته.

ربما الدكاكين المقفلة بعثت على الوحشة. توسّلت زوجة شقيقها من أجل أن ترافقها إلى البيت لتتناول الغداء معهم، فالبيت قريب. شقيقها لم يغادر بيت الأهل القديم الذي فرغ لعائلته بعد وفاة الوالدين. البيت الذي لم تزره إلا اضطراراً، وتركت لأخيها أمر الاستقرار فيه، من دون مشكلة. ظلّت زوجة شقيقها تلحّ، وهناك موضوع القطن الموروث من أجدادها الذي تصرّ على حضورها بيت الأهل من أجل تقاسمه. تمّ جمع حصيلة الحشيات والألحفة والوسائد، والكفية ما شاء الله، فتنفجر بوجهها. ما الذي سأفعله بقطن، مرّت عليه عشرات السنين، وبال عليه عشرات الأطفال عبر أجيال؟! زوجة أخيها أمينة بطبعها. قيمته تساوي ذهباً، يا سلوى، بمجرّد أن يمرّ تحت يدي نداف مخلص أمين وماهر، صدّقيني. عوفيني، حبيبتي، اعتقيني، يا عزيزتي، وخذيه كله. لا ينقصني إلا القطن.

ضحكت لتداري انفعالها والضيق الذي ألمّ بها، وأيضاً لتعيد الطمأنينة إلى قلبها. لا تدري لِمَ فكّرت بوفاء، وحاصرتها فكرة، ضايقتها. ربما لأن سيارة إسعاف مرّت خطفاً، فتتابعت الصور ببالها، الصور الأكثر تطرّفاً في

تخيّل البؤس الذي تعيشه، وربّما الخطر الذي يحيق بها. لم تشأ أن تُرافقها زوجة أخيها إلى الصيدلية. لا، لا، شكراً، سلامي لأخي، طمأنتها، وقبلتها، وافترقت عنها في الطريق على عجل، لرغبتها بالعودة سريعاً إلى البيت. وحال افتراقهما، صادفته.

تدير ساعتها الناعمة في معصمها لنعرف الوقت. عشرون عاماً مضت. المصادفات أجمل غالباً. بسيم يقف مقابلها فجأة، ومن الصعب تحاشي السلام، كما فكّرت لأوّل وهلة. ارتدى الدشداشة البيضاء الصيفية الفكوية من الحرير، والفترة الناصعة الناعمة المنسدلة، والحذاء الجلدي اللماع. لم تتأكّد بادئ الأمر. حليق الذقن، استدار وجهه، وامتلأ وصفا، على نحوٍ غير كثيراً من ملامحه. توضّح عطره، وهي تقترب، وبدا في زيّه الجديد هذا ميسور الحال. يمسك بمسبحة قصيرة، دوّرها مرّتين بين يديه. النعمة واضحة عليه حتى إنها ظنّته مقيماً في الخليج، جاء في زيارة إلى البصرة.

هو بدوره لم يميّز وجهها في الحال. انتظر منها الإشارة، لتأكيد ذلك. أشارت إلى الصيدلية التي عليها المرور بها، عرض عليها توصيلها في طريقه، سينتظر، قالها بحسم، سبقها من دون أن يسمع جواباً منها، أشار فقط، سيارته على مقربة.

وصلا الشقّة وقت انصراف مُصلّين معدودين من الجامع، الغروب، الأنفاس التي امتزجت داخل السيارة، تدعوه للصعود إلى الشقّة، بصوت حيادي لتناول فنجان شاي، فيُطفئ محرّك السيارة بعد تسديد نظرة مباشرة إلى عينيها، على سبيل التأكد.

اقتصدت في حركتها داخل البيت. حاولت أن توقد ما لديها من مصابيح في البيت، جميعها. إشارات بلا معنى، وكلمات فائضة. لِمَ التوتّر، وهي تضع الماء على النار؟! (امرأة تخطّت منتصف الأربعين)،ولتخفّف من ارتباكها، أتت على إفراغ كيس الدواء أمامه على الطاولة منتصف الصالون، رغبة في إعلان التعب ربّما. لم تعلم ما الذي دفعها بإصرار إلى فعل ذلك. ما الذي ودّت أن تُطلعه عليه، بؤسها؟ أم بدانتها؟ تذكّرت بقايا الكحل على جفنيها، خشيت أن تمسح عينيها عندما شعرت بحرقة فيهما. تنبهت إلى رائحة ثيابها من هواء المشوار. أفلتت شعرها المعقوص من قبضته لتخفّف من الشدّ في مؤخرة رأسها.

قرارات استسلام مباغتة، أوحت له بالارتخاء قليلاً. وضع المسبحة جانباً، وطلب قدحاً من الماء. اتّكأ إلى الخلف، وأخذ وضعاً مريحاً في

جلسته. تحدثا عن الحرب، ومن خلفهما الساعة على الجدار، وتكات عقربيها في أذنيها. كيف اقتلعت من نفسها رضا بكل ما مرّت به. لم يتذكر التواريخ جيداً مثلها. الفترة منذ منتصف الثمانينيات إلى نهاياتها تقريباً. نعم. لم ينظر إلى وجهها، بشكل مباشر، ولكن حديثه متسلسل هادئ. ورغم جلسته متكئاً إلى ظهر التخت المسحوق في الصالون كانت مرتبكة، تهيأ لها أنه على عجلة من أمره بعض الشيء، وسرعان ما سيستأذن لينصرف. تشعر بكل نَفَس تستنشقه، لم يكن ضيقاً، ولكن كأن أعضاء تشتغل مجموعةً، من أجل فعل واحد فقط. هو سحب كمية قليلة من الهواء. ولم يمرّ بالفعل الكثير، أو هكذا خالته حتى نهض ليستأذن، وهو ينظر إلى ساعته.

استعادت شعورها بالوقت الذي يوشك أن يفلت. استعادت بالأحرى زمن الكلام الذي له فعله، وإن مجرّد كلام. أجلت الحديث عن وفاء، رغم أن اسمها ينزلق بين موضوع وآخر. تشعر أنها وفي رأسها تطاردها، تعارك من أجل أن تُعيدها إلى قفصها ثانية. حديثه مقتضب، مروز سريع، بشأن زوجته المريضة، عن مشاريعه التجارية والسفر، عن عطل كبده، وعن خطط للعمل في الخارج، ضمنها قائمة ممن طالهم الظلم مستبشراً خيراً بالقادم، لو انتهت الحرب. دعاباته المبطنة لها تلك منذ لقائهما الأول القديم، لا تعرف ما يقف خلفها هل هو الإيمان بالحياة وتفاؤله، أن يستبشر الإنسان دوماً بالخير في الحياة، أم خلاف ما يقول؟ صوت ساخر خفي، نوعٌ من همزٍ، لا ترتاح له نفسها، ولا تستطيع فَهمه. لم تُخفِ عليه تقطيبةً، علت ملامحها، وهو يغادر. جسدها يتصبب عرَقاً، والمروحة في السقف تنفخ هواءً حاراً. نصحها، وهو يقف على مسافة محسوسة منها، بتحريك عضلات وجهها قدر الإمكان، وفي كل اتجاه. إن فعلت ذلك يومياً، ولأكثر من مزة سوف يحتفظ الوجه بنضارته. وضحكت عالياً مثل طفلة.

سرحت بعد مغادرته في مكانها طويلاً، تنظر إلى فنجاني الشاي الفارغين، والمنفضة والمخدة التي وضعتها خلف ظهره معرفة منها بصلابة ظهر التخت. تنبهت إلى يديها، وانحراف أصابعها، واصفرار أظفارها. هو من قال لها في ذلك اللقاء القديم إما أن تقلّمي أظفارك، أو أن تطليها بصبغ الأظفار. فاجأتها التفاتته، لم تنسها، حرصت على تقليم أظفارها، إن لم يكن لديها المزاج لطلائها. كرّرتها على وفاء، وعلى كل صديقاتها. تخدّرت برائحة الخطار التي تخلّفت في فضاء الغرفة. افتقدتها. صعدت مثل غيمة كثيفة فوق رأسها، وأبت أن تغادرها. اقتربت يومها من قناعة أن الذنب

الذي بدا واضحاً ليس ذنبها. (ذنبها في ماذا؟ وما الذي تفكّر به الآن؟).

جالسة في مكانها، قريبة من رائحة عطر رجل، تعود إليه، ممزوجة بدخان وأنفاس. الجوّ حارّ. نضّت ثوبها عنها في مكانها في الصالة، تحرّرت من حمالة الثدي، وباعدت بين فخذيها الملتصقتين المتعرّقتين، واتّكأت إلى الخلف. لم تفكّر يوماً بقبول، أو عدم قبول جسمها. تغيّرت تفاصيله بعد الولادة، واستقرّ على حاله تقريباً، لولا الدواء الذي تظنّه مصدر زيادة الوزن المتسارعة مؤخّراً. ما فكّرت به بشأن هذا الجسد هو العقاب الذي ظلّت تُنزله عليه لتشعر بالراحة. إهماله، وكلّما قمعت رغبة، زاد استقرارها. وبقدر إنكاره، تحقّق المطلوب، حتى مات تماماً. كان جسدها نِدّها الذي بغضته، وتجنّبت أن تمنحه من وقتها، وإن كان مروراً على المرآة، نظراتها حينها تُسرع في اختراقها اللحم لتصل مشارف الروح. هناك يكمن سرّ إشراقها.

ولكنّ إن انتظرت أن يثصل هو بها مثل المرّة الفائتة، ستخسره. تودّ أن تردم الحفر التي تكثر في طريقها عبر أنحاء هذه الشقّة الصغيرة، بينما الجبس يتهاوى رقائق من السقف مثل زغب. نهضت من مكانها، وتنقّلت بثوبها الداخلي القصير بين المطبخ والصالة. جهدت لتعيد هيئة البيت إلى ما كانت عليه. نقلت الأكواب لتجليها. أفرغت منفضة السجائر، غسلتها، وقلبتها جانباً. تجاوزت موعد نومها. تناولت حبّة الدواء من دون ماء. إن تردّدت، ستخسر رغبتها المنبثقة من مكان مجهول، في أن تندفع لفعل شيء، تراه الآن يشبه فعلاً انتقامياً، لا تدري إن كان لنفسها، أم من ابنتها، أم منه. ربّما لتُعاقب ذاتها، أو ربّما لتُثبت لنفسها شيئاً آخر. وهل هناك في كل ما هو في محيطها ومن حولها ما يثير فيها الأسئلة لتأمل في جواب الآن؟! خلّفت اللعينة وفاء شعوراً بالغباء لديها، بالمراوحة والتحجّر. وفاء لا تظنّ كذلك أن أمّها تمتلك عضلة، اسمها القلب، مصدر شقائها. في الصيف، ضيّعت اللبن، (ولكنّ أيّ حليب مهدور لتبكي عليه؟). كيف مرّت كل هذه الأعوام من دون أن تلتفت إلى حالها؟ لماذا تحاصرها الفكرة الآن؟ ما الذي تودّ معرفته عنه؟ هو متزوّج، ولديه ولد. انتمى بمظهره إلى عالم غير الذي عرفته عبره قبل عشرين عاماً. ستؤجّل كل شيء إلى الغد. تتفقد بنظرة سريعة ما حولها، تطفئ الضوء في المطبخ، وتُغادره لتتوجّه إلى الفراش. تختار دوماً أن تؤجّل التفكير إلى الغد، ما يوصل وفاء إلى الغليان، إن كان الأمر مُلحّاً بالنسبة إليها. لكنها رفعت السمّاعة في الوقت المتأخّر هذا، الحرارة التي دبّت في جسدها غريبة بعيدة، تدفّقت مثل تيّار قوي، وفي طريقها إلى الروح، عرجت على شفتيها إلى ثدييها، وأسفلاً إلى ركبتيها،

وحتى شملت جسدها بأكمله. بهدوء، طلبث أن يأتي في زيارته القادمة ببيجاما، تحفظها له في خزانة ملابسها.

عندما أقفل بسيم السمّاعة ليلتها، طلع إلى الحديقة، وأشعل سيجارة، وراح يفتل حاجبه بحركته اللا إرادية تلك. فَكر أنها ذاتها امرأة خجول، لن تحاول استمالته بألاعيب. مشدودة لزمن عذّبها، ولن تستطيع أن تطوّع نفسها لتدخل اللعبة. نصحها بالانتقال مؤقّتاً من هذه الشقّة، بسبب المدفعية الإيرانية، لكنها رفضث، فبيت الأهل ليس أكثر أماناً من بيتها. قال إن أيّامه مزحومة، وهو في متابعة دؤوبة لتفاصيل شتى طوال يومه، يواصل اتصالاته بمجموعة شركاء في الأردن والكويت، بشأن استيراد قطع غيار، فلم يصدر منها تعليق.

سمع صوته غريباً ثانية، الرجل الذي لا يقبل النقاش في أموره العائلية والشخصية، ولا يسمح لغيره أن يثخذ قراراً له. ولكنه لا يرغب في أن يكون ذلك الرجل، الإنسان ماضٍ في تحوّله لتظهر حقيقته شيئاً فشيئاً، وكل الجميل الذي كان يراه في نفسه لم يكن غير وَهم.(أ هو هذا ما أخافه؟!).

كان حقّاً قلقاً، بسبب زوجته، خوفها على هاني أمرضها، بسببه، لم يستطع التعامل معها، أو معه. تلقّفت الطفل من دون حبل سرّيّ، ولكنه مثل الفسيل الذي فُصِلَ عن جذعها، ربّما يعيش، أو يموت. اعتلّث روحها لبترِ وَهمي، وهو قريب منها، وهو يتماثل للشفاء، وهو يكبر، ويساررها.

وقف بسيم مستنداً إلى عمود في ممرّ الحديقة على مبعدة ساعات من فراق هاني. تستغرقه أفكاره. تمتدّ يده إلى جيب دشداشته. يُشعل له سيجارة. يلتفت برأسه صوب زهور الزوجة، قريباً من الحديقة التي جعل هاني منها قبراً، حوّطه بصخور وورود، وحارب العصافير إن اقتربت منه. قبرٌ حرص هاني على زيارته، وسَقْي زهوره بانتظام، وكأنه يعمد إلى تذكيره بإساءته لها. تركه بسيم وشأنه رغم انزعاجه من طفولية تصرّفاته، والمسافة إلى الزبير كانت عائقاً، حال دون زيارة قبرها هناك.

تقدّم وخطا تجاهها. كما لو أنها أنهت حياتها بقرار، من دون توضيح أو مهلة لكي يستعدّ. لربّما انسحبت خوفاً من المواجهة. هل تولّد شك لديها بشأن زوجة الحارس منذ المرّة الأولى، وهي تدخل عليهم من دون استئذان لتطلب علبة ثقاب؟ أو في المرّة الثانية، وقد انتفخت بطنها حين طلبت علاجاً لحرقة معدتها، بسبب وحامها؟

لا يظنّ أنها فكّرت بشيء، فهينة تلك المرأة لم تكن تبعث على القلق إطلاقاً. كل الضيق الذي بدا على زوجته بادئ الأمر، لم يكن له غير تفسير واحد، هو حمل المرأة الذي بدا ظاهراً للعيان بعد فترة.لم تحتمل – ولا شك رؤية بطن المرأة التي كانت تكبر في كل زيارة، ولاحقاً، لم تطق سماع صوت بكاء الرضيع، فانقطع التزاور. ولم تتقبل صورة هاني، وهي تراه من بعيد يحمل المولود، ولا رؤية المرضعة التي مارست طقوس أمومتها في العراء، بينما ازدادت شكواها من غيابه الدائم خارج البيت. ازداد ضيقها بالجيرة وببيت الحارس، وتذرّعت بسخرة هاني من قبلهما، واستغلالهما المتزايد والواضح له.

طفولية هاني غطاء، هكذا يفكّر بسيم حين يلازمه الشك، وينفد صبره تجاهه. تركه يفعل ما يشاء، من دون محاسبة، ولكنْ ليس عن رضا، وليس إهمالاً، كما ظنّت هي، وليس لانغماسه في العمل والتجارة دخل في هذا. وهي قد أدركت ذلك. أدركت زوجته أنه لا يثق بقدرات هاني، طالما وضعهُ في مقارنةٍ مع نفسه عندما كان في عمره. ولكنها أساءت إلى قدرتها في

الفهم حين تصوّرت أن ما يكنّه لهاني من مشاعر لا يقف خلفها إلا الواجب. إنه شديد الخوف عليه، مثل وديعة. ولكنه هاني الذي أخذ يتجنّبه مذ نبتت لحيته، حتى ظنّ بسيم في البدء أن الحارس حاز على اهتمام أكثر بكثير مما أولاه هاني إليه، عبر سلوكه ومزاجه. رصده بصمت طويلاً، من بعيد عبر أسلاك سياج الحديقة. كان يرافق الحارس في مشاويره، بانطلاق وانشراح، يلعب بالقرب منهما، يتقافز بين الأنهر الجافّة في البساتين، بمرافقة أحدهما، ويرمّم قناطر الجذوع الصغيرة بإشرافهما.

صار بسيم على يقين لاحقاً من إدراك زوجته لشيء غامض، يدور ليلاً، تتجنّب الحديث عنه. عجزت عن مساعدته، ولربّما أرعبها اكتشافها للأمر، فخافت منه،وأصابها ما أصابه من خَرَس. كتجاهلها لعلاقته بسلوى، لما تجاوزت نفسها بصمتها، ولم تفصح له بكلمة. شغلته جولات هاني الليلية، لكنه لم يكن على يقين تماماً، أو صعب عليه استيعاب الموقف بأكمله، كما فعلت. صَمَتَ، وشعر أنه بدا كما لو أنه يضمر شراً، ويدفع الولد إلى إيذاء نفسه. كان يجد البندقية في غير مكانها مثلاً، القفل ليس في الباب، أو باب الملجأ في البستان، وقد تُرك مفتوحاً. لم يحاول أن يعمل جاهداً، من أجل إيقاف شيء، أو الحصول على تفسير، أو التحزي بدقّة. شعر بخوف، وبين ذلك وبين جزعه شعرة رفيعة. تخيّل سيناريو أكثر خطورة، لو حاول. وازداد صمتهما بتعاظم الشك إزاء انخطاف روح الولد، وتلك الانشغالات النهارية.

لم يجمع بسيم ما ألمّ بهاني ليفهم منه شيئاً. حزن تكثّف مع اختفاء بيت الحارس، وتنامى بعد رحيلها، ثمّ تحوّل إلى صمت منقطع بينهما بعد محاولته الانتحارية العابرة، بانضمامه إلى المنتفضين. اقتضى إدراكه هذا وقتاً، أمضى فيها هاني أيّامه حبيس أطلال، لا تبعث فيه إلا الكمَد والهيمان على وجهه.

تمرّ أيّام من دون أن يتبادلا كلمة معاً. لا حديث بينهما، غير أخبار قصيرة، لها تتمّة في نظرات العيون، ولغة جسديهما، لم يُسعفه تفكيره بغير الانتظار والتلصّص. والتفكير أخيراً في إيجاد طريق خلاص، يحفظ لهما السلامة معاً.

شعرَ برأسه بعد الإغفاءة على العشب ثقيلاً، وفكّر بكوب شاي جديد. لم يُقدّر زمن نومته، ولكنه أحسّ بها طويلة. حكّ ساقه، أنزل جوربه قريباً من الكاحل، يهرش مكان الطلقة المستقرّة تحت جلده. كان ينتظر مكالمة مهمّة من أبي حارث، ولكنهما تشاجرا بالأمس، ولا يدري ما وضعه الآن بعد أن تركه في حال سيئ جداً. ظنّ بسيم أنه وبمرور الأيام قد عرفه عن قرب. اعتاد طريقته الاستفزازية في الحديث، وأهواءه المتقلّبة. ولكنه بدا ليلة الأمس غريباً عنه، وبعيداً تمام البعد. مفاجآته مبعث قلق له، وهو لا يميل إلى الشعور بأنه مرغم على قبول حال أو شيء من دون اتفاق وقناعة. صار أبو حارث يحبّ العائلة الملكية فجأة، وراح يصرف الوقت والمال ليجمع سراً وبإصرار غريب كل ما يخصّها من أدبيات وصور. ترافق ذلك مع فترة انفتاح شهية العراقيين على التحليل والمناقشة تقليداً للانفجار الذي حصل إثر بثّ القنوات الفضائية لبرامجها السياسية. رغم أن عقوبة تداول النقاش والفرجة عبر الصحون اللاقطة كان يمكن أن تصل الإعدام. كانا في المكتب معاً البارحة، وبدا كمَن سيغادر بعد قليل، ولكنه عاد، وجلس، وتناول كيساً، أخرج منه ضبّة أوراق، أخذ بتصفحها. أخبره أنه اقتناها خفية قبل يومين. وفي محاولة لإشراك بسيم اهتمامه، تحدّث عن القسوة التي يمكن أن يكون عليها الإنسان. أ لم يكن من اللائق أن نجعل مَلكنا يغادر مع عائلته على متن باخرة، أو طائرة مشكورا لما قدّمه؟! تخيّل لو أن العراق اختتم تلك الحقبة بذلك؟! كنا سنحبّ أنفسنا، والله، كنا سلكنا طريقا آخر، بالتأكيد. ما الذي فعله التقدّميون؟ هل تتخيّل ملفّ الزعيم عبد الكريم، لو تُرك ليعيش إلى اليوم؟! لو قُدّم إلى محاكمة؟! هل كنا نسلم من السّخل والضّفع والمطاردة وكل ما آل إليه وضعنا؟! المأزق أن العنف ابن ساعته، كما قيل، وقد يكون مدبّراً ومخططاً له، ونحن ضحية هذا وذاك. وأنت ساكت؟!

- ها أنت تجيب بنفسك.

كان يضرب بيده على الأوراق ليبقيه معه. ولكنك قلتَ بنفسك إن تداول صحيفة الشيوعيين صار سزيّاً بعد الـ ٥٨؟ كيف تفسّر غباء اليسار

إذاً؟ ضاق بسيم به، تابع من أجل الوصول إلى غاية معه. أرخى عينيه، وهو يفتل طرف حاجبه مستغرقاً في التفكير. يواصل أبو حارث حديثه، وكأنه كان موكلاً هذا اليوم بمهمة سد الفراغات التي يتخلّلها الصمت بينهما. تفارقه روح التهكّم في لحظة. الناس تفرّط حقاً بجمال هذا البلد. انظر إلى وجوهنا الآن أنا وأنت، أين الماضي منا؟! أين صور الأبيض والأسود؟! كنا والله أكثر مَدنية، يا أخي. لا أقول لم ينقصنا شيء، لكننا كنا على الأقلّ على الطريق، أ ليس كذلك؟!

- ها أنت تحاول أن تجد لنا مخرجاً جديداً اليوم للهزائم التي تتراكم على رؤوسنا.

يقرب أبو حارث السيجارة من فمه، فيغرّ للندبة التي خلّفها المقاول حين أطفأ سيجارته على ظاهر كفّه. ينتبه إلى بسيم. يعرف بسيم مصدر الندبة على كفّ أبي حارث. ربّما استوقفته، ولعلّه كان يحاول جرّه للتذكير بثمن نزوته. يتحسسها. ما تزال الدائرة الحمراء مشتعلة، تُخفِض من صوته، وتُشعره بقلّة حيلته. جيّشت العائلة أكبر وساطاتها لتخليصه من الموت. (ظلّ جزء كبير فيه ساخطاً على نفسه لخرَقه، وهو يعلن عنه بصوت عالٍ). أعرف. أعرف. سأظل مشروع تربية وتلقين دروس، بالنسبة للعائلة. لماذا تجدني هارباً طوال الوقت؟

كان بسيم منهمكاً في مراجعة بعض الأرقام في الفواتير أمامه مستغربا نبرته التي تنمّ عن شيء أبعد من الضيق. أعترفُ أن أدمغتنا محشوة بالخراء. نحن قذرون. نَدَمي أني لم أدرك اللعبة، ووقعتُ في تلك المصيدة التافهة. كان يشير إلى عضوه، ويهزّ يده. كنتُ مندفعاً مثل مراهق غرّ، انضحك علي للأخير.

يبتسم بسيم، ويخنق ضحكة، تقول بوضوح جيد إنك أدركتَ ذلك. ظننتُ يومها أني المنقذ لتلك المرأة العزلاء الوحيدة. لم أدفع لها شيئاً، وهي لم تطلب غير الجنس، كانت الأكرم. أقسم لم أكن أعرف بعلاقتها به. كان طعماً لي ليبتزني، ليس إلا. لم يستوعب خسارته للمناقصة، وفوزي بها. ضرب على فخذه بقوة لاستعادته للحادثة التي دمغت حياته. وكلّما زادت خطورة اللقاء، زادها ذلك وحشية ورغبة، تصوّر. كم كنتُ غبياً؟

- لو تترك النسوان الآن، وتركّز معي لننتهي من هذه الحسابات، وننصرف.

- لا، لا، أرجوك، انتظر، لن تصدّق ما حدث. اسمع، ولن أتحدث عن شيء بعدها. أعدك (لا شيء لِيُقسم به).

قاطعه بسيم، ونهض. عليه النوم مبكّراً استعداداً لترتيبات وداع هاني. يذكّره بموعد مغادرة هاني، ولديه الكثير الذي يجب الانتهاء منه. لكن أبا حارث جذبه بقوة وارتباك، وأجلسه بإصرار في مكانه. نمتُ مع امرأة قبل أيام... ولن تصدّق ما حصل. أنا لا أستطيع النوم. لستُ قادرا على نسيانها. بسيم غير مصدّق إصرار أبي حارث على حماقاته هذه وهذياناته التي لا تهمّ الآخرين. كتم انفعالاً، وحاول النهوض ثانية، لكن أبا حارث أجلسه من جديد بالطريقة ذاتها، وتابع. أحسستُ أن هناك شيئاً ما خطأ، والثماني دقائق صارت دهراً، بالنسبة لي، لم أستطع أن أكمل، دفعتُها عني، وابتعدتُ. كدتُ أخنقها غضباً، أو أحرق نفسي. استحممتُ ألف مرّة إثرها. حاولتُ أن أبعد المشهد والرائحة، ارتباكها واعتذارها، الكلمات القليلة التي تفضّلت، وألقتها بوجهي. لم أستطع نسيانها. كدتُ أبكي. بكيتُ، والله العظيم، بكيتُ وحدي، نفوراً من نفسي، منها. هل تدري؟ نحن مقزّزون، والله. بدا بسيم حائراً فيما يفعله مع هذا الأعزب مدلّل العائلة، وهاجسه الدائم في إثارة الاهتمام. ولكنه بدا وكأنه مصاب بوسواس قهري، يصوّر له أفعالاً وأفكاراً، ولا تخلو من رعونة. أقلقه احتقان وجهه، ورجفة يده. خنقه الدخان الكثيف المحبوس من حولهما في المكتب. رفع رأسه، بين فضوله وامتعاضه، رغب في أن يفهم سبب كل هذه الاعترافات الحارة اليوم، لعلّهما ينتهيان وإلى الأبد. تلك المرأة التي باعث جسدها لي، لم يمض غير ثلاثة أيام على ولادتها لطفل. ظهرتْ من تحت العباءة شابّة ناعمة جداً، وصغيرة. هل تصدّق ذلك؟ لم تقل لي. كانت نفساء، مريضة، وحرارتها مرتفعة. لم تكن طبيعية، ولم أدرك ذلك في البدء، لم أنتبه. كادت تموت بين يدي. أعدتُها إلى مكانها قريباً من الساحة، ولا أدري ما مصيرها الآن. لماذا لم تقل لي شيئاً؟! كنتُ أعطيتُها مبلغاً مضاعفاً. تلك الرائحة الكريهة التي انبعثتْ من جسدها، والعَرَق الذي تصبّب من وجهها. رائحة نزفها، ما أزال أشتمّها داخل سيارتي. كانت مريضة، تقيأتْ سائلاً أصفر على جلد المقعد الخلفي، ما إن انتهيتُ، شيء مقزّز. لا يمكن نسيانه. وجهها المرهق وعيناها الزائغتان، تلك الغبية، كانت تبحلق فيّ من دون قدرة على المطالبة بالمبلغ، مدّت يداً راجفة نحوي، قل لي بربّك ما الذي جعلها تخرج من البيت، وهي بهذا الحال؟ ومن أين لي أن أعرف؟ أين تركتْ وليدها، هل تظنّها ماتتْ؟ران الصمت للحظة، وحالة هستيرية قد تمكّنت من أبي حارث تماماً. لا أظن أن بإمكانه القيام بوظيفته بعد الآن، لا أظنّ...وكأنه توقّف،

وشرع بفك إبزيم حزام البنطلون ليريه شيئاً، قاطعه بسيم، وجاءت نبرة صوته حادة

- كفى، ما هذا العبث؟ أنت الذي تحدّث عن مجتمع عادل قبل قليل؟! أ أنت مَن يدافع عن الحقوق، وينتقد الوضع والظلم الذي أوصلنا إلى هذه الحال؟! ولِمَ لمْ تنقلها إلى المستشفى، أو إلى طبيب؟!

نهض من مكانه على الفور، التقط حقيبته ومفتاح السيارة بعصبية. تركه جالساً على الأريكة الجلدية ينود، وهو يحضن رأسه بيديه، ووجهه في الأرض. صفق باب المكتب بكل قوّته، وغادر.

تناهى إلى سمع بسيم صوت جرس الهاتف ينبعث من داخل البيت. هبّ من مكانه في الحديقة، ودخل البيت مسرعاً ما إن سمع الرنين. أخيراً رنّ الهاتف الذي خاله قد مات. مزّت الساعات التي قضاها بين مشواره وبين التجوّل والاستلقاء في الحديقة ببطء شديد. أنهى المكالمة المنتظرة والمقتضبة، وأعاد جهاز الهاتف مكانه. عاد ليتحرّك في المطبخ بتيه. خرج بعدها مع كوب الشاي والسيجارة. وقف عند الباب الداخلي سارحاً في انقضاض فوج من النمل على بقايا تمرة، ورفعها بلمح البصر. نملٌ من الحجم الكبير التمّ مثل كرة سوداء حول قطعة التمر، وتدحرج على مهل. ظلّ ينفث دخان سيجارته، وهو ينظر إلى ما تجمّع من التراب والورق اليابس والحشرات الميتة في الزوايا على الأرضية المرمرية عند العتبة. ذلك الجزء شأن من شؤون هاني أيضاً، يمضي فيه وقتاً للشرود والتأمل. دَرَجَ هاني على فتح صنبور الماء عصراً، ورَشّ الحديقة، وغسل الممرّات، ولكنه لم يأبه اليومين الأخيرين لذلك.

نظر إلى ساعته، ثمّ دخل البيت مجدّداً. توجّه إلى المطبخ، صرف وقتاً في نبش الجوارير ككل مرة، لأجل العثور على سكّين حادّ. سيعدّ اللحم، ويقطّع الطماطم والخيار، ويغسل أوراق الخضار، سيوزّعها في صحون، ويضعها جانباً جاهزة لليلتهما الأخيرة.

لم يطلّ الولد بعد. لم يتناولا لقمة مذ طلع النهار. كان يود أن يخبره بشأن ترتيبه لكل اتفاقاته، وقد تحدد الموعد النهائي لسفره. لكن باب غرفته ما يزال مسدوداً. فكّر في أن الوقت سيسمح له خلالها بمرور سريع على الحلاق. وما هي إلا دقائق حتى صارت السيّارة خارج البيت، يُطقطق الحصى تحت عجلاتها ثانية.

الطريق الأفعواني الذي يميّز أبي الخصيب بخضرته وكثافة نخله بدا له مثل فم عجوز مسوّس الأسنان. يضيّق الحصار على الناس، يزحف الفقر، ويظهر حتّى على الحيوانات التي ففرت أفواهها جوعاً وعطشاً. عندما توقّف وقت الضحى في طريق العودة ليعطي جزءاً من اللحمة والخضار إلى العجوز التي هدهدته في طفولته، لم تتعرّف عليه. ظلّ صامتاً. ضحكت زوجة ابنها حتى بانت أسنانها المنخورة، طمأنته أن العجوز لم تعد تتعرّف على أحد منهم. وجوه الأطفال النحيلة، غطاء رأس العجوز المهترئ يشبه البيت بسياجه الطيني المتداعي، وأرضية حوشه الترابية الوعرة المتآكلة، والغرف الثلاث المظلمة، غرفتان من اللّبن، وثالثة توقّف البناء فيها، جوانب من البلوكات الإسمنتية الجاهزة، من دون سقف وباب. تمتْ تصفية التوأمين الشابّين خلال الانتفاضة. تركا زوجتين، ورهطاً من الأطفال، وعجوزاً، وحيدين من دون معيل. تتصدّق الناس عليهم بما يتوفّر. سألته البنت عن هاني، فهزّ رأسه إيجاباً، جواباً على السؤال. لا فرق لدى هذه البنت إن غادر، أو مات، لا فرق لديها البتّة في أي شيء، ظاهر في نظراتها، في الطريقة التي تتحزك بها، وهي تُطعم الأطفال والحيوانات والجدّة. دجاجتان هزيلتان وقطط تدور في الظلّ بكسل. تلفّت من حوله. ما الذي يفعله هنا؟ يشعر في كل مرّة، كما لو أنه أذنب في حقّ الشابين المسكينين، كما لو أن حياتهما ثمن مدفوع لنجاة هاني. لولا المساومات والوساطات، لكانا هو وهاني في عداد مَن تمتْ تصفيتهم، بالجملة. ليس هناك مَن يدفع لهؤلاء الفقراء. لا تفقه الصبية والزوجة الثانية شيئاً، وفي نظرتها تساوي كل ما حولها في تلك الظهيرة من بشر وحيوانات وأدوات زرع. تناولت أكياس الخضرة واللحمة من يديه بآلية. واختفت من الحوش، وغادر هو مغمغماً السلام عليكم.

استقبله حلاّقه بوجه بشوش، وهيأ له مكاناً على وجه السرعة عندما علم بضيق وقته. ناوله مقلمة الأظافر، كما طلب، وانصرف هو بالمقص إلى شعره. ينظر الحلاّق إليه بين الحين والحين في المرآة ليطمئنّ على رضاه. بسيم منشغل مستغرق بتقليم أظافره غير آبه به وبتعليقاته. جاء دور ذقنه التي صرف عناية بحلقها، وتناول الملقط والخيط لينظف باقي وجهه وأذنيه ومنخريه. فاته تحذيره إياه، فتناول الكولونيا بحركة خفيفة، ورش من مائها الرخيص على وجه بسيم ختاماً لطقسه، كما اعتاد، الأمر الذي جعل بسيم ينفجر غاضباً بوجهه، وينهض من مكانه رامياً الفوطة بوجهه.

- حمار، ألف مرّة نبهتك. غبي، بليد.

رمى له مبلغاً على النضد بضيق، وغادر ضارباً الباب بقوّة من خلفه.

انطلق بسيّارته. ينسى الأبله التحذير في كل مرّة. هو لا يطيق هذا العطر الزائف المنفّر الذي يظلّ لصيقاً به، مهما فعل، من أجل إزالته. أدار المذياع في الطريق إلى البيت، وارتاح في عثوره بالصدفة على أغنية عاطفية قديمة من التراث. يضغط على زرّ النافذة لترتفع، وتعزله عن الأصوات في الشارع. يدير زرّ التكييف، والزرّ الآخر ليرفع من صوت المذياع لأعلاه.

لم يتوقّع ما حصل. المكالمة التي جاءته أصابته بخَرَس. ولو لم يكن شريكاً، لما صدّق أذنيه. أخبره بخسارتهما لصفقة بيع النفط المهرّب. الخبر الذي قصم ظهره. عقدا عليها الكثير من الآمال. لم يشأ أن يسمع عن توزيع مكاسب وغنائم. كان استثماراً سرّيّاً. تقاسم الصفقة مع شركاء آخرين. أغلق أذنيه، ووضع هو تحديداً كل ما لديه فيها. اقتنع تماماً أن انتهاكات أمريكا في برنامج "النفط مقابل الغذاء"، وما اقترفته من آثام بحقّ هذا البلد يفوق فظائع النظام نفسه بكثير. والطُرُق غير المشروعة كانت بالأساس من إلهامهم. رغم كرهه التعامل مع تجّار وسماسرة ووسطاء، لا يعرفهم، ولم يرَ وجوههم، عَقَدَ الصفقة بسبب طمأنة أبي حارث له. كانت ثقته عالية بكسبهم، معتمِداً على الوسيط، ابن العمّ، الخبير الملاحي، الذي تلقّى الأوامر العليا بعدم مغادرته البصرة، لاعتمادهم المباشر على خبراته. ولم يكن هناك خيار، ولا فسحة للمزاح. تمّ استدعاء أوائل مَن أرسوا أوّل ناقلات تصدير النفط الخام في الموانئ المختلفة في البصرة، وكل مَن ألمّ بكل ما لشؤون الدائرة والقوانين التي تخصّ المياه الإقليمية تحت الحصار، وبما خصّ دخول وخروج البواخر من البحر إلى البصرة، في ظلّ ظرف كهذا.

المفاجئ أن الخبر جاءه على الهاتف مقتضباً، ولم يكن أبو حارث المتّصل. جاءته المكالمة عبر شريك ثالث، لم يسبق أن تعرّف على وجهه، أو سمع صوته (تمّ الاستيلاء على السفينة بأكملها مقابل التكتّم على الشركاء).

دفع بسيم ثمن حياته وحياة هاني بالعملة الصعبة. كان من المفترض أن يستغلّ حضته التي وعد بها في مشروع كبير، يعوّض خساراته الماضية، أن يضمن له حياته، وأن يوظّف جزءاً منه ليضمن حياة العائلتين المسحوقتين، وقد تبنّى الجزء الأكبر من إعالتهما. باع ما يملك لشراء

الحصّة تلك، ولا وسيلة الآن للتحقّق من شيء. كيف تمّ القبض على السفينة؟ كان استثمار الشركة مرتبطاً بشكل مباشر مع رجال كبار في الدولة، وعمليات تهريب النفط المنظّمة كانت لا تتمّ إلا بموافقة تامّة من قِبَل وسطاء معروفين، يتلخّص دورهم كضمانات مقابل عمولات. إن افتضح الأمر سيؤدّي بهما إلى التهلكة. الأفضل أن تمرّ القضية بهدوء لفترة. فكّر في أن يُرجئ البحث والتداول بالموضوع لحين سفر هاني، لخطورة وضعه.

دخل الحمّام حال وصوله البيت ليتخلص من عطر الحلاق الذي التصق بأنفه، دشداشته، غترته، ويديه.

سلوى لم تقتنع بقراره بدفع هاني بعيداً. فراق هاني برأيها سيجعله يمرض هو الآخر. فقدُها لابنتها أكبر من أن تتجاوزه بتبرير الحذر مثله. قالت له ذلك بتأثر واضح في صوتها، واقترحت عليه أن يزوّجه، ويسعد بأحفاده.

سلوى التي وجد فيها سلوى سرّية، تابعته بحذر لئلا ينهار شيء ما بينهما رفيع هشّ سريع العطب. اتفاق غير مُلزِم، وحبّ منقوص، وتكتّم مناسب لكليهما، وزيارات وفق اتفاقات مسبقة، يقررها وقته، وإن عنّ له أحياناً أن يحمل جسده المعلول، ويندسّ فجأة ليلاً في سريرها. شيء من الإثارة والانشغال في الحياة، شيء من مخاتلة والتفاف، تسلّل، سرقة ومخالفة. وقيل السن والترف يحذّدان موعد هذا النوع من المخالفات. يضحى العمر أمراً لا ضرورة للخوض فيه، بينما الشكوى منه على الأغلب ممكنة. الأغرب أنه يفكّر بسلوى كما يفكّر ببنت عذراء، عليها أن تكتفي بالقليل لحين. إنها طريقتها المسالمة المستسلمة التي تمكّنه عبرها من نفسها، والحياة معها مجموعة اللقاءات مع بعضها، أحاديث عابرة، الاحتواء خلسة، عشاء من يدين محبتين دافئتين، وبعض من فطرة، ونومة هانئة قبل ثرثرة.

كان مجيئه مفاجئاً، خلاف تصوّرها. لم تتوقّعه، مثلما لم يخطّط بسيم له. ارتبكت مثل بنت، وهي تُفسح له الطريق ليدخل. خضّن يدَها بحرارة، إعلان عن صُلح. أدرك خوفها، فَهِمَ ما حاولت قوله، وهو يشاركها إيّاه. الخوف متبادل، قائم، وسيظلّ، لكلمةٍ ما ينطق بها أحدهما في لحظة شرود، لن يستطيع أن يبدّد مخاوفها، وقد أتى متأخراً، ولن تستطيع هي الأخرى استبداله بوحدتها. الرغبة كانت متبادلة، بتجاوز الخلاف، بطريقة سريعة قدر الإمكان. (كلاهما يؤثر استحضار ما فاته حين يكرّس خصوصية مشتركاتهما، مثل حالة النفي التي يعيشانها، والمتعة التي تبعثها تلك التفاصيل، هو الماضي حين لا يُحسَمُ أمره!). ضحكتْ، وضَحك، لكنه لا يشعر أن الناس ترى ضحكته، وقد تكون حالة شعورية لديه، قال لها هو لا يشعر أنه يضحك، وحين يضحك يحسّ أنه بحاجة إلى زيت مكائن

ليحزك عضلات وجهه، التي يقارب عددها المئة، كما قرأ. يتأملها براحة. من السهل أن تضحك سلوى، بغضّ النظر عن الحالة التي تكون عليها. يندفع للعثور على ما يُبقيها بصورتها هذه كي يبقى مبتسماً ليختفي خلفها. يظنّ أن الناس تسبر غوره، وتعثر على الكذبة، تكشف زيف الضحكة، وهي تُمسك بجذور، غزاها الشيب تماماً مثل شعره.

باغتهما شقيقها بالزيارة، وصعُبَ على بسيم الموقف. استمدّ منها تطميناً، وهي تتحدّث مع الشقيق بهدوء وحنان. بدث أصغر عمراً، أو أنها تحدّثت ذلك اليوم بغنج لافت، لم يعهده. تنبه إلى جزء منها فجأة. خطر في باله أنه لا يعرفها، هي ليست مصدراً من مصادر حزنه على الأقلّ، ليست كما تصوّرها، من دون خبرة، ومن دون احتياج، ومن دون علاقات سابقة ربّما! ارتبك، ما به؟! هل قصّت شعرها؟! هل غيّرت لون شعرها؟! أضاع حديثه مع الأخ، وبدا مربكاً. لم ترتبك مثلهما، أو تشعر بالحرج. ومع الساعات، أدرك أنها هي مَن كان خلف هذا اللقاء الذي بدا له عفوياً. أصرّت على إعداد شاي جديد مهيّل لشربه سوية، نهضت بخفّة ورشاقة، وغابت في المطبخ، وتركتهما في شبه حيرة.

سادَ التفاهم مع أخيها في مشتركات، لا حصر لها عبر ماض، قاد كلاً منهما إلى طريق، وذاك الأسى الذي شمل العائلتين. الأخ هو الذي تطرّق إلى أيّام الجمعية. سفاها بالواجهة الثقافية البديلة التي عوّضته العمل السياسي في الحزب. استغرب أمامه كيف لهذا المشروع الذي هو بمثابة ناد صغير أن يقدر على استقطاب مختلف التوجّهات الفكرية آنذاك. صَحَتِ الاهتمامات المشتركة فجأة، وانتفى الحذر المتعارف عليه، الريبة بسبب التشكيك الذي شاع عن تعاون الأخ مع رجال الأمن (كان فرض "التعاون" مع جهاز الأمن إثباتاً قاطعاً لتخلّي السياسيين المعارضين عن ممارسة نشاطهم، وإعلان تبرّئهم من فكر الحزب الذي ينتمون إليه). كلاهما نبذ الكفاح المسلّح الذي دعا إليه الحزب حينها، وكلاهما تحفّل تبعات موقفه وفق ظرفه. تفتّحت الرغبة بتكرار تحليل ما حصل، وما يدور، والتذمّر منه، بسيم أكثر نزوعاً للثورة، ولكن موقفه تغيّر لاحقاً، بسبب ما مرّ به.

طالت السهرة، والحديث ناش ارتفاع ضغط الدم، آلام فقرات العنق والظهر والتهاب الكبد. وعن بنيان شقّة سلوى وصمودها. ظلّ بسيم يتابع نظرات سلوى الثابتة خلالها، كانت تسدّدها إليه، وهي تمدّ عنقها، وهي تُلقي بشعرها إلى الخلف، وبدلال، تستجدي بقاءهما كل مرّة فترة أطول، بينما تهيّل الشاي، وتحرّك الصينية، وتستبدل الماء في الأقداح أمامهم.

وجهها مشرق، ونظرتها من الدفء إلى البوح. تغلق الجارور بمؤخرتها بعد تناولها لعلبة ثقاب، حركة سريعة تُوقظ فيه توق حارّ لاحتضانها. حدّثتهما عن قرار المالك النهائي في هَدّ الشقة، ورفعت رأسها محزكة يدها إلى أعلى الجدار، مشيرة إلى التصدّعات التي لم ترها إلا بعد أن عادت الكهرباء التي ضُربت محظتها الرئيسة من قِبَل قوّات التحالف بعد الغزو، وعن سِخر أزرار الضوء التي نسي الناس الضغط عليها لإيقاد المصابيح، وألحقت قولها بضحكة متكسّرة.

عندما غادرها تلك الليلة، شعر بانتعاش في روحه. أدار "أمل حياتي" في جهاز التسجيل. بعثت الأنغام فيه طرباً، اشتاق له لسنوات. عرج على مطعم، تناول منه وجبة عشاء. عاد إلى البيت ليناول هاني سهمه. وليصحب معه قنّينة ويسكي من البيت، ويعود إليها. (كانت المرّة الأولى التي تناول فيها كأسه بهدوء ونشوة، وفي بيتها، راح يتأمّلها مكوّرة خانسة في الفراش طويلاً، انجذب إليها ملتحماً بقفاها بشدّة محتوياً خصرها، متحسّساً جسدها، متشمّماً ثناياها، ومُنصتاً إلى إيقاع أنفاسها).

وسلوى ظلّت تتمنى لو تعيد مولودتها إلى بطنها لتلدها من جديد. تلدها على مفرش أبيض معقّم مكوي. لكن الخطأ حصل منذ البداية، ولا مجال لتصحيحه. تسمع وفاء تبكي على الجهة الأخرى من الخط. صوتها شبيه بصوتها:

- تركتُ الدراسة، وتركتُ البلد، أنا الآن في بلد آخر، حصلتُ على لجوء فيه.

بدتْ كأنها دائخة، تهذي، أقرب إلى سَكْرى. حاولتْ سلوى أن تتخيّل المكان الذي تقف فيه ابنتها. كيف تتنقل بسهولة هكذا في هذا العالم، من دون خوف؟! كيف؟! ربما هو خيالها ذاته، وصورها المبالغ فيها التي اعتادتْ أن تستثير الأمّ من خلالها... لكن وفاء فاجأتها:

- تعالي لتعيشي معي.

طلبتْ ذلك دفعة واحدة. صوتها يروح ويجيء:

- سأتدبّر أمر الجواز، وأرفع عنكِ مَنْعَ السَّفَر، أو ربّما تبديل الاسم في الجواز. لا تشغلي نفسكِ بشيء، ولا حتى تكلفة السَّفَر ولا المحرم، أقسم لكِ أن بإمكاني تدبّر كل شيء، كل شيء مقدور عليه، سأدلّلك.

تقولها بتأكيد. تضحك في نهاية الجملة، ثمّ تبكي، وتعود لتتوسّل:

-لا، لن يتطلّب الأمر أية مجازفة منكِ، بإمكانكِ أن تقصدي تونس، أو دمشق، ربّما دمشق أفضل وأسهل لكِ؟ سأتدبّر أمر من يرافقكِ من هناك. سأحصل لكِ على فيزا "الشنغن" و...

ساد صمت قصير بينهما. تسمع سلوى أنفاسها تختلط لتوان بأنفاس وفاء، نبض يتسارع، وشيء في داخلها يصعد، ويندفع خارجاً، وهي تصرخ بالسفاعة:

- ويحكِ.

صاحت بأعلى صوت. صرخت، وشيء يتشقق، يتمزّق في صدرها. صوت ابنتها، صوت مريم التي لم تتعزف عليها. ما قالته جعل جسدها ينتفض بأكمله:

- ما الذي تفعلينه بنفسكِ؟! أخبريني. كيف؟! كيف ستتدبّرين أمر جوازي؟! أجيبي.

بكلمتها الأخيرة، شعرت أن ابنتها ضاعت منها، ماتت، سقطت من مكان شاهق، ولم تستطع تلقّفها.

كيف تزامن ما حدث مع الإحساس الغريب الذي ألح عليها. قبل بضعة أسابيع، اتصلت سلوى، وسألت بحثاً عن عنوان سهام، صديقة قديمة تدين لها بزيارة. تلك الزيارة لها تفسيرها المنطقي ولابد. تبيّن أن سهام ما تزال تسكن البيت القديم. صداقة تعود إلى أيام الدراسة، وعلاقة حب مخفقة بينها وبين شاب، تعزّفت عليه في طريق الرواح والمجيء بين المدرسة والبيت والنزهات والسينما. لكنها تزوّجت فجأة من رجل دين، ينتمي إلى عائلة ثرية معروفة في البصرة القديمة. اختلفت حياتها تماماً عقب ذلك، وتباعدت الزيارات بين الصديقتين، وقلّ التواصل بينهما حتى انقطع. ما آلمها أشدّ الألم هو خبر اعتقال ابنتها، وهي من عمر وفاء، بتهمة انخراطها في تنظيم حزب الدعوة المحظور. ذلك في أوّل الثمانينيات، واشتعال الحرب. الناس تعرف، ولا تعرف، غاب كثيرون بصمت، وهربت عشرات العوائل. بسبب انعزالها، وما أمعنت سلوى في الابتعاد عنه، آثرت أن تنقطع عن أداء الواجبات التي تأتي عليها، وعلى ناسها بالمشاكل. تذكر كيف ارتدت بنت سهام الجبّة والحجاب، وكيف تعارض ذلك الزيّ الغريب مع حجم جسدها الناحل الصغير. لها بشرة أبيها الحنطية، وصفاء عينيه. لا تعلم لم ألحّت الحاجة للزيارة فجأة. نَبَض في جسدها رغم كل تلك السنوات وقع الضربات، أصوات الرجال الغليظة، الضرب على الباب، واختناقهما في السيارة، وظلمة الزنزانة. وصلها نبأ وفاة الابنة بعد إطلاق سراحها بفترة قصيرة. ماتت بين يدي سهام. ويلها تلك الأمّ، وما ابتلت به! تريد أن تراها، أن تواسيها، وتحضنها، أن تبكي بحرقة، أن ترى بعينيها كيف تدبّرت أمر مصابها. تشعر بتأنيب ضمير فادح لتراجعها عن القيام بالواجب.

عندما دخلت البيت استقبلتها صبية محجبة شابّة، قادتها إلى غرفةِ جلوس كبيرة واسعة. رائحة بخور وماء ورد مريحة، وجلسة عربية مفروشة، وسجّاد من الحائط إلى الحائط، اقتضى منها أن تخلع حذاءها

قبل أن تدخل، وكأنها داخل مزارٍ لولي. نهضت سهام من مكانها، واحتضنتها بصمت طويلاً. صاحبة صوت سعاد حسني المبحوح وعينيها الكحيلتين تكلّلت بالسواد حتى أخمص قدميها، ولكنها بدت هادئة، متماسكة، تلوح شبه ابتسامة على وجهها الشاحب الذابل. سبب الوفاة جلطة في الدماغ، وبعد تنهيدة، وسبب وفاة السيد إثرها حزنه عليها. دخلت الشابة التي استقبلتها عند الباب. حجابها يحدّد تدويرة وجهها الأبيض النضر. تسير بملابسها الطويلة التي تكشف عن قدميها الحافيتين بنقل خطواتها. وضعت صينية الشاي بهدوء قربهما على الأرض، وانسحبت بهدوء، وتركتهما.

أخبرتها سهام أنها تستقبل النساء في بيتها أسبوعياً، تقرأ القرآن، وتتبادل الأحاديث معهنّ حول الدين والحياة وهمومها. وتلك الصبية هي ممّن يتبرّعن للمساعدة في بيت السيّد، ويلازمنها حين تمرض. لم تعرف تفاصيل كثيرة عن فترة بقاء ابنتها في السجن. ابنتي غادرت السجن صامتة، وماتت كذلك. حممتها بيدي، ومشطت شعرها. اهتزّت سلوى في مكانها، وهي منصتة، تتحسس جمراً محلّ قلب معطوب. غالبت شعوراً بمحاصرة قوى خفية لها. وكأنها دخلت كابوساً، لا حاجة لبذل جهد في تفسيره. غادرتها بنفس مكروبة. قطعت الطريق عبر الدُور العتيقة الخربة والأزقّة المظلمة العفنة ومستنقعات المياه الآسنة، تسير وفي ذهنها تمثُل صورة الشابة مسجاة، مقمطة بمنشفة بيضاء، وشعر مبلول ملموم إلى الخلف. مَن ورّط هذه المسكينة في هذا كله؟ ما الذي أتى بها إلى هذا الطريق. تذكّرت ورطتها. قد دأبت على الاجتماع بعمرها مع بنات رابطيات مسيحيات من هذه المحلّة، وصابئيات أيضاً، تجهل مصيرهنّ. الدرب ذاته، ببيوته المتهالكة العتيقة، بحفره ومجاريه الظاهرة. لم يتغير شيء. تغذّ السير إلى البيت بانقباض وألم في صدرها، ولكنها وهي تبتعد عن المكان عادت شيئاً فشيئاً إلى دهشتها التي خنقتها حيال صديقتها سهام. لم تعرف في سهام من قبل غير حبها للحبّ وأغاني الحبّ وأفلام الحبّ وصوره وتقليد دلع البطلات المصريات، ولولا حادث الابنة، لما كان بمقدورها استيعاب شخصية الداعية التي تبنّتها، وفرضتها في اللقاء عليها.

- إن لم تجيبيني الآن، يا وفاء، لن أكمل المكالمة معك.

تسمع وفاء، وهي تبكي. تنهض من مكانها، تقف حائرة بوجهتها. تذكّرت سلوى رفيقات لها، غادرن العراق، بشرى وأختها الكبرى وغيرها لاجئات في دول مختلفة، ولكن علاقتها انقطعت بالجميع. حاولت أن تستنجد بواحدة

في ذهنها، ولم تستطع. منذ مدة، وهي تبحث عن أثر لعفاف. قيل لها إنها غادرت إلى كندا أيضاً. لا إمكانية لديها لمجرد التوجه إلى بغداد، لسؤال أصدقاء لها، أو لأصدقاء أبيها هناك، لو كان على قيد الحياة، لتلجأ إليه. بسيم في محنته مع هاني، أبعدته عن وفاء عن قَصد. أخوها، ولكن ما الذي بإمكانه فعله؟ لم تعد تعرف ابنتها، صوتها، وهي تنتحب، ولكنها تعرفها، كما تعرف نفسها. هل تُخبرها عن وفاة أبيها؟ هل يوقظها الخبر من تهوّرها؟ هل ستأتي حينها؟ وبتوسل سألتها:

-وفاء، هل أنت متورّطة بشيء، هل أنتِ بأمان؟

تتكاثر الصور في مخيلة سلوى، بسبب هلعها. يحاصرها اليقين أن وفاء في خطر. تعود صور بشعة تبعث على الغثيان فيها، ركلة في خاصرتها كادت تُفقدها وعيها، خدّها المسحوق تحت جزمة ضخمة على الأرض القذرة، وحين اندفع ماؤها على الأرض، وامتزج بالبول والدم. صرخت:

- ما الذي فعلتِه بنفسكِ؟! عودي لتسلمي، ولتُنقذي روحكِ، ما الذي فعلتِه؟! أريد أن أعرف الآن منكِ. إن لم تصدقيني القول، فلستِ ابنتي بعد الآن. هيا، أجيبيني، هل ساومكِ هؤلاء الكلاب؟ كيف عثروا عليك هناك؟ أجيبي، أعرفهم جيداً، إنهم يريدون النيل مني، هل يريدونني أنا؟

تصرخ وفاء لتسكت صياح أمها:

- هل جننت؟! ما هذا الذي تقولينه؟! أنت تهلوسين، ما هذا الكلام؟! كل ما في الأمر أنني سأتدبّر ثمن تزوير جواز لكِ مع فيزا. ما بكِ؟

لم تصدّقها الأم:

- كذّابة. مراوغة.. أنا أعرفكِ..

- وماذا عنكِ؟

رياح شيطانية تنتقل عبر الأسلاك، وينكهرب الجوّ بينهما. تسبّ الأمّ ابنتها، وتلعن الابنة أمها، كعادتهما عندما يتواجهان. وتندفع وفاء:

- ما الذي تريدينه مني، بربكِ؟! العني، هيا، وكيفما شئتِ، هل أعتذر لكِ لولادتكِ لي؟!

المحاكمة ذاتها والأب الذي حرمتها منه، عن تخلّفها، سلطتها، ومكابرتها الفارغة، وحزمة أخلاقها الجاهزة. صاحت الأم بصوت مبحوح مرتجف

لتُسكتَها. لعنتْ طيش الابنة، وتعجّلها، عقوقها، وجحودها، وتطيّرها. ولكنها للحظة، توقّفتْ. ما اتّهمته وفاء بها. خشيتْ أن يكون قد تسرّب خبر ما إليها بشأن بسيم. ارتجفتْ ساقاها. هل هذا ما عنته وفاء؟! ما هي فاعلة؟! جلستْ على التخت، تماسكتْ، سحبتْ نَفَساً عميقاً محاولة أن تهدّئ من روعها. كرّرتْ عليها طلبها بتوسّل حادّ هذه المرّة، برجاء؛

- وفاء أمّي أنتِ، عودي، الله يخلّيكِ.

- أنا أعود؟! وهل جننتُ كي أعود؟!

- لمَ لا؟ ما به البلد؟ ما بنا؟ عودي، يا ابنتي.

لكن الخطّ انقطع، ولم تعرف وسيلة للاتّصال بها من جديد.

مرّ الغروب بالمزرعة، وعبر، ولم يبقَ إلا ظلّ للضوء بعيداً في أطراف البساتين. البيت صار مظلماً. يختار المكان في الطارمة لصق الجانب الأيسر من البيت ليقيم فيه احتفالية توديعه. مساحة تسوّرها الآن أشجار السدر والبمبر والصفصاف على جانبيها، بقيت مفتوحة، تطلّ على الحديقة الممتدّة والمتماهية مع حدود البستان. غلظت جذوع الأشجار بعض الشيء، وانتشر ظلّها. الأشجار والنخيل والطابوق وجدران الغرف وأسلاك الأسيجة كلها بعمر هاني.

انكسرت حرارة الجوّ قليلاً، فأخذ بسيم بتنظيف الكرسيين والطاولة. ثمّ اقتعد تختاً خشبياً صغيراً مع كأس من العَرَق أمام منقلة الفحم. توضح الصمت خلل سقسقة الطيور بعد توقّف مضخّات المزارع المجاورة عن عملها مرّة واحدة.

أخذ جرعة من كأسه استهلالاً للمساء. تناثر شرر الفحم المشتعل خلل عتمة لون الغروب. ما يزال بانتظاره. لم يظهر منذ الصباح. ليلة ستختصر الكثير. عزلته ستكتمل، فهو ليس ذاته بعد غد. لم يبقَ من الأهل مَن هو قريب، ولا الأصدقاء. عاد بظهره إلى الخلف، ومدّد ساقيه. لمحَ لمعانَ ذيلِ ثعبانٍ صغيرٍ انزلق، واختفى بين الحجر المصفوف حذو السياج، وأطلقت العصافير آخر صوت. كان قد اتّفق مع مقاول أن يشرع ببناء ملحق خارجي صغير، تحتلّ المكتبة الجزء الأكبر منه، كما اتّفق معه بشأن تعلية السياج أيضاً حال مغادرة هاني. الفقر بفعل الحصار يستفحل، والجريمة كذلك. لكنه أجّل هذا المشروع، إلى جانب مشاريع أخرى، والآن أوقف كل شيء، بسبب الخسارة التي مُني بها.

لا ينوي بسيم أن يُخبر سلوى بما حدث. يدرك أنها تفكّر بطريقة مختلفة، ولن يجدي إقحامها في ذلك الموضوع. وهي لا تملك أن تفعل شيئاً، فيما لو ترتّب على ذلك شيء. وحين يقلّب الأمر يميناً ويساراً، يفكّر أنها ربّما لن تُظهر ردّة الفعل التي يخشاها، فيما لو علمتْ. سلوى أدركتْ ورغم رفضها القاطع لتغيير طريقة حياتها، وما ترتّب عليه أن حياته

بالمقابل صارت ما تُمليه عليه اللحظة، ولأن الوضع بأكمله مقلوب رأساً على عقب.

يحاول أن يخنق قلقه الآن. امتلأ قلبه بها، بشكل مفاجئ وعذب، وبدفعة واحدة. تعقدتْ أن تُظهر له استسلاماً، حارَ في تفسيره آخر مرّة. ذاب العناد، تغيّر المزاج. وتكشف جانب، لمس فيه اهتمامها به، واحتواءها عبره. حتى السرير، في الليلة التي جمعهما، وكأنها خصّصته له كله، واكتفت بركنٍ بعيد، تكوّرتْ بشكل غريب، شبه منكفئة على نفسها، يلعنها (تلك الدعوة في استكانتها وتطامن نفسها!). فاجأ نفسه حين استدارتْ مولية ظهرها إليه، فاستثارته حالتها تلك، وأشعلتْ رغبته فيها إلى أقصاها.

صوت لسعات الخشب يتعالى. دنا لحن من أذنه، استقرّ على لسانه، فبدأ بالدندنة. تداخلتْ أصوات كثيرة بألحان مختلفة في رأسه، فاحتار لمَن يُنصت. لن يولي الاهتمام اليوم لطبيبه، ولا لسلوى، لن يلتزم بالتحذيرات. آثار الهروب إلى إيران ما تزال في كبده، ولولا الإبر التي حُقن بها حال عودته منتصف الستينيّات، لما قاوم كبده هذه السنين كلها. ولكنه كبد سيظلّ متعباً. (كان الناس يملؤون الجرار الفخّارية بماء النهر حين يصعد المدّ، ويركد الماء نوعاً ما).أثار شرر الجمر بقطعة من الورق المقوّى. المهمّة الوحيدة التي كانت تُوكَل إليه من قِبل زوجته في البيت، وتمنحه ثقتها هو إعداد الموقد للشواء. كان يرحّب بذلك بداخله. يتناول مشروبه على مهل، وهو يعدّ ناراً مناسبة. وهاني صغير السّن، يقترب منه، وتظلّ هي بين رواح ومجيء، تمدّه بما تُحضره من قطع لحم وخضار للشواء. وكأن المشاركة من شأنها أن تقحمه وسط تلك العلاقة المغلقة دونه بينها وبين الولد. تذكّر كيف ضغط والده بضعف على يده في لحظته الأخيرة، ونطق بكلمات إيرانية. (لامس الأب يد ابنه أخيراً، ولأوّل مرّة عند وفاته).

ناداه صوت غريب، صوت آتٍ من ماضٍ غافله، وهرب منه. استبدّ به حنين غامض (إنها أعراض حبّ، لا يعرفها، ولا تستوقفه)، نهض بهمّة من مكانه في الحديقة، ودخل مسرعاً البيت ليبحث عنه. كان الصوت يدور في رأس بسيم، وكأن الشجن استبدّ به تماماً وراحت روحه تنشد الطرب. ومن داخل الغرفة المظلمة الفارغة انبثق السؤال

- عمّ تبحث؟

اعتدل في جلسته عندما فاجأه صوت زوجته المتوفاة. التقط أنفاسه بعد أن نفض الغبار عن ملابسه. اعتاد صوتها يعاتب بِظلِّ انكسار، ولكنْ

ليس هذه المرّة ... مختلف هذه المرّة.

- أ لم يكن بحوزتي كاسيتاً، يقول فيه...

وهي لم تحرص على مجاملته أو تشجيعه لمسك زمام المبادرة، كما اعتادت أن تفعل؛

- أنتَ تعلم أني حرقتُ وكسَرتُ كل الكاسيتات حينها.

- ولكن الكاسيت هذا ليس فيه ما يثير الريبة، لا هو كتابٌ معارضٌ، ولا تلاوة، ولا أغان ثورية، مجرّد كاسيت مقام عراقي.

يضحك بانتشاء وبمزاجٍ مزاح، وهو يبحث عن جهة الصوت.

- أنتَ مَن طلب ذلك، كل شيء كان يُقلقك، ويُزعجك، كرهتَ الغناء والأدب، الضحك وحتى الكلام، ألا تذكر؟

- أنا؟

- نعم، أنتَ. هل نسيتَ؟

- ربّما، ولكنْ أنا لا أفهم، صوتكِ، لِمَ غضبكِ؟

يتلفّت، فيلمح طيفها، وهو يغادره. يشعر بالهواء خانقاً متربّاً. الغرفة تحوّلت إلى مخزن كبير بمرور الأيّام. غير مكيّفة، خُصّصتْ للضيوف، ولكن الكراكيب تراكمتْ شيئاً فشيئاً فيها. تلطّخ بالغبار، والضوء ليس كافياً ليعثر بسهولة على ما أراد.

اختنق بالحرارة المحبوسة داخل البيت. فتح جهاز التكييف في الصالة، قبل أن يخرج إلى الحديقة ليجد الولد أخيراً أمامه منهمكاً بتقليب الجمرات في منقلة الفحم. يهمّ يسأله إن رغب بكأس، لكنه يلحظ قنّينة البيرة إلى جانبه. ينهض هاني من مكانه ليخلي له مكانه، ويجلس على الكرسي عند الطاولة. كان يرتدي الجينز ذاته، وحتى التيشيرت ذاته، لليومين الأخيرين، ولربّما لم يستبدلهما بملابس نوم طوال ليلتين.

يرين الصمت لفترة. لا ينظر إليه، يفكّر، وهو يجلس، إن هذا الطفل الحزين النظرة سيغيب في الغد. وهو يتمّم بدوره مهمّته الأخيرة في الحياة، ويفرغ من كل شيء.

-لنسمع شيئاً.

- ماذا تحبّ؟

- ما تحبّ.

ينهض هاني بحركة ولد مطيع ليأتي بما يفاجئ خاله. ما إن انتشرت نغمات الآلات الموسيقية حتى سرت رعشة في بدن بسيم. شعر بانشراح في صدره، ما لبث أن شابه انفعال. خشي أن يطلق العنان لأحاسيسه. دار السائل في دم بسيم بنشوى، لا يبلغها إلا نادراً، وهو يحاول ألا يسخر من نفسه، أن يصدح بما هو شجيّ، "أمان أمان"، وما فات جميل رغم كل شيء. سيحاول ألا يكون واعظاً، سيحاول أن يؤكّد لكليهما سلامة وصحة القرار الذي اتّخذه لإنقاذ هاني من ورطتهما معاً. تخطر في باله أخته. صورة هاني تتطابق مع صورة أمه، يرتجف فكّه، تقول له الحكمة إيّاها، أن يدفعه ليغادر. به هو الآخر توق للطيران. ولكنْ من أين جاء هاني بهذا الكاسيت؟ وكيف وقع اختياره على هذه الأغنية التي بحث عنها تحديداً؟

نهض، ووضع أسياخ اللحم على الفحم بأناة، تذكّر أمراً، ودخل البيت مجدّداً ليجلبه من المطبخ. وجدها تعترضه. اختارت الثوب الفضفاض العريض والحجاب الأبيض المنسدل. خاف على قدميها الحافيتين من أرضية البلاط التي زادتها أجهزة التكييف برودة. لم يعترض على تغييرها زيها. التغيّرات التي طرأت عليها كثيرة، وخلاف ما شعر به، وحدث له، حدثت تلك التغيّرات بهدوء معها، مذ عادت به من دائرة الأمن في النجيبية. استلمته شبه مقعد، وبصمت، راحت تنظّف فراشه، تنظّفه، وتبدّل سرواله الداخلي، وتُطبق الباب من خلفها بحذر. تغيّر الزّيّ، وتغيّرت المعاملة والعمل. المفارقة أن الحديث قلّ معها بدءاً من تفرّغها لتمريضه، قلّ بالتدريج بينهما حتّى انقطع باختفاء آخر الدوائر المصفرّة حول عينيه. عقابها له أشدّ على فعلته. لم تقل، أو تعترض، أو تظهر خوفاً. أيقن أنها كانت على علم بعودته إلى مزاولة نشاطه المحظور رغم قراره ووعده لها بالابتعاد تماماً عن السياسة، وهو مصدر الرعب الذي أحاط بحياتهما. لم يمضِ طويلاً حتى أوقعوا به. لم يكن بوسعها فَهْم الموضوع، أو طرحه، إذا كان هو نفسه لم يستطع ذلك، ولم يدرك، كيف عاد، واقترف أكبر خطأ في حياته، لا يدري، وما يزال غير قادر على استرجاع الظرف والأسباب.

تعافى الولد الصغير على يديها شيئاً فشيئاً. سرح مع الدجاج وخراف البساتين المجاورة، وبانتقالهم من الزبير إلى أبي الخصيب، تباعدت نوبات الاختناق والحمّى التي أصابته. وصفاتها السّحرية! بدأ الولد يحادثها،

فانشغلت به تماماً، والدائرة أغلقت عليهما دونه.

فزّ في مكانه على صوتها، يلخ عليه؛

- خذه بين ذراعيك.

تكرّرها، وكأنها قالتها عشرات المرّات، بأمر وصبر نافد. ولكن صبرها وطوال هذه السنوات لم ينفد. صمتها أكثر إنباءً. كم كانت قريبة وجاهزة للزواج عندما عاد من دورته التدريبية في مصر، على مسافة مكتبين، أو أقلّ، لم تحبّ الثرثرة. أخته، هي مَن اقتنص الفرصة، وسهّل الأمر، نبّهته إلى ضرورة الاستعجال، ودفعت بالعملية إلى واقع التنفيذ، من دون جهد ظاهر.

- كيف تتركه يغادر وحيداً؟

- سيموت، لو بقي هنا، لن أستطيع حمايته بعد الآن.

يزيحها عن طريقه، يتوجّه إلى المطبخ لتناول صحنين. كادت قدمه تزلّ. مجموعة صراصير تتصادم فزعاً، ويهرب كلّ منها في طريق. هاني لم يقم بمهمّته في حمل الزبالة إلى الحاوية في اليومين الأخيرين كذلك، علث رائحة حموضة وعفن. تجمّعت الأكياس على بعضها البعض على أرضية السيراميك، وسالث من تحتها السوائل. المرأة التي كانت تقوم بالتنظيف تغيّبت لأسباب، يجهلها، وينوي أن يسأل جاره الذي أتى بها عن أخبارها. يفتح الجارور ليلتقط سكّيناً وشوكة لكلّ منهما. يشعر بها خلف ظهره، تلاحقه، تعانده، غير راغبة بالانتقال من المكان.

-ولكنه سيموت هناك.

تقولها، واعتراضها يزيد من استيائه. يقطّع المزيد من الطماطة والخيار، ويضع على جانب من الصحن أوراقاً من المعدنوس والنعناع والريحان.

- أنت تركتَه وحيداً، تعمّدتَ أن تتركه وحيداً حتى ذوى بين يديك، ما الفرق بين نبتة وإنسان؟ انظر له، ألا ترى ما ينشده منك؟ حدّثه عنك، عن نفسه، عن قضته، عن أيّ شيء. جعلتَ منه كائناً غريباً، وها أنتَ تدفعه عن عمد إلى المجهول.

يقطّع الليمونات إلى أرباع، يصفّها جانباً في الصحن، يحمله، ويهمّ بالخروج من المطبخ قبل أن يستدير لينظر وراءه.

-أحاول أن أحميه، أن أجعله إنساناً عادياً تافهاً، لا يحمل غير هَمّ بطنه وعضوه. اختاري له أنتِ بنفسكِ، مصير أمه؟ أم مصيرك؟ أم مصيري؟ وهل ملكنا خياراً أفضل؟ وهل يتعيّن عليّ أن أنهي حياتي؟ أم تظنيني الرجل الحديدي، كما يظنّ هاني؟ هل أنتِ حانقة عليّ؟ أم ما تزالين خائفة؟ أنا أريد أن أحرّره الآن، أحرّره من ربقة هذا المكان، ومني، ومنكِ، والخطر المحتمل في كل لحظة. كل ما حوله سلبيّ. أريد أن أدفع به إلى الحياة، إلى متعها التي فاتته، المتعة هل تعرفينها؟.... وهل هو بالبراءة التي تتصوّرين؟...

يتابع سيره، ويطلع إلى الحديقة.

يخزّ اللحم بالشوكة ليتفحّص نضجه قبل أن ينقل قطعاً منه إلى صحنيهما.

لم يمدّ يده إلى الصحن. بقي يتأمّل الولد، وهو يأكل ببطء شديد. يقلّب القطع، ويختار أترفها، أصغرها ليضيفها إلى صحن هاني. السيجارة في فمه، والمقام العراقي والأسطوانة تدور. أمان أمان... الجوّ البغدادي الذي يحبّه يطغى ويحزّك مشاعر حنين لأمكنة معينة، صور وروائح، لتلك المرحلة الجامعية الضاجّة.

رأسه وكأنه في طور تحميل أفكار، وجمع كلمات.مزّت أعوام مذ ارتفع بناء البيت المجاور، وكفّل، وعائلة الحارس هاجرت، وجفّ البستان، ولكن هاني استمرّ في جولاته الليلية السّرّيّة تلك ذاتها. صارت طقساً من طقوسه، وبقي بسيم يرهف السمع حتّى عودته، وهو يسمع خطواته يطبق الباب متسلّلاً إلى غرفته بعد منتصف الليل، أو على أعتاب الفجر. لغز هاني الذي صار شاباً، يجلس أمامه، ظلّ محيّراً، بالنسبة إليه، ولم يهتدِ إلى حلّه، وبودّه الآن لو يسأله عنه.

- بابا، ألن تأكل؟

اهتزّ الكأس في يده، ولكأنه ينطق بالكلمة لأوّل مرّة، لا يحبّ هذه الكلمة، الكلمة المشتهاة. أجل، وقعها مزعج على مسامعه، هل نطقها قبلاً؟ صوت هاني يشبهه، هل هو هاني مَن نطقها؟ أم شيطان يتلبّسه، ويحاول أن يغرز شوكته في قلبه؟ لا، لم ينطقها هاني من قبل. عندما تأتي متأخّرة، تكون جارحة. هل نطقها؟ إنه يسخر منه، يحاول أن يؤذيه، هي فرصته الأخيرة الليلة.

يدير الولد الكاسيت على الوجه الثاني في جهاز التسجيل القديم، وتواصل الموسيقى انطلاقها في أعالي ليلة صيفية، بدأ جوّها يطرى. موسيقى مجترحة من الروح، إنها كواليس أبدية، توخد هواجس البشر. تعلو صيحات القارئ الغنائية، وتنتشر جمالية النغمات. يشعر بالعطش، فيسبقه الولد ليأتي بالماء البارد. هذا التوارد بالخواطر الدائم يُخيفه، يُنكره رغم تكرّره بينهما.

- هل تؤمن بذلك؟

يفاجئه الولد بالسؤال.

- لا جدوى بالمرّة، إن لم تؤمن بشيء البتة.

الحديث بتسلسل وارتخاء صعب الآن، من دون مران، السنون راكمت صمته، شكواه، ألمه وحساباته. صوته يزعج أذنيه، خجل من نفسه أمام نفسه عندما بدأ في لقاءاته الأولى التحدث مع سلوى، بسبب انفتاحه بالحديث معها. اختلف عن صوته في أثناء العمل، لا يكاد ينتبه إليه. يُجبره صمت الولد على التفكير بجواب أكمل:

- أؤمن بنفسي، بك، بأشياء كثيرة، يمكننا الحديث عنها، أن هناك أسباباً وجيهة للعيش.

هل يحادث رجلاً؟ هل يتزحلق على الأحداث، كما اعتاد أن يفعل؟ ولكن هل سيفهم؟!

- أبوك كان يسارياً، وكان أيضاً مؤمناً.

- أنا أيضاً سمعتك ذات يوم تبكي، وأنت تسمع تلاوة من القرآن في المذياع، أنت إذن لا تختلف عنه كثيراً.

- أنت على حق، نشأتنا واحدة، بيئة شعبية، الإيمان فيها بالفطرة، ولدى والدك درجة عالية من الحساسية لما حوله، ما جعل من شخصه مزيجاً من المتناقضات، الحلوة في الغالب، حين تقدم لخطبة أمّك، اقتضى أن يُظهر الجانب المتديّن فيه للعائلة، برع بالفعل في ذلك، حفظ ما نزل في الكُتب السماوية، والدينية أيضاً، حتى ظنه جدك واعظاً دينياً، هل تدري؟ العاطفة هي التي تحتال على الإنسان، وتظلّله، على الأخص عندما تكون تركيبة الإنسان، لنقل مختلّة، بين جانبين، نسبة العاطفة إلى العقل حينها، يسهل اختراقها وتحريكها في الاتجاهات كلها.

- كيف كان؟

- أنتَ تشبهه إلى حدّ.

- هل يشبهك بشيء؟

- كان ثورياً رومانسياً، وأنا كان عندي دافع آخر، هناك التحدي أيضاً. كنتُ أفكّر، وأنا أتلقى الركلات واللكمات، كيف يمكنني خداع الجلاد، والتحايل عليه لأبقى على قيد الحياة لأعود إلى العائلة، أخشى أن يضيعوا من دوني. من الحماقة أن تُهدَرَ حياتك على يد حمقى وأغبياء، خشيتُ أن أموت، خشيتُ أن أفقد بصري، أنت تفهم ما أقصد؟

يجلس هاني، وهو يمسك بغصن رفيع يابس مطرقاً برأسه عند الطاولة، يرسم دوائر على البلاطات. كرّر الخالُ سؤاله.

- خشيتُ أن أفقدك أنتَ الآخر، هل تذكر ذلك؟ ليس من المستبعد أن يتكرّر ما مررنا به، الذي كلّفنا حياة أبيك، وأمّك، وأختك، لا أريد أن نستبعد شيئاً.

- لا أريد الحديث عن ذلك،

- أمّك كانت من أشجع النساء الشابّات اللواتي عرفتهنّ البصرة، وأبوك أيضاً. غابا عنا بأجمل صورة لهما في الذاكرة.

- هُم شيء ممسوح، في رأسي، ومن ذاكرتي، أنا لا أتذكّر شيئاً، ولا أرغب حتّى بتذكّر شيء.

صمتا لفترة. وما إن قال الخال كلمته المعهودة تلك (هذه ضريبة وجودنا على هذه الأرض)، حتّى نهض هاني من مكانه، وتحرّك. لم يشأ الخال أن يبدو واثقاً متعالياً، لكن نبرة الولد استفزّته. راقبه بقلق. طالت فترة شروده، وعزوفه عن الكلام. لا يريد أن يسمع. اختار مكاناً قريباً حدّ عمود الرخام، وتسفر. كيف يُعيده إلى مكانه؟ أراد أن يعتذر له، ويعترف أنه لا يجيد الآن لا دور صديق، أو أب، ولا أخ. تمنّى لو جلس معه في مقهى، لو أدخله بيت عاهرات، أو باراً، أو ملهى ليسّر المكان فكّ عقدة لسانه. ولكنه نفسه لم يعرف طريقاً إلى هذه الأماكن.

عبّ بسيم ما في القنّينة، وهو سارح. في اليوم الذي تمّ استدعاؤه ليمثل أمام مدير أمن المصنع في النجف صباح اليوم التالي، وصل البيت، ودخل غرفته، وأغلق الباب. رمى بنفسه على السرير بملابسه وحذائه.

الطريق بين المعمل والبيت قصير، ولكنه رآه في نومه تلك الليلة، تكوّم عند الباب معصوب العينين، لا يرى إلا ضباب أشياء، كأنهم كسروا له كل عظامه، فصار جسده كيساً محشواً باللحم، جاؤوا ليسحلوه عبر الطريق إلى غرفة التحقيق، جسدٌ محطم فاقد القدرة على الحركة والوقوف، وقدماه مثل طابوقتين وارمتين متقرّحتين، توضح أعلاهما حزّ الكاحلين. يهطل المطر مدراراً، وجثته بالسحل تجرف وحل الطريق الذي يطول، يمرّون بعنابر حديدية على الجهتين، يسمع أنين الشباب الذين خُشروا فيها مثل الخراف، يسمع هيجانات المحقّقين هنا وهناك، وهيستيريا الجلادين. يرفعون العضابة النتنة ليعلنوا عن بدء حفلتهم. ملابسهم الممزّقة بلطخات الدم الطازج والقديم. عيونهم التي ليست سوى محاجر، تعلن عن بدء وليمة تعذيب دسمة. عندما فزّ من نومه، لم يستطع أن يحرّك عضلات وجهه إذ شُلّ لسانه. هذه المرّة تفلكه الفزع تماماً. على يقين من مشيه إلى موته. صعب عليه مواجهة زوجته بأمر الاستدعاء، ومضى في الطريق من دون أن يترك خبراً، وكأنه يتوغّل في عتمة المجهول.

يبدأ الولد بالحديث فجأة، وبصوت منفعل:

- لا أريد أن أسمع شيئا عنك، وعن أبي بعد الآن، أعلم أن كلّ همّك الآن أن تتّقي شرّ وجودي، وخيره، وأن تدفعني بعيداً عنك، هل تدري؟...

غصّ هاني بالكلمات، شعرَ بسيم به يضغط على لوزتيه، وهو يتحدّث، أدار وجهه إلى الجهة الثانية قليلاً، وسحب نَفَساً من سيجارته. بعد ثوان، واصل هاني؛

- عندما مرّ المنتفضون بي، نسيتُ ضعفي مرّة واحدة، انطلقتُ قدماي لتلحقهم، شعرتُ وأنا أجري ضمن هذه الحشود بقوّة جبّارة، كمَن تناول تركيبة سِخرية، أنتَ تعرف، أنا لم أجرؤ أن أعذّب قطة في حياتي مثل الأولاد، أو أخنق عصفوراً بيدي يوماً. أنا العليل مسكتُ بمشعل، أحرقُ، أدمّر، أسرق، وأهتف، مثل مغامر شجاع، فجأة شعرتُ بأني ومع هذه الحشود، يمكن أن أفعل شيئاً، وإن بدا سخيفاً، بقرنا أكياس الرز في مخازن الأغذية لتغرف الناس منها، نهبنا محلّ مشروبات روحية بأكمله، ورفعنا الكارتونات إلى البيك أب، حرقنا مركزي شرطة، وأخذنا الأسلحة منهما، وانطلقنا نركض، جميعنا شباب يركض، ويصرخ، ويركض، أصرخ بأعلى صوتي، شققتُ قميصي، وكلنا كنا نركض بصدور عارية، وربّما حفاة، لا أذكر، شعور غريب، وأخذ آخرون يتبعوننا، ورحنا نتسابق في الركض،

حاولتُ أن أريها قوتي، وهي تصفّق لي، وتضحك...

توقّف هاني بسبب انفعاله، وأخذ جرعة من البيرة. تغيّرت نبرة صوته تماماً، ما إن ذكر زوجة خاله. كان يصعب عليه النطق، كلّما حاول أن يذكرها بشيء، ويوشك صوته أن يختفي تماماً

- عندما حدثت الانتفاضة، كان جسدها لم يبرد بعد. آخ، لو انتظرتْ قليلاً. لا أفهم لمَ استسلمتْ هكذا. أنا أم أنتِ سبب علّتها؟ لا أذكر شيئاً، غير أني كنتُ أبكي، وأنا أركض على الإسفلت، أركض، وأصرخ، وأبكي، فكّاي ارتجفتا، وصار بكائي نحيبا، ولكنْ ماذا بعد هذا، فجأة اختفى كل شيء، وكأنه أحد كوابيسي، لا غير...

صمتٌ طويل. يسحبان السجائر من العلبة على الطاولة. نفدت زجاجة العَرَق، وهزّ بسيم بعض قناني البيرة، ورفعها إلى مستوى نظره ليتأكّد من فراغها. نهض، وسار إلى الداخل ليحضر ماءً وثلجاً.

- أ رأيتِ؟ أ لم أكن محقّة فيما قلتُه؟

ما يزال مستغرباً نبرة صوتها التي تنمّ عن غضب ويأس كاملين منه.

- ولكني عشتُ له، لكم، بنيتُ هذه القطعة من الأرض لبنة لبنة من أجله. ما الذي يربطني بكل هذا لولاه، وتلك الأخت بقدرها التعس؟ هذه الأرض الخالية إلا من النخل، مَن حوّلها إلى بستان؟ ألا يشهد لي هذا بشيء؟ لِمَ محاكمتك هذه؟ دفعتُ ما أملك لأخلّصه من الإعدام، لم يبقَ لدي ما أعطيه، لن أستطيع حمايته، هل تفهمين؟ استدنتُ حتى مبلغ سفره، لم يبقَ شيء، لا مال، ولا إدراك، ولا قوّة.

جهلتُه يعود إلى الحديقة بصفة قاتل، راح يتفحّص اثاره، ويتأكد من موت ضحيّته تماماً. مشاعر متضاربة تتناوشه، يحاول أن يمسحها بيقينه من قصور الآخرين في فَهمهم، وفي إدراكهم لمصلحتهم.

صمتٌ يأتي من البساتين في البعيد، لا يقطعه إلا عواء الكلاب وأزيز الحشرات بين فترة وأخرى. تحزك هاني في مكانه، وعاد للكلام، لمعتْ عيناه وأسنانه، لكن صوته طلع بطيئاً مجهداً ضعيفاً جداً:

- لك الحق بالقول إن كل ما قمتُ به حماقة، حتى إحساسي الذي وصفتُه لك تغيّر فجأة بعد انتهاء كل شيء، هذا العالم المثير الذي دخلتُه، وظننتُ من خلاله أني بطل، اختفى كله، عدتُ على الفور فأراً، يحاول أن

يجد له أيّ جحر ليختفي حالما اكتسح الحَرَس الجمهوري المدينة. عدتُ مجهولاً، مجهول الأب والأمّ والخال والعمّ. جئتَ أنتَ، وأخفيتَني مرّة أخرى، وقبرتَ أداة الجرم. هم انتصروا على المنتفضين، وأنتَ انتصرتَ عليّ، هم قمعوا المتمرّدين، وأنت قمعتَني، هم استرجعوا سلطتهم، وأنت استرجعتَ سلطتك عليّ، أنتَ المنتصر دائماً، أنتَ الذي تملك الإرادة، وأنا المسلوب منها، أنت مَن يخطّط، وأنا مَن ينفّذ، كذلك كنتَ معها، وطبيعي أن تؤمن بنفسك، طبيعي أن تكون واثقاً قاسياً، عنيداً بارداً متسلّطاً، وطبيعي أن أبدو أمامك شيئاً تافهاً، حيواناً جباناً، أقصى ما أشعر به هو حماية هذا البيت لي ولقوّتك، وهي راحت لتخفّف عنا ثقل مواجهتنا.

اختنق، وتحشرج صوته.

-استرحنا منها الآن، واستراحت هي منا.

ينظر بسيم صوب باب المدخل إلى الصالة، بينما ينظر هاني صوب حديقتها. يحاول أن يقاوم في داخله صوت هاني، وهو ينتحب.

- لا أدري لمَ راحت؟ أنتَ تعرف أفضل مني، لو تخبرني، لِمَ ماتت؟. أنا مثل كلب يلوي ذيله، يفرح إن وجد له مكاناً في الزاوية، حيوان، لا النوم ولا الأكل ولا الكلام طبيعي عندي. أشعر أني عار، وأنتَ، مَن أنتَ؟ أنتَ السبب في كلّ ما حدث لنا، أنا... بالأحرى منذ الغد، أنا طليق، لا أعرفك، لا أريد أن أذكرك. لا أريد.

آثر ألا يجيبه. تملكته رغبة بقطع الحديث، والمغادرة لإحساسه بعدم القدرة على احتواء انفعالات الولد، ولا التوضيح، ولا جدوى من الحديث الآن.

يقع بسيم في حيرة عندما يكون قريباً جداً مثل الآن. مع سلوى ينتقي بنفسه ما يرغب بالحديث عنه، ما لا يزعجه، ويزعجها. شَردَ مع أفكاره، يفتل طرف حاجبه، بينما الهواء يحرّك سعف النخلات القريبة، ممّن كنّ حبيبات، الشقرة، الحلوة والنشوة، فسائل شتلها ووجودها بوجود الولد، علَتِ الآن، وتعالتْ، وانفصل هاني عنها. في قرارة نفسه، لم تختلف الظروف. ما اختلف حقيقة هو خوفه على هذا الطفل، ومحاولة إيجاد علاج لحالته. زيارات المخابرات والأمن المنتظمة قلّتْ، وقلّتْ حتى انقطعتْ بابتعاده بنفسه عن المكان الأوّل والمهنة الأولى وتغيير الهوية. لكنّ ما أدراه، وهو ما يزال يخشى أن يكون اسم هاني مقيّداً لديهم ضمن

المنتفضين. جولات تكسير عظام مستمرّة، من الخارج، في الداخل. أولى وثانية وثالثة، وما يزالون يتصيّدونهم، البيوت خالية من شبابها، والأقبية ملأى بالسجناء، والمخازن لا تزال، يقال تُملأ بالجثث.

تحوّلت حلوله إلى حلول آنية في السنوات الأخيرة. وجد نفسه في مكان آخر تماماً! من الممكن أن يطرأ شيء، ويغيّر من الوضع. تغيّر جانب ما فيه. الوقت لم يكن في صالحه. هكذا صار يفكّر. زاد سوء فَهم مَنْ هُمْ حوله له. آمن بضرورة التحايل على الحياة، لا إحقاق للحق ولا للعدالة، لا يمكنه مع هذه الحياة إلا أن يخدع ذاته (الحقيقة أخرى غير تلك التي تُمرضنا).

تفاجئه غلاظة صوته، وهو يدور تجاه هاني ليقول بانفعالٍ، حاول أن يسيطر عليه:

- اسمعْ، ما دمتَ تعيش، هو وحده انتصار لك في هذه الظروف، هذه هي المقاومة، لو تفكّر ملياً، لوجدت الظروف التي يعيشها هذا البلد إجمالاً ومنذ زمن، ليست طبيعية، تكرار غبيّ، هيمنة للشرّ، وقسمة غير عادلة دوماً، أينما رحتَ، أو فعلتَ، لم يتسنّ لك أن تعيش حياة سوية لكي تقارن، إن وصلتَ، واستقريتَ في بلد، عليك أن تعدّ نفسك من الناجين، تذكّر هذا، وحاول أن تعوّض ما فاتك قدر استطاعتك، معك شهادة متوسّطة، وهذه تكفيك، أنا عندما تخرّجتُ، عملتُ لفترة طويلة في بيع الطبّاخات في سوق حنّا الشيخ، لم أجد عملاً في مجالي، الكُتُب لا تكفي لأن تفهم، الدراسة والجامعة لم تكن لتعينك، بل العكس، كانت ستضرّك، المدرسة في زمنك هذا ستغرس الخوف في نفسك، وتغسل مخّك، ستجعّدك بمنهج سياسيّ غبيّ.

يرفع يده مبيّناً إصراره لتكملة ما يريد قوله، وعدم سماحه لهاني الذي همّ بمقاطعته.

- وبعيداً عن هذا، فالمدارس تولّد لدينا عدم رضى لأننا قاصرون، وهناك مَن هو أشطر منا، ستسأل، ولكنْ في ماذا؟ سيظلّ تفكيرك أن هناك مَن هو أشطر منك، ينغرس الإحساس فيك من دون أن تناقشه، والأشطر هل هو أسعد؟ أجرأ؟ أذكى؟، أغنى؟ هل تظن هذا صحيحاً؟ طبعاً لا. والماضي، لا أقدّسه، ولكنْ يؤسفني أن أقول لك إنه أبهى رغم كل شيء، أبقى على الأمل فينا، هدفك الآن هو أن تقاوم لتحفظ نفسك، ولتزرع فيها الأمل ما إن تصل إلى مكان آمن، فكّر في كرامتك في أثناء سفرك. (كنتَ ستموت

ميتة، لا يتمنّاها أحد لعدوّ، وربما ربّوك لتكبر بينهم جلاداً، لا يبارح السجون، ولا يعرف للنور طريقاً). المعرفة أمر لاحق، المعرفة في داخلك، الأهمّ هو أن تحافظ على فضولك في الحياة، أن تنمّي ذوقك، ما بك تراجعتَ؟ أ لستَ مقتنعاً؟ أ لم توافقني في القرار؟ أنا لا أفهم أين الخطأ! أ لم أسألك؟ أجبني!

نشف ريق بسيم، فدار من حوله بحثا عن قدح ماء. اندفعتْ من جوفه الجملة

- تمتّع بالحياة دون أن تفكّر كثيراً، إن كنتُ أستطيع أن أذلّلَ لك الطريق، وأدفع عنك متاعب ومعاناة، فلا ضير في ذلك، ليست المعاناة شرطاً لإحساس الإنسان بالحياة، بقيمته وبمشاركته. حاول أن تنسى، انس أن تفكّر.

- ولمَن أعيش، إذاً؟! أنا شيء زائد، فائض عن الحاجة، أنتَ لا تعرف هذا الشعور، لا تفكّر بي. أنا نفسي... ما الذي يحزّكني؟ لولاك، لكنتُ مهاناً، لولاك، لهلكتُ الآن، وغبتُ في مخازن التعذيب، أو لقطّعوا أوصالي، ولرحتُ، كما راحوا. قلتُ لك لم أستطع أن أخنق قطّة مثل الأولاد، لم أقذف كلباً بحجارة، ولم أعذّب عصفوراً، ولم...

توقّف فجأة، ونهض ليأخذ نَفَساً. ولى بسيم ظهره، وبدا أنه في طريقه لمغادرة البيت، ولكنه عاد، واقترب ليتابع؛

- أنا لم أنجح في أبسط اختبار. بخوف مستمرّ لأني لا أتذكّر ما لا تريد مني أن أتذكّره كما شئتَ لي، لا أجد غير البستان ملاذاً آمناً لي، أحاول أن أقرأ في عيونك ما تفكّر به، آخذ الإشارة منك مثل عبد، وكأنك تكرهني، لستُ سوى عبء عليك، لا تريدني أن أفهم، تخفي ما تقرؤه عني، لا تفكّر بي، تحتقرني بالمال الذي تمدّني به، بما توفّره لي، غيرتَ اسمي، ونقلتَ اسم عائلتي إليك، أ لم يخطر ببال أحد أن يسأل؟ أريد أن أسمع منك الآن ما حصل.

تفاجأ بسيم. حاول جهده أن يخفي دهشته. لم يكونا على بيّنة من أمر ذاكرته تماماً. مثل شيء يظهر، ويختفي. لا يدري إن كان هاني يذكر اسمه الحقيقي. ولكن اللحظة صارت مرهونة بأكملها في جوابه، وقف هاني على رأسه، ولا مفرّ، عليه أن يختم هذا الفصل الطويل، شربَ فض الثلج الذي ذاب في قعر كأسه، وأوعز إليه بإشارةٍ من رأسه كي يهدأ، أن يجلس

وينصت. وشرع بصوت خفيض:

- لولا الجيران في المنطقة هناك، لما عرفنا شيئاً عن اختفائهم. اشتموا في العائلة رائحة معارضة، وفي عودتهم بعد انتهاء الدوام في طريقهم اليومي إلى البيت، والذي كنتَ ترافقهم إيّاه (عدا ذلك اليوم)، وبحركة سريعة، نزل أربعة من رجال الأمن من سيارة الجيب، واقتادوا الوالد والوالدة وأختك عنوة إلى داخل السيارة، قريباً من وقبل ولوجهم البيت، حركة لم تتجاوز بضع دقائق قيل، سمع الجيران خلالها صوت صرخة، فلتت من الطفلة. الرجال كانوا ملثمين، رأوهم من خلف الأبواب، وعبر شقوق الستائر، كتّفوا أبيك، وعصّبوا حتى عيني الطفلة... وكدليل، أشار الجيران إلى كيس العدس الذي سقط من يد أمّك، وتناثر في المكان على الإسفلت.

صمت هاني، وغرق بسيم في الجملة الأخيرة. حياة بلا خيارات. حالات اضطرارية حسب، حالات طوارئ، امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً. منذ مدّة، وهو يتطلّع إلى الهدوء القادم، يداهمه الخوف منه، بقضمات صغيرة. استدار يميناً ويساراً، خاف من ردّ فعل هاني، ولكن هاني قطع عليه حيرته فجأة:

- سأقولُ لكَ كل شيء لتعرف، ما دمت اخترتَ اليوم أن تُسمعني لأوّل مرّة، سأستعيد اسمي من الغد. هل تقبل بذلك؟ لا يهمّني في الحقيقة إن قبلتَ أم لم تقبل، وهل تقبل لأب أن يترك ابنه يحزر، ويحدس، ويهجس ما يدور من حوله، ما فكّرتُ به، ما أحببتُ، ما الذي دار، وكيف آل كل شيء إلى ما آل إليه، هل هذا مقبول؟ هل تعرف ما يجنّني، في هذا العمر، أن أعود، ولا أجد البيت، مثل طفل، هل تفهم هذا؟ أن أدخل وأقطع هذا الدرب الترابي الطويل، وأضيّع العنوان، أن ألتفتَ، ولا أجدها. هذا الحذر الذي زرعتماه فيّ، حوّلني إلى مخلوق جبان، رعب وخوف يسكنانني، أن أستيقظ صباحاً، ولا أسمع حركتك حول البيت. هل تعرف الإحساس الملازم، أن يعود الطفل، فلا يجد أثراً لبيته، لأمّه ولأبيه؟ أنا ولدٌ مخدوع، هل تعرف الشعور هذا؟

تهدّج صوته في سؤاله، وبكى. بكى كما بكى ذلك اليوم الذي جاءت به زوجته إلى البيت عنوة. بكى، كما بكى، عندما اختفت المرأة الأمّ من حياته. أين هي الآن؟ لم لا تظهر الآن لتتحدث معه؟ ألا تسمع؟ أين هي، بحقّ السماء؟ ينظر تارة تجاه باب المدخل إلى الصالة، وتارة صوب

حديقتها، يبتهل إليها كي تُنجده الآن، أن تأتي لتهدهد ابنها. يبتهل كي تهبط على الولد، أن تطلّ وتلفّ ذراعيها حوله، كما اعتادت أن تفعل. يفكّر أن يسكب له قدح ماء بارداً. يلعن ذاته في داخله. يدفن الولد رأسه بين يديه، وهو منحن في جلسته على الطاولة. وبسيم متسفّر، لا يتحرّك من مكانه، ولايملك إلا نفث الدخان.

هدأ بعدها كل شيء. ليل مظلم، وأزيز حشرات، ونقيق ضفادع بعيد، وخشخشة مفاجئة بين الحشائش. هدوء لدقائق، يقطعه صوت نباح قطيع كلاب، هاجت مزّة واحدة. ثمّ يأتي العواء جواباً من الجهة الأخرى للبستان المجاور. يتصاعد، ويتصاعد، باقتراب القطيعين منهما. يتحوّل الفضاء للقتال. تهرب الحيوانات الصغيرة الزاحفة إلى جحورها، وتصمت الكائنات التي اعتلث بيوتها الأشجار. مباراة قوية بنباح متواصل بين الطرفين، لا ينقطع.

ينهض الولد مترنّحاً. يسير من دون سيطرة على ركبتيه، ويدخل البيت. لا يفهم بسيم غايته، ولا يعرف ما يتوجّب عليه فعله. ينكّس رأسه. روث لهم الأمّ قبل نومتها الأخيرة حلمها. كانت ترى حبّات العدس كلّما نظرث أسفل إلى الأرض، كانت الناس تدعس على حبّات العدس في كل مكان، كيس العدس الذي سقط لا يفرغ، الحبّات على الإسفلت، تكبر كل يوم، وتنتشر لتغطّي مساحة أبعد، فأبعد، والناس لا تستطيع المتابعة في سيرها رهبةً، كانت تتعثّر بها في الطريق مثل حجارة.

الوداع

يعود هاني حافي القدمين إلى الحديقة رافعاً البندقية. يتقدم في طريقه في الممشى، ويتخطى بسيم، يتوغل مسافة على العشب صوب البستان، خشخشة خطواته تعود لأقدام فلاح هرم، يدلّ طريقه بتوغله بين الأشجار. لا يرى بسيم في الظلام غير التيشيرت الأبيض، وهو يبتعد، وقد انحنى أعلى ظهره بعض الشيء تحت ثقل البندقية التي حملها، لكن هاني يتوقف ليستدير مقابله تماماً، وكأنه قد شبر المسافة، يعتدل، ويقف منتصباً، تتوضّح صورته تماماً أمام بسيم، يحرك قدمه ليرتكز جيداً في وقفته، يرفع البندقية، ويسدّدها نحوه، وهو يركّز لتصويب الفوهة. ثمّ يضع يده على الزناد، تمرّ في ذهن بسيم لحظة استقبال موت محتّم، كان قد عاشها، ولم يفعل غير أن يستسلم لما سيلحقها. وهو قد حذر هذا اليوم مسبقاً ليكون نهاية لعذاباته، أياً كانت الطريقة. هل عرف هاني هذا الذي أمامه؟ هل هو ابنه؟ وهل عرف هو أخته؟ ما مقدار السوء الذي فيه تجاه أهله والمقرّبين منه؟ مَن هو السويّ بينهما؟ ومَن هو المذعور؟ المهزوز؟ مَن هو؟وما هي الصورة التي يريد أن يراها عن نفسه الآن؟ وهل هي النسخة ذاتها التي سيسدّد هاني الطلقة إلى قلبها؟ شيء من الارتياح يغمره، وكأنه انتهى الآن، وما سيلحق غير مهمّ بالمرّة. حين خرج من التعذيب قبل سنوات تملّكته رغبة عارمة بارتكاب جريمة، جريمة ما، وإن كانت بسيطة لتخفّف من غلواء إحساسه بالغُبن، ومن مرارة الإحساس بالخيانة من قِبَل رفاق، كانوا بمثابة عائلة قريبة له، قد تُرك وحيداً ليُنقذ حياته، وليُعالج أمره. ولم تُسعفه مخيلته بشيء حينها، ولعلّ هاني بوقفته الآن مسدّداً البندقية تجاهه يفكّر بالشيء ذاته. شعر بتعب وإنهاك، وهو جالس في مكانه، إنه مستعدّ للإمضاء على القرار، ذاهب بعيداً جداً في تشجيعه في داخله (هيا، افعلها لننتهي...)،ولكن هاني لم يلبث أن رفع يديه عالياً صوب السماء ليضغط على الزناد، إطلاقتان في الهواء تجرحان الظلمة بقدحهما، وتشقّان الصمت بدويهما.

ضحك هاني بصوت عالٍ، وهو ينظر إلى خاله، ثمّ رفع يديه ثانية، وأطلق ثالثة. فرّت الكلاب، تسابقت مهرولة فيما بينها مسرعة بالاختفاء.

تأمل الخال وجه الولد تحت ضوء القمر، فوجد فرحاً طفولياً مشوباً بمسحة انتصار. اندفع تيار هواء بارد، حزك الأغصان خفيفاً والسعف. انكشف لون السماء، توضّحت بضعة نجمات فيه، لامعة متباعدة في مكاناتها. كأن سقفاً ينفتح لينسكب الضوء على مهل. الفجر على وشك البزوغ. انهمر شيء من تعب مباغت، جرفهما حتى طفا كلّ من جسديهما. انقطع صوتاهما، وساد الصمت.

جزيل شكري وامتناني لدعمكم، وللأجوبة مختصرة وتفصيلية، وللتواريخ والأمكنة.

إلى الأحبة والأصدقاء سلمى، لنا، طالب، عماد، سلام، سهيل، محمد، سمير، مقداد، محمد، عبد المطلب، ميرال، وحسن.

المؤلفة ذنى غالي:

كاتبة ومترجمة مقيمة في الدنمارك. هذه روايتها الرابعة بعد «النقطة الأبعد»، «عندما تستيقظ الرائحة» ورواية «منازل الوحشة». كما صدر لها مجاميع نصوص نثرية وشعرية أيضا. أصدرت باللغة الدنماركية رواية ومجموعتي نصوص نثرية وشعرية، إضافة إلى ترجمات أدبية من اللغة الدنماركية. آخر إصدار لها كان «لاتقصصي القصص يوم الأربعاء» ٢٠١٦ الصادرة من منشورات المتوسط .